ISSN:
: 3005-6691
: 3005-6705

تبيين

لِلدِّراسَاتِ القُرآنيَّة

مجلة فصلية، تُعنى بالقضايا المعاصرة من منطلق قرآني

السنة الثانية - العدد (٦) شتاء ٢٠٢٥م - ١٤٤٦هـ

الأمن الفكري في القرآن الكريم

◂ الافتتاحية: الأمنُ الفكري.. الحِصن الرّكين لمُجتمع الانتظار

◂ المحور:
- الأمن الفكري: مفهومه ومرتكزاته ومعوقاته
- منهج الأنبياء في تحقيق ركائز الأمن الفكري
- دورُ العقلِ في تشخيصِ الفتنِ النوعيةِ وسُبلُ معالجتها
- الإعلام ودوره في تعزيز الأمان الفكري
- منهج أهل البيت عليهم السلام في تحصين المجتمع الإسلامي من الانحرافات الفكرية

◂ دراسات وبحوث:
- محورية الظلم في سُنن هلاك الأفراد والقرى والأمم

◂ قراءة في كتاب:
- «الأمن الفكري في نهج البلاغة»

مركز براثا للدراسات والبحوث

الأَمنُ الفِكريُّ
في القُرآنِ الكَريمِ

السنة الثانية – العدد (٦): شتاء ٢٠٢٥م – ١٤٤٦هـ

ISSN:
: 3005-6691
: 3005-6705

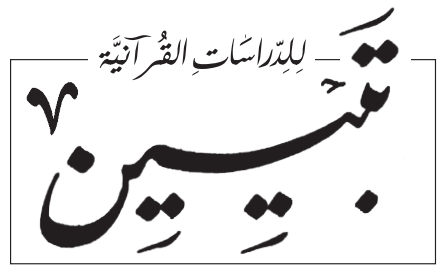

تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

مجلة فصلية، تُعنى بالقضايا
المعاصرة من منطلق قرآني

www.barathacenter.com
www.Tabyin.barathacenter.com
Tabyin.magazine@gmail.com

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ

[النحل: ٨٩]

رسالة المجلة

١. العودة إلى القرآن وتأكيد مرجعية آياته في معالجة قضايا الأمة المعاصرة.

٢. نشر الثقافة القرآنية على نطاق واسع وربط الأمة بكتابها المقدس لتجاوز القطيعة المعرفية معه.

٣. التأكيد على قدرة القرآن الكريم على بعث الروح وتجديد الفاعلية في عقل ووجدان الأمة لتحقيق النهضة المنشودة.

٤. ترسيخ مرجعية أهل البيت عليهم السلام في فهم القرآن وتأويله انطلاقا من حديث الثقلين؛ لأهمية ذلك في التمهيد للمجتمع المهدوي الموعود.

العدد (٦)
٢٠٢٥م

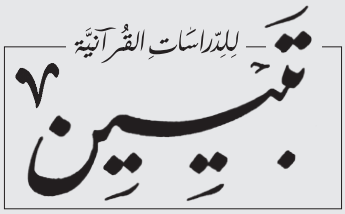

مجلة "تبيين للدراسات القرآنية" (Tabyin for Quranic studies) دورية علمية فصلية، تصدر عن: مركز براثا للدراسات والبحوث وتُعنى المجلة بمقاربة القضايا والتحديات الفكرية المعاصرة مقاربة قرآنية، وتهدف لتأصيل القضايا المعاصرة من منطلق قرآني.

ترحب المجلة بمساهمات الكتاب والباحثين بالكتابة في المجالات المتعلقة باهتمامات المجلة العلمية، ويمكن للراغبين بالكتابة مراسلة المجلة على العنوان التالي: مركز براثا للدراسات والبحوث – مجلة تبيين: بيروت، بغداد.

رئيس التحرير: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨
مدير التحرير: ٠٠٩٦١٧١٥٨٤٩٤٩
البريد الالكتروني:
Tabyin.magazine@gmail.com

في العدد المقبل:

تَرْشِيْدُ الاسْتِهْلاكِ وِفْقَ القُرْآنِ الكَرِيْمِ

المشرف العام:
■ الشيخ جلال الدين الصغير

رئيس التحرير:
■ د. محمد محمود مرتضى

مدير التحرير:
■ د. محمد دكير

المدير الفني:
■ أ. خالد معماري

المدير المسؤول:
■ د. علي محمد جواد فضل الله

التدقيق اللغوي: ■ د. محمود الحسن

المتـرجـمـون: ■ أ. لينا السقر (إنجليزي)

■ الهيئة العلمية:

- أ. د. عباس الفحام (البلاغة القرآنية - العراق)
- أ. د. حسن رضا (تربية - لبنان)
- أ. د. مبروك زاد الخير (دراسات اسلامية -الجزائر)
- أ. د. طلال فائق الكمالي (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- أ. د. محمد رضا حاجي اسماعيلي (دراسات قرآنية - إيران)
- أ. د. منير بن جمور (الفقه وعلومه- تونس)
- أ. د. فاضل مدب المسعودي (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- أ. د. محمد كاظم رحمن ستايش (علوم القرآن - إيران)
- أ. د. إقبال نجم وافي (علوم القرآن - العراق)

■ هيئة التحرير:

- أ. م. د. أسعد عبد الرزاق الأسدي (الشريعة والعلوم الإسلامية- العراق)
- ش. د. جواد رياض (الفقه وعلومه - مصر)
- أ. د. حسن كاظم أسد (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- السيد حسين إبراهيم (علوم القرآن - لبنان).
- أ. م. د. حكيم سلمان السلطاني (لسانيات وخطاب قرآني - العراق)
- د. عبد الله جنوف (دراسات اسلامية - تونس)
- أ. م. علي بنائيان أصفهاني (علوم القرآن والحديث - إيران)
- د. قائد عبد المطلب الفحام (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- د. لقاء جواد الكعبي (علوم القرآن والحديث - العراق)
- أ. د. محمد رضا ستوده نيا (علوم القرآن والحديث - ايران).

شروط النشـــر في مجلــة «تَبَيِّنٌ»

- البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- عند قبول البحث يتعهد المؤلف بنقل حقوق ملكية البحث إلى المجلة، وعدم نشره في أية مجلة أخرى إلا بعد أخذ موافقة خطية من إدارة المجلة، ويكون من حق المجلة نشر البحث في كتاب جماعي؛ وفي حال أراد الباحث نشر بحثه في أي وسيلة نشر ورقية أو الكترونية، فيجب عليه أخذ موافقة خطية مسبقة من إدارة المجلة..
- تلتزم المجلة بإعلام المؤلِّف بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل، أو وفق تعديلات معينة بناءً على ما يرد من ملاحظات المقوّمين، أو الاعتذار عن عدم النشر في غضون مدة لا تتجاوز (30) يوماً، إلاّ في حال الاستكتاب المُبكِر، لكن يتم إعلام المؤلف بذلك.
- في حال رفض البحث فمن حق المجلة إعلام المؤلف بأسباب الرفض أو عدم إعلامه بذلك.
- ترتيب البحوث (المقالات) في داخل المجلة يخضع لأغراض فنيّة، ولا علاقة له بمكانة المؤلِّف (الباحث) وشهرته.
- تدفع المجلّة مكافأة مالية لكل بحث يُنشر في المجلة، وتُعلِم المؤلف بقيمتها أو طريقة احتسابها مسبّقاً.
- المراسلات: ترسل بإسم رئيس التحرير: الدكتور محمد محمود مرتضى على العناوين التالية:
- رقم الهاتف: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨ أو البريد الإلكتروني: Tabyin.magazine@gmail.com

أخلاقيات النشر

- تلتزم إدارة المجلة بالحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
- تلتزم إدارة المجلة بمراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العِرق أو الجنس، بل الالتزام بقواعد التفكير العلمي ومناهجه، ولغته في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
- تلتزم إدارة المجلة بعدم الإفصاح عن أسماء المقوّمين (المُحكمين) للمؤلفين، كذلك تلتزم في الوقت نفسه بعدم الإفصاح عن أسماء المؤلفين للمقوّمين ويبقى هذا الأمر على نحو سري عند رئيس ومدير التحرير فقط.
- احترام حقوق الملكية الفكرية للبحوث المترجمة.
- يُشترط أن يكون البحث متوافقاً مع معايير الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث العلمي.
- يشترط ألاّ يكون البحث المرسل للنشر في المجلة منشوراً سابقاً في مجلة أو في كتاب، أو مستلاً من رسالة أو أطروحة، وألاّ يكون تم تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى في الوقت نفسه.

دليل المقوّمين

- إن المهمة الرئيسة للمقوّم العلمي للبحوث المرسلة للنشر، هي أن يقرأ البحث الذي يقع ضمن تخصصه العلمي بعناية فائقة، وتقويمه وفق رؤية ومنظور علمي وأكاديمي لا يخضع لأية أهواء شخصية، ويقوم بتثبيت ملاحظاته البناءة والصادقة بشأن البحث المرسل إليه.
- قبل البدء بعملية التقويم يتأكد المقوّم إذا ما كان البحث المرسل إليه يقع ضمن تخصصه العلمي أم لا، فإن كان البحث ضمن تخصصه العلمي فعليه تقدير كونه يمتلك الوقت الكافي لإتمام عملية التقويم؛ ذلك أنَّ عملية التقويم يجب أن لا تتجاوز (١٥) يوماً.
- بعد موافقة المقوّم على إجراء عملية التقويم وإتمامها في المدة المحددة يلتزم بإجراء عملية التقويم على وفق المحددات الآتية:
  - أ. تحديد درجة الأمانة العلمية للبحث.
  - ب. تحديد درجة مطابقة عنوان البحث لمحتواه.
  - ج. تحديد درجة وضوح ملخص البحث.

د. تحديد درجة إيضاح مقدمة البحث لفكرة البحث.

ه. تحديد درجة تناسب العناوين الفرعية وترابطها.

و. تحديد درجة المستوى العلمي للبحث.

ز. تحديد درجة المستوى اللغوي والأدبي.

ح. تحديد درجة قيمة المصادر ودقة الاعتماد عليها.

ط. تحديد درجة أهمية البحث وأصالته من حيث الآلية والنتائج.

ي. تحديد درجة حجم البحث.

ك. تحديد درجة صلاحية البحث للنشر.

ل. يحدد المقوّم بشكل دقيق الفقرات التي تحتاج إلى تعديل من المؤلف.

- يحدد المقوّم أسباب الرفض في حال قرر عدم صلاحية البحث للنشر.
- تجري عملية التقويم على نحو سري.
- يتم تبليغ رئيس التحرير في حال أراد المقوّم الأول مناقشة البحث مع المقوّم الثاني.
- ترسل ملاحظات المقوّم العلمي إلى رئيس التحرير لإرسالها إلى المؤلف في حال وجود ملاحظات على البحث؛ لكي يأخذ المؤلف بها للموافقة على النشر، من دون أن يعرف المقوّم من هو المؤلف، ولا أن يعرف المؤلف من هو المقوّم.
- تعتمد ملاحظات المقوّمين وتوصياتهم في قرار اعتماد نشر البحث من عدمه.

دليل المؤلفين

- يجب أن يكون البحث جديداً في طرحه، ولم يسبق لأحد أن تناول الموضوع بالآلية نفسها ووصل إلى النتائج نفسها، وأن يتسم بالعمق والتحليل والنقد.
- يجب أن تكون لغة البحث خالية من الأخطاء اللغوية والطباعية، وأن تراعى في كتابتها علامات الترقيم.
- المعلومات الواردة في البحث يجب أن تكون موثقة من خلال المصادر والمراجع العلمية الدقيقة.

- على المؤلف مراعاة أن تكون عدد كلمات بحثه تتراوح ما بين (٤٥٠٠) إلى (٥٥٠٠) كلمة.
- سيتم استعمال برنامج فحص نسبة الاستلال (Plagiarism Check X).
- سيعرض البحث على برنامج الاستلال قبل تحويله للتقويم، وسيرفض البحث إذا تجاوزت نسبة الاستلال النسبة المقبولة عالمياً (٢٥٪).
- في تسجيل الهوامش المرتبطة بالحواشي المرجعية، فإن الكاتب سيستعمل نظام (شيكاغو المعدل)، ويُدرج الهوامش في أسفل الصفحة (Footnote) عبر الادراج التلقائي.
- مثال على نظام شيكاغو المعدّل:
  - في حال التوثيق من كتاب: اسم المؤلف: عنوان الكتاب، ذكر الجزء أو المجلد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من مجلة: اسم كاتب البحث أو المقال: عنوان البحث، اسم المجلة، العدد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من كتاب جماعي: اسم كاتب مع عبارة وآخرون: عنوان الكتاب أو البحث، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من رسالة أو أطروحة: اسم الباحث: عنوان الرسالة أو الأطروحة، الجامعة والكلية، رقم الصفحة.
  - توثّق الآيات في المتن عقب النص القرآني مباشرة بذكر السورة متبوعة بنقطتين، ثم رقم الآية داخل حاصرتين، هكذا: (الإنسان: ٢٥).
  - الآيات القرآنية تُدرج محرّكة وفق التشكيل القرآني، وتوضع بين مقوسين خاصين، هكذا: ﴿بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾.
  - ملاحظة: ما تم ذكره في أعلاه من مصادر إن كانت إلكترونية فيتم إدراج الرابط بعد رقم الصفحة في الأسفل.
- يُدرج في نهاية البحث ثبت بالمصادر والمراجع، وفق ما ذكرنا أعلاه مع اضافة باقي التفاصيل المرتبطة به: دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، رقم الطبعة.

يستعمل الكاتب في بحثه باللغة العربية خط (simplified Arabic) بحجم (١٤) في المتن، ونفس الخط بحجم (١٢) في الهامش.

أما باللغة الإنجليزية فيستعمل (Times New Roman) بحجم (١٤) في المتن، بحجم (١٢) في الهامش.

يكتب في الصفحة الأولى الآتي:

- عنوان البحث باللغة العربية.
- اسم المؤلف باللغة العربية (اذا كان عربيا)، مع ادراج حاشية سفلية يذكر فيها: جنسيته، توصيفه العلمي، الدرجة العلمية والشهادة، وجهة الانتساب (الجامعة، الكلية)، أو (المؤسسة البحثية).
- ملخص للبحث باللغة العربية على ألا يتجاوز الملخص الواحد (١٠٠) كلمة.
- الكلمات المفتاحية على ألا تتجاوز (٧) كلمات.
- تقوم المجلة بإجراء ترجمة الملخصات إلى اللغات التي تراها مناسبة.

تعهد حقوق الملكية

إني المؤلف الباحث: .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بنقل حقوق الطبع والنشر والتوزيع إلى مجلة (تبيين) ومركز براثا للدراسات والبجوث.

التاريخ:

التوقيع:

تعهد الملكية الفكرية

أنا الموقع أدناه: .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بأن البحث الذي أنجزته لم يتم نشره أو تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى، سواء أكانت داخل لبنان أو العراق أو أي دولة أخرى، وأرغب بنشره في مجلة (تبيين) ومركز براثا للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

المحتويات

الافتتاحية

١٣ | **الأمنُ الفكري: الحِصنُ الرَّكينُ لمُجتمع الانتظار**
رئيس التحرير

المحور

٢٥ | **الأمن الفكريُّ في القرآن والسُّنة**
د. محمد تهامي دكير

٦١ | **منهجُ الأنبياءِ في تحقيق ركائز الأمنِ الفِكريِّ**
الشيخ د. عبد القادر ترنني

٧٩ | **دورُ العقلِ في تشخيصِ الفتنِ النَّوعيةِ وسُبلُ معالجتها في ضوءِ القرآن الكريم**
د. فاضل مدّب المسعودي

١٠٥ | **الإعلامُ ودورُه في تعزيز الأمان الفكريِّ من منظور قرآنيٍّ**
د. محمد محمود مرتضى

١٣٥ | **منهج أهل البيتِ عليهم السلام في تحصين المجتمع الإسلاميِّ من الانحرافات الفكريّة والعَقديّة**
الشيخ. د. جاد الله توفيق أحمد

دراسات وبحوث

١٥٧ | **مِحوريّةُ الظُّلمِ في سُننِ هَلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم**
إياد محمد علي الأرناؤوطي

قراءة في كتاب

١٨١ | **«الأمنُ الفكريُّ في نهج البلاغة»**
مراجعة: نبيل علي صالح

الأمنُ الفكري: الحِصنُ الرَّكينُ لمُجتمع الانتظار

بقلم: رئيس التحرير

في عصرٍ تتسارعُ فيه التَّحولاتُ الفكريّةُ، ويَتزايدُ فيه التَّداخلُ بينَ الثَّقافات، وتَعدُّدُ مصادرِ المَعرفة، وانتشارُ الأفكارِ المُتباينة، يُصبحُ الأمنُ الفكريُّ ضرورةً لا غنى عنها لحماية العقولِ من الاضطرابِ، والانحرافِ، والتَّشكيكِ المُمنهج. لم يَعدِ التَّهديدُ الذي يُواجهُ الإنسانَ مُقتصرًا على الحروبِ العسكريّة أو الأزماتِ الاقتصاديّة، بل أصبحَتِ العقولُ نفسُها ساحةً للصِّراع؛ حيثُ تُزرَعُ فيها الأفكارُ المُضلِّلةُ، وتُسلَبُ منها القُدرةُ على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

لقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى هذه الحقيقة منذُ قرون، مُؤكِّدًا أنَّ المعركةَ الحَقيقيّةَ ليسَت فقط بينَ القُوى السِّياسيّة أو الاقتصاديّة، بل بينَ الرُّؤيةِ السَّليمة للوجودِ وبينَ التَّصوُّراتِ المُنحرفة التي تُضلِّلُ الإنسانَ عن هدفه الحَقيقي. يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

إنَّ هذا التَّحذيرَ الإلهيَّ لا يُعالجُ مسألةَ المعلوماتِ المَغلوطة فقط، بل يَتجاوزُ ذلك ليَضعَ أساسًا عَميقًا للأمنِ الفكريِّ، وهو أنَّ العقلَ مَسؤولٌ عن المعرفةِ التي يَكتسبُها، وأنَّه لا يَجوزُ له أن يَبنيَ أحكامَه على الظُّنونِ والشُّبهات. ومن هنا، نجدُ أنَّ القرآنَ لا يُقدِّمُ الفكرَ كعَمليّةٍ عَقليّةٍ مُجرَّدة، بل يَربطُه بالبَصيرةِ، والمَسؤوليّةِ، والوَعي العَميقِ بحَقائقِ الوُجود.

لقد جعلَ الإسلامُ حفظَ الفكرِ من الانحرافِ جزءًا من منظومةِ الأمنِ الإنسانيِّ الشامل، فكما

أنَّ حمايةَ النَّفسِ من الأذى، والمالِ من الضَّياعِ، والعِرضِ من الانتهاكِ، هي ضَروريّاتٌ لحياةٍ كريمة، فإنَّ حمايةَ العقلِ من التَّضليلِ والتَّشويشِ الفكريِّ هي شَرطٌ أساسٌ لسلامةِ الإنسانِ نفسه؛ لأنَّ العقلَ هو البوّابةُ الأولى التي تُحدِّدُ مسارَه في الدُّنيا والآخرة. ولهذا أكَّدَ القرآنُ الكريمُ على أنَّ الأمنَ الحَقيقيَّ يَبدأُ من استقامةِ الفكرِ، وصحّةِ الرُّؤيةِ، ونقاءِ التَّصوُّرِ عن الله، والوجودِ، والإنسان، فقال تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢].

إنَّ الفكرَ حين يَضِلُّ، يَجرُّ الإنسانَ إلى طريقٍ مُنحرف، حتى وإنْ ظنَّ أنَّه يَسير في الاتِّجاهِ الصَّحيح، ولهذا كان القرآنُ يَحثُّ الإنسانَ دائمًا على التَّحقُّق، والتدبُّر، والتأمُّلِ في المَعلومةِ قبلَ تبنِّيها؛ لأنَّ الانحرافَ الفكريَّ ليسَ مُجرَّدَ خطأٍ في المَعرفة، بل هو زَلَلٌ يُؤدِّي إلى سقوطِ الإنسانِ في الضَّياعِ والخذلان، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

في هذا السِّياق، يأتي الحديثُ عن الأمن الفكريِّ في القرآن الكريم، لا بوَصفه مُجرَّدَ قضيّةٍ ثقافيّة، بل لكَونه ضَرورةً إيمانيّةً، ومَبدأ حضاريًّا، ومَنهجًا قرآنيًّا لحمايةِ الإنسانِ من السُّقوطِ في فَوضى الأفكارِ والشُّبهات. فالأمنُ الفكريُّ هو مشروعٌ مُتكاملٌ لصياغةِ عَقلٍ واعٍ، وقادرٍ على التَّمييزِ، ومُحصَّنٍ وضدَّ التَّشويشِ، ومُنفتحٍ على الحوارِ، ومُلتزمٍ بالبَحثِ عن الحَقيقة.

من هنا، فإنَّ البحثَ في هذا الموضوعِ لا يَقتصرُ على كونه دراسةً مَعرفيّةً، بل هو خطوةٌ ضَروريّةٌ لفَهمِ كيفَ يمُكنُ القرآنَ أن يكونَ حارسًا للعقلِ المُسلم، وضامنًا لاستقامته، ودَليلاً لتَفكيره، في زمنٍ تَتشابكُ فيه الاتِّجاهاتُ الفكريّةُ، ويَحتاجُ فيه الإنسانُ إلى بوصلةٍ قرآنيّةٍ تَهديه إلى الصِّراطِ المُستقيم.

أوّلًا: الأمنُ الفكريُّ في القرآن الكريم: المَفهوم والأسُس

إنَّ الحديثَ عن الأمن الفكريِّ، في القرآن الكريمِ، لا يمُكنُ أن يُختزَلَ في مَنعِ الأفكارِ الهدّامة،

أو مُواجهة التيّارات الفكريّة المُنحرفة فحسب، بل هو مَفهومٌ أوسَعُ وأعمَقُ، يَقوم على إرساءِ مَنهجٍ مُتكاملٍ لصياغة الفكرِ الإنسانيِّ وفقَ ميزانِ الحقِّ واليَقين، بحيثُ يكونُ الإنسانُ قادرًا على التَّمييزِ بينَ الصَّوابِ والخَطأ، والحَقيقةِ والزَّيف، والاستقامةِ والانحراف.

١- مَفهوم الأمنِ الفكريِّ في ضَوءِ القرآنِ الكريم

يُعرَّفُ الأمنُ الفكريُّ بأنَّه حالةُ الاستقرارِ العَقليِّ، التي تَجعلُ الإنسانَ قادرًا على مواجهةِ الشُّبهاتِ والأهواءِ، دونَ أن يَنحرفَ أو يَضلَّ. فالقرآنُ الكريمُ يُقدِّمُ رؤيةً واضحةً للأمنِ الفكريِّ، تتمثَّلُ في الوضوحِ العَقديِّ، والتَّحقُّقِ المَعرفيِّ، والتَّوازنِ بينَ العقلِ والوَحي. يقولُ اللهُ تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ [محمد: ١٩]؛ حيثُ يُؤكِّدُ القرآنُ أنَّ العلمَ واليَقينَ أساسُ الأمنِ الفكريِّ، وأنَّ أعظمَ ما يُحصِّنُ العقلَ من الضَّياعِ هو الإيمانُ القائمُ على التَّحقُّقِ والتثبُّتِ، لا على الظُّنونِ والاتِّباعِ الأعمى.

٢- العلاقةُ بينَ العقل والأمن الفكريّ في التصوُّر القرآنيّ

يَرى القرآنُ الكريمُ أنَّ العقلَ ليس مُجرَّدَ أداةٍ للتَّفكير، بل هو مسؤوليّةٌ أمامَ الله، لذلك نجدُ أنَّ الآياتِ التي تُخاطبُ العقلَ تتكرَّرُ بأسلوبِ التَّحفيزِ على التأمُّلِ والتدبُّر، يقولُ تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]؛ حيثُ تُشير الآيةُ إلى أنَّ الجمودَ الفكريَّ، والانغلاقَ عن التَّفكير، والغَفلةَ عن التدبُّر، كلُّها عواملُ تُهدِّدُ الأمنَ الفكريَّ للإنسان، وتَقودُه إلى أن يكونَ أداةً بيدِ التَّضليلِ والجَهل.

وفي مقابلِ ذلك، نجدُ أنَّ القرآنَ يُؤكِّدُ على أنَّ الأمنَ الفكريَّ الحقيقيَّ لا يتحقَّقُ إلا من خلالِ الجمعِ بينَ العقلِ والإيمان، بينَ التَّفكيرِ السَّليم واليَقينِ الرّاسخ. يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وفي

هذا تأكيدٌ على أنَّ التَّفكُّرَ في آيات الله هو الطَّريقُ الأصيلُ لترسيخِ الأمنِ الفكريِّ، بحيثُ يكونُ العقلُ متَّصِلاً بالحقائقِ الكُبرى، وليسَ مُتلاعِبًا بالأوهامِ والظُّنون.

٣- أهميّةُ اليَقينِ في بناء الفكرِ السَّليم

من أبرَزِ أزماتِ الفكرِ المُعاصِرِ حالةُ انعدام اليقين والشَّكِّ المُستمرِّ؛ حيثُ باتَ الإنسانُ في مواجهةِ فيضٍ من المعلوماتِ المُتناقضة، وهذا جعلَه يَفقِدُ الثِّقةَ في الثَّوابت ويَعيشُ في قلقٍ فكريٍّ دائم.

لكنَّ القرآنَ الكريمَ يَضعُ اليَقينَ شَرطًا أساسًا لحمايةِ الفكرِ من التَّذبذُبِ والانحراف، ويُؤكِّدُ أنَّ الحقيقةَ ليسَت نسبيّةً، كما يُروِّجُ لها الفكرُ الماديُّ، بل هناك حقائقُ راسخةٌ لا يُمكِنُ تجاوُزُها. يقول تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الحاقة: ٥١]. فالإنسانُ الذي يَعيش في حالةِ يَقينٍ فكريٍّ لا يكونُ ضحيّةً للتَّشكيكِ المُنهجِ، ولا يَقع فريسةً للتيّاراتِ الفكريّةِ المُتطرِّفة أو المُضلِّلة؛ لأنَّ عقيدتَه راسخةٌ، ومَنهجَه ثابتٌ، وقناعتَه مَبنيّةٌ على الحقائق الإلهيّةِ التي لا تتغيَّرُ بتَغيُّرِ الأزمنةِ والظُّروف.

٤- دورُ التفكُّرِ والتدبُّرِ في تَحصين الفكر

يَضع القرآنُ الكريم التدبُّرَ والتفكُّرَ في آيات الله باعتباره أحدَ أعظَمِ الوسائلِ لحمايةِ الفكرِ من الاختراقاتِ والانحرافات: ﴿**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ [الغاشية: ١٧]. إنَّ هذه الدَّعوةَ إلى التأمُّلِ في المخلوقاتِ ليسَت مُجرَّدَ دعوةٍ معرفيّة، بل هي أساسٌ لصياغةِ عقلٍ مُتَّزِن، قادرٍ على تحليل الظَّواهرِ، والتَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وتَحصينِ الفِكرِ من التَّلاعبِ الإعلاميِّ والثَّقافيّ الذي يَستهدفُ زعزعةَ يَقينِ الإنسان.

بناءً على ما تقدَّمَ، يتَّضحُ أنَّ الأمنَ الفكريَّ في القرآن الكريم ليسَ مُجرَّدَ تَحصينٍ ضدَّ الانحراف، بل هو مشروعٌ مُتكاملٌ لإعادة بناءِ العقلِ على أُسُسٍ مَنطقيّةٍ وإيمانيّةٍ سَليمة. فمِن خلالِ اليَقينِ،

والتفكُّر، والتثبُّت، والتدبُّر، يَتمكَّنُ الإنسانُ من حماية عقله من الانحراف، وبناءِ رؤيةٍ واضحةٍ وثابتةٍ حولَ الحقائقِ الكُبرى، بحيثُ لا يكون عرضةً للتيّاراتِ الفكريّةِ المُتذبذِبةِ.

ثانيًا: التَّهديداتُ الفكريّة في القرآن الكريم والتَّحذير منها

لا يَقتصر منهجُ القرآنِ الكريم في بناءِ الأمنِ الفكريِّ على ترسيخِ المَبادئِ الصَّحيحةِ والتَّوجيهِ نحوَ التَّفكيرِ السَّليم، بل يَمتدُّ أيضًا إلى التَّحذيرِ من التَّهديداتِ الفكريّةِ التي يُمكنُ أن تُضلِّلَ الإنسانَ، وتُبعدَه عن الحقِّ، وتُوقعُه في فخاخِ الشكِّ والتَّزييف. فالقرآنُ يُقدِّمُ تصوُّرًا شاملاً عن المَخاطرِ التي تُهدِّدُ الفكرَ السَّليم، ويَضعُ لها قواعدَ للتَّحصينِ والتَّعاملِ معها، حتّى يَبقى الإنسانُ مُحافظًا على عقله، مُتمسِّكًا بالحقِّ، غيرَ قابلٍ للاختراقِ الفكريِّ أو الانحرافِ العَقديّ. من هذه التَّهديداتِ التي تحدَّثَ عنها القرآنُ الكريم:

١. التَّزييفُ الفكريُّ والتَّحريفُ المقصودُ للحَقائق: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦].

٢. الهَوى بصفته مصدرًا للانحرافِ الفكريِّ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣].

٣. تأثيرُ الشُّبهات والفتنِ على العُقول: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾ [البقرة: ١٤].

٤. التَّقليدُ الأعمى وغيابُ التَّفكيرِ النَّقديّ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٠].

٥. التَّلاعبُ الإعلاميُّ والتَّضليلُ الثَّقافيُّ: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقد وضعَ القرآنُ الكريم أُسُسًا مَتينةً لتَحصينِ الفكرِ من الانحراف، وذلك من خلال:

- تَنميةِ التَّفكيرِ النَّقديّ، والتَّحقُّقِ من المَعلوماتِ قبلَ تَبنِّيها.
- التَّمييزِ بينَ الحقائقِ والدِّعاياتِ المُضلِّلةِ، وعدمِ الانسياقِ وراءَ كلِّ فكرةٍ جديدةٍ دونَ تَحليل.
- مُمارسةِ التَّفكُّرِ والتدبُّرِ كأساسٍ للوصول إلى الحَقيقة، بدلاً من التَّقليدِ الأعمى.
- تَرسيخِ مَفهومِ اليَقينِ الإيمانيِّ، بحيثُ لا يكونُ العقلُ عُرضةً للشُّكوكِ المُستمرّة.

بهذه المَبادئ، يُصبحُ الأمنُ الفكريُّ ليسَ مُجرَّدَ وسيلةٍ للحمايةِ من الضَّياعِ، بل أداةً لصناعةِ عَقلٍ مُستقلٍّ، قادرٍ على قيادة الأمّةِ نحوَ الوَعي الحَقيقيِّ والاستقامةِ الفكريّة.

ثالثًا: وسائلُ تَحقيقِ الأمنِ الفكريّ وفقَ المَنهجِ القرآنيّ

إنَّ بناءَ الأمنِ الفكريِّ، في ضوءِ القرآنِ الكريم، ليس مُجرَّدَ تَحصينٍ ضدَّ الانحرافِ، بل هو عمليّةٌ مُتكاملةٌ تَشملُ التَّربيةَ، والتَّفكيرَ النَّقديَّ، واليَقينَ، والحِوارَ، والانفتاحَ الواعي على المَعرفة. فالقرآنُ الكريمُ يَضع مجموعةً من الوسائل والمَنهجيّاتِ التي تَجعل الإنسانَ قادرًا على مُواجهةِ الشُّبهاتِ، والتَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وبناءِ رؤيةٍ فكريّةٍ مُستقلّةٍ لا تَخضعُ للتَّضليلِ الإعلاميِّ أو التَّلاعبِ الأيديولوجيِّ. من هذه الوسائلِ التي أشارَ إليها القرآنُ الكريم:

- التَّعليمُ القائمُ على التَّفكير والتدبُّر: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].
- الحوارُ المَنهجيُّ من أجل بناءِ الفكرِ السَّليم: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥].
- تعزيزُ الهويّةِ الإيمانيّةِ باعتبارها حاجزًا أمامَ الاختراقاتِ الفكريّة: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾ [المائدة: ١٥].

- تحقيقُ التَّوازنِ بينَ الانفتاحِ والحَذرِ الفكريِّ: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦].
- ترسيخُ مفهومِ «التحقُّق» في تلقِّي المَعلومات: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات: ٦].

وبناءً على هذه الوسائلِ، يمُكِنُ القولُ: إنَّ القرآنَ الكريمَ يُقدِّمُ مَنهجًا مُتكاملاً لتَحقيقِ الأمنِ الفكريِّ، لا يَقتصِرُ على التَّحصينِ ضدَّ الأفكارِ المُنحرفةِ، بل يمَتدُّ إلى بناءِ عقليّةٍ واعية، قادرةٍ على التَّعاملِ مع المعرفةِ بوَعيٍ ونقدٍ وتمَييز.

رابعًا: الأمن الفكريُّ وبناء الحضارة الإسلاميّة

عبرَ التّاريخِ، كانَت الأفكارُ المُنحرفةُ هي العاملَ الأساس في تَفكُّكِ الحضاراتِ وسُقوطِ الأمَم؛ حيثُ يُؤدِّي انتشارُ الأوهامِ، والشُّبهاتِ، والتطرُّف، والتَّقليدِ الأعمى، إلى انهيارِ الاستقرارِ الفكريّ، الذي يمُهِّدُ لانهيارِ المجتمعِ بأسره. وقد أكَّدَ القرآنُ على هذا المَعنى، مُحذِّرًا من أنَّ أيَّ أمّة تَفقدُ بوصلتَها الفكريّةَ تُصبحُ عرضةً للسُّقوط، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ* أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ**﴾ [البقرة:١١-١٢].

١ - التَّوازنُ بينَ الانفتاحِ والثَّوابت: مفتاحُ الأمنِ الفكريّ الحَضاريّ

أيُّ مَشروعٍ حضاريٍّ لا يمُكِنُ أن يَنهضَ إلا إذا كان هناكَ تَوازُنٌ بينَ الانفتاحِ على العالَم، والتمسُّكِ بالثَّوابت. فالمجتمعُ الذي يُغلِقُ نفسَه أمامَ التَّغيُّراتِ الفكريّة يَفقدُ قدرتَه على التَّفاعلِ مع العَصر، والمُجتمعُ الذي يتخلَّى عن ثوابته يَنتهي إلى الذَّوبانِ في الآخر. فالقرآنُ الكريمُ يَضع ميزانًا دقيقًا بينَ هذَين المَسارَين؛ حيثُ يَدعو إلى الانفتاحِ على المعرفةِ والتَّفاعلِ مع الأمَم، لكنَّه في الوقتِ ذاتِه يُحذِّرُ من الذَّوبانِ في الفكرِ المُنحرفِ أو التخلِّي عن القِيَمِ الإيمانيّة. يقول الله

تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا التَّوجيهُ القرآنيُّ يُحدِّدُ ملامحَ الأمنِ الفكريِّ الحَضاري بـ:

- الانفتاحِ على الأفكارِ الجديدةِ، لكنْ وفقَ ميزانِ الحقِّ والعَدل.
- التَّفاعلِ مع الثَّقافاتِ الأخرى، دونَ التخلِّي عن الهويّةِ الإسلاميّةِ.
- التَّمييزِ بينَ التطوُّرِ الفكريِّ المَشروعِ، وبينَ الانحرافاتِ الفكريّةِ التي تُهدِّدُ القِيَمَ والمُعتقدات.

٢ - دورِ الأمنِ الفكريِّ في بناء مجتمعِ العَدالةِ والحريّةِ.

إنَّ الأمنَ الفكريَّ ليسَ مُجرَّدَ أداةٍ لحمايةِ العَقيدة، بل هو الأساسُ الذي يَقومُ عليه العَدلُ والحريّةُ في المجتمع. فحينَ يكونُ الفكرُ الإسلاميُّ مُحصَّنًا من التشدُّدِ أو التَّمييعِ، فإنَّه يُنتِجُ مجتمعًا مُتوازنًا، يَحترمُ حقوقَ الآخَرينَ، ويُقيمُ العَدلَ، ويَنشر قِيَمَ الرَّحمةِ والتَّسامُحِ، دونَ أن يكونَ عرضةً للضُّغوطِ الأيديولوجيّةِ الخارجيّة. وقد أكَّدَ القرآنُ على أنَّ غيابَ الفكرِ السَّليمِ يُؤدِّي إلى الظُّلمِ والاستبدادِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وهذا يُشيرُ إلى أنَّ غيابَ الأمنِ الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ مسألةٍ فلسفيّة، بل هو عاملٌ يُؤثِّرُ مباشرةً على العَدالة في المُجتمع. فحينَ تتلاعبُ القُوى الفكريّةُ بالمَفاهيمِ، وتُشوِّهُ المَبادئَ، يُصبحُ النّاسُ عاجزينَ عن معرفة الحقِّ، ويُؤدِّي ذلكَ إلى شيوعِ الظُّلمِ، وانتشارِ الاستبدادِ، وغيابِ العَدالة.

٣ - نحوَ استراتيجيّةٍ قرآنيّةٍ لتَعزيز الأمنِ الفكريِّ في الأجيال القادمة

في ظلِّ التَّحدِّياتِ الفكريّةِ الهائلةِ، التي تُواجِهُها الأمّةُ الإسلاميّةُ اليومَ، يُصبحُ من الضَّروريِّ

وضعُ استراتيجيّةٍ قرآنيّةٍ لتَعزيزِ الأمنِ الفكريّ؛ بحيثُ تكونُ قائمةً على:

- تعليمِ القرآنِ بوَصفِه مَنهجًا فكريًّا متكاملاً، لا مُجرَّدَ كتابٍ للأحكام الشَّرعية.
- غَرسِ مَنهجِ التحقُّقِ والتثبُّتِ في عقول الشَّبابِ؛ بحيثُ يتعلَّمونَ عدمَ تَصديقِ أيِّ معلومةٍ دونَ دليل.
- إعادةِ الاعتبارِ للحوارِ العَقليِّ والنِّقاشِ العِلميِّ بوصفهما وسيلةً لتَعزيزِ الأمنِ الفكريّ.
- دمجِ الدِّراساتِ القرآنيّةِ معَ العلومِ الإنسانيّةِ الحَديثةِ؛ بحيثُ يكونُ الفكرُ الإسلاميُّ قادرًا على تقديمِ رُؤيةٍ حَضاريّةٍ مُتكاملة.

٤ - الأمنُ الفكريُّ كشرطٍ لبقاءِ الأمّة

إنَّ بقاءَ الأمّةِ الإسلاميّةِ، واستمرارَها في أداء دورِها الرِّساليِّ، يَعتمدانِ بشكلٍ كبيرٍ على قُدرتِها على الحفاظِ على أمنِها الفكريِّ؛ لأنَّ الحضاراتِ لا تَنهارُ من الخارجِ قبلَ أن تَنهارَ من الدّاخلِ. ولذلك، فإنَّ إعادةَ بناءِ العقلِ الإسلاميِّ، وفقَ مَنهجٍ قرآنيٍّ مُتوازن، وتَحقيقَ التَّكاملِ بينَ الإيمانِ والعقلِ، وبينَ اليَقينِ والتفكُّرِ، وبينَ الانفتاحِ والحذرِ، وبينَ الثَّوابتِ والتطوُّرِ، هو السَّبيلُ الوَحيدُ لضَمانِ مُستقبلٍ فكريٍّ آمنٍ، ومُستقبلٍ حضاريٍّ مُزدهِر.

خامسًا: الأمن الفكريُّ بينَ القرآنِ والانتظارِ: نحوَ رؤيةٍ تمَهيديّةٍ لصناعة الوَعي المَهدويّ

إنَّ الحديثَ عن الأمن الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ مُعالجةٍ لقَضيّةٍ فكريّةٍ مَعزولةٍ عن سياقِها التّاريخيِّ والوجوديِّ، بل هو في صلبِ المَشروعِ الإلهيِّ الذي يَرسم مسارَ الإنسانَ نحوَ تحقيقِ العَدلِ الإلهيّ. فالأمنُ الفكريُّ في القرآن ليسَ مُجرَّدَ تَحصينٍ للعَقلِ من الانحرافاتِ والشُّبهاتِ، بل

هو جزءٌ من التَّمهيد لظُهورِ الإمامِ المَهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ حيثُ لا يمُكنُ لأمّةٍ أن تكونَ أمّةً مَهدويّةً وهي تُعاني من التمزُّقِ الفكريّ، والضَّياعِ بينَ الرُّؤى المتُضارِبةِ، وفقدانِ القدرةِ على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطل.

فالقرآنُ الكريمُ يَضع الأمنَ الفكريَّ شرطًا رئيسًا لصناعةِ مجتمعِ الشَّهادةِ والتَّمهيد؛ حيثُ لا يمُكنُ الأفرادَ أن يكونوا جُنودًا في معركةِ العَدلِ الإلهيِّ، وهم لا يَملكونَ وضوحًا فكريًّا، وثباتًا عَقديًّا، ورؤيةً قائمةً على اليَقينِ لا على الظنِّ والتَّشكيك. ومن هنا، نجدُ أنَّ القرآنَ يُعالجُ قضيّةَ الأمنِ الفكريِّ بوَصفِها معركةً مُستمرّةً بينَ الحقِّ والباطلِ، وبينَ الفكرِ الإلهيِّ الذي يَستندُ إلى اليَقين، والفكرِ البشريِّ الذي يُمكنُ أن يَنحرفَ بفعلِ الهَوى والتَّضليلِ ومَحدوديّةِ القُدرة. وهذا لا يتحقَّقُ إلا عبرَ مَنظومةٍ فكريّةٍ مُتماسكةٍ، تَحمي العقولَ من التَّلاعبِ، وتُجهِّزُها لدَورِ الشَّهادةِ والتَّمهيد.

١ - الأمنُ الفكريُّ كشرطٍ لانتظارٍ واعٍ ومَسؤول

إنَّ مفهومَ الانتظارِ في العَقيدة المَهدويّةِ ليس حالةً سلبيّةً من الترقُّب، بل هو مَشروعٌ فكريٌّ، وحالةٌ من الجُهوزيّةِ العَقليّةِ والنَّفسيّة، وعملٌ دَؤوبٌ لإعدادِ الأرضيّةِ لظُهورِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله تعالى فرجه الشريف. ومن هنا، فإنَّ الأمنَ الفكريَّ يُصبحُ شرطًا أساسًا لصحّةِ الانتظار؛ لأنَّ الأمّةَ التي تَعيشُ في فَوضى فكريّةٍ، وتَضاربٍ في الرُّؤى، وتُسيطِرُ عليها الشُّبهاتُ، لا يمُكنُها أن تكونَ أمّةً مُمهِّدةً.

فالانتظارُ ليسَ مُجرَّدَ إيمانٍ بحدثٍ مُستقبليّ، بل هو حالةٌ فكريّةٌ واعيةٌ تُدركُ طبيعةَ الصِّراعِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وتمُيِّزُ بينَ المشاريعِ الفكريّةِ، التي تُسهمُ في التَّمهيد، وتلكَ التي تُعرقلُ المَسارَ المَهدويَّ. يقول الله تعالى: ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢].

إنَّ الإنسانَ الذي يَفقدُ الأمنَ الفكريَّ يَعيشُ في حالةِ تَخبُّطٍ فكريٍّ، ويَفقدُ القُدرةَ على اتِّخاذِ موقفٍ ثابت، فلا يكونُ مُؤَهَّلًا للانتظارِ الحقيقيّ؛ لأنَّه قد يَسقطُ في الشُّبهاتِ، أو يتأثَّرُ بالتيّاراتِ

الفكريّةِ المُنحرفة، أو يَنحرفُ إلى الغلوِّ والتطرُّف، على حين أنَّ الانتظارَ الواعي يَستندُ إلى رؤيةٍ مُتكاملةٍ، تَجعلُ الإنسانَ قادرًا على السَّيرِ بثَباتٍ نحوَ مَشروعِ العَدلِ الإلهيّ.

٢ - التَّمهيدُ يَبدأُ من وضوحِ الرُّؤية

إنَّ القرآنَ الكريمَ يُقدِّمُ مَنهجًا مُتكاملاً لتَحقيقِ الأمنِ الفكريّ؛ بحيثُ يكونُ الفكرُ الإنسانيُّ قادرًا على التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، ومُقاومةِ التيّاراتِ المُنحرفةِ، والوقوفِ بثَباتٍ في مُواجهةِ التَّضليلِ الفكريّ. ومن أبرَزِ وسائلِ تَحقيقِ هذا الأمنِ الفكريّ:

أ- تَعزيزُ الوَعي من خلالِ التدبُّرِ والتفكُّرِ.

ب- مقاومةُ التَّزييفِ الفكريِّ والتَّحريفِ.

ج- إعادةُ بناءِ الهويّةِ الفكريّةِ المُستقلّةِ.

٣ - الأمنُ الفكريُّ وبناءُ مجتمعِ الانتظار

إنَّ المجتمعَ المَهدويَّ ليسَ مُجتمَعًا يُولَدُ فجأةً عندَ ظهورِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله فرجه الشريف، بل هو نتيجةُ عمليّةِ تمَهيدٍ طَويلة، يكونُ فيها الأمنُ الفكريُّ حجرَ الأساسِ. فالأمّةُ التي لا تمَتلكُ وضوحًا فكريًّا، ويَقينًا راسخًا، وقدرةً على تحليلِ الواقعِ، لا يُمكِنُها أن تكونَ في طليعةِ المَشروعِ الإلهيّ.

ولهذا، فإنَّ كلَّ جهدٍ فكريّ لحمايةِ الوَعي، وكلَّ مُواجهةٍ للتَّزييفِ الثَّقافيّ، وكلَّ عملٍ لنَشرِ الوَعي القُرآنيّ، هو جزءٌ من التَّمهيدِ للظُّهور؛ لأنَّ الإمامَ المَهديَّ عجل الله فرجه الشريف، لن يَقودَ مُجتمعًا هشًّا، بل سيَقودُ أمّةً بلغَت مرحلةً من النُّضجِ الفكريِّ الذي يَجعلُها قادرةً على حمل مَسؤوليّةِ العَدلِ الإلهيّ.

والعملُ على تحقيق الأمنِ الفكريِّ ليسَ مُجرَّدَ واجبٍ ثقافيٍّ أو مَعرفيّ، بل هو شرطٌ أساس لنكونَ أمّةً مُستعدّةً لاستقبالِ الإمامِ المَهديِّ عجل الله فرجه الشريف، وقادرةً على بناء الحضارةِ الإلهيّةِ المَوعودة. فمَن يَطلبِ العَدلَ فعَليه أن يُهيِّئَ نفسَه بفكرٍ نقيّ، ومَن يترقَّبِ النُّورَ، عليه أن يُزيلَ ظُلماتِ الجَهلِ من عَقله؛ لأنَّ العَدلَ لا يُقيمُه إلا أمّةٌ شاهدةٌ، والمَهديُّ لا يَظهر إلا في مجتمعٍ جاهزٍ فكريًّا لحملِ الرِّسالة: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: ٥].

لأهميّةِ هذا الموضوعِ، اخترنا في مجلّة (تَبيين) أن نُعالجَه في محورِ هذا العَدد، من خلال: التعرُّفِ على مفهومِ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنة ومُرتكزاته ومُعوِّقاته، ومَنهجِ الأنبياء عليهم السلام في تحقيقِ ركائزِ الأمنِ الفكريّ، ودَورِ الإعلامِ في تَعزيزِ الأمانِ الفكريّ من مَنظورٍ قرآنيّ؛ وكيفَ تُسهمُ التَّربيةُ الإيمانيّةُ في حمايةِ الأسرةِ من الانحرافاتِ، ثم دَورِ العقلِ في تَشخيصِ الفِتنِ النَّوعيّةِ، وسُبلِ معالجتِها.

أمّا في بابِ البحوثِ والدِّراسات؛ فقد تمَّ تَسليطُ الضَّوءِ على منهجِ أهلِ البَيتِ عليهم السلام في تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميّ من الانحرافاتِ الفِكريّةِ والعَقديّة؛ بالإضافةِ إلى قراءةٍ في كتاب: «الأمن الفكريّ في نهجِ البَلاغة».

نَرجُو أن تُسهمَ هذه الدِّراساتُ والبحوثُ في إثراءِ النِّقاشِ حولَ هذا الموضوعِ المُهمِّ، خُصوصًا في ظلِّ التَّحدِّياتِ الفكريّةِ والعَقديّةِ التي تُواجهُها الأمّةُ في عَصرِنا الحاضِر..

والله ولي التوفيق

د. محمد محمود مرتضى

الأمن الفكريُّ في القرآن والسُّنة
مفهومه ومرتكزاته ومعوِّقاته

◆ د. محمد تهامي دكير[1]

■ **خلاصة**

اتَّسع مفهومُ الأمنِ في الدَّولة المُعاصرة ليَشملَ أبعادًا جديدةً، مرتبطةً بالمُتغيِّرات الحديثة والتحدِّيات المُعاصرة؛ حيث برزَ من بين هذه الأبعاد: «الأمن الفكريُّ»، الذي ظهرَت أهمِّيتُه وخطورتُه؛ لارتباطه بباقي الأبعادِ الأخرى: السِّياسيّة والاجتماعية والعسكريّة.. إلخ.

في هذه الدِّراسة مُحاولةٌ للكشف عن مفهوم «الأمن الفكريِّ»، من خلال القرآن الكريم والسُّنة النبويّة، في ظلِّ ما يتعرَّضُ له الإسلامُ من تشكيكٍ في منظوماته العقائديّة والتَّشريعية والأخلاقيّة، وتحدِّيات العَولمة الثَّقافية والإعلاميّة الغربيّة؛ حيثُ جرى الحديثُ في المحور الأوَّل عن: مفهوم الأمنِ الفكريِّ في المَنظور الإسلاميِّ، ومُرتكزاته الأساس: القرآن، والسُّنة والعَقل، وفي المحور الثاني جرى عَرضُ أهمِّ مُعوِّقات هذا الأمن، وكيفيّة مواجهتها، من خلال تعاليم القرآن الكريم وإرشادات السُّنّة النَّبوية الشَّريفة. مثل: تَعطيل العَقل، والتَّقليد الأعمى للآباء، الغُلوّ، واتِّباع الظنِّ..إلخ. وقد خلصَت الدِّراسةُ إلى أنَّ «اتِّباعَ هُدى الله» هو الكفيلُ بتَحقيق الأمنِ الفكريِّ على المُستويَينِ الفرديِّ والمُجتمعيّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن - الأمن الفكري- معوقات الأمن- تعطيل العقل- الغلو- التقليد الأعمى.

١ - مدير التحرير.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]

مدخل

عبرَ العُصور، شكَّلَ الأمنُ الهاجسَ الأكبرَ للمُجتمعات والدُّول، والأنظمة السِّياسيّة الحاكمة على وجه الخُصوص؛ حيثُ ارتبطَ الاستقرارُ السِّياسيُّ والحِفاظُ على السُّلطة بالقوّة والقُدرة على مُواجهة التَّحديّات الأمنيّة الدّاخلية والمَخاطر الخارجيّة، وقد ارتبطَ الأمنُ في الحالتَين بالقوّة الماديِّة، وخُصوصًا العسكريّة. لكنَّ هذا المفهومَ التَّقليديَّ للأمن سرعانَ ما سيتطوَّرُ بشكلٍ مُتسارعٍ معَ ظهور الدَّولة الحديثة في الغرب وتطوُّرها، ليتَّسع، مُتجاوزًا الأمنَين السِّياسيَّ والعسكريَّ؛ حيثُ سيَشملُ أبعادًا ومَجالات أخرى، ارتبطَت بالتطوُّر الهائل الذي حقَّقتْه الحضارةُ الغربيّةُ على مستوى الحياة المَدنيّة، والتَّغيير الذي طالَ طبيعةَ الدَّولة، والنِّظامَ الاجتماعيَّ السياسيَّ فيها، مضافًا إلى التقدُّم العلميِّ المُذهل والتطوُّر الصِّناعيِّ الذي طالَ جميعَ مرافق الحياة؛ حيث ظهرَت تحدِّياتٌ جديدةٌ لم تَعرفْها البشريّةُ من قَبلُ.

كلُّ ذلكَ كان له انعكاسُه على العلاقات الدَّوليّة، خصوصًا مع نشوب الحروب العالميّة المُدمِّرة، وما تَبعَها من حربٍ باردةٍ بين معسكرَين سياسيَّين، تَحكَّما في مصير العالَم بعدَ الحرب العالميّة الثّانية، وما نجمَ عن ذلك من استقطاب وحروب أهليّة وصراعات دمويّة، كشفَت عن تخلُّفٍ وفقرٍ ومَجاعاتٍ وأوبئةٍ وانتهاكاتٍ لحقوق الإنسان، في أكثرَ من منطقةٍ في العالَم..!

وما رافقَ ذلكَ كلَّه، من ثورةٍ مُذهلة في مجال الاتِّصال والتَّواصل الإنسانيِّ، جعلَ الكرةَ الأرضيّةَ تَبدو كأنَّها قريةٌ صغيرةٌ، انهارَت وتحطَّمَت فيها الحدودُ الجغرافيّةُ والسِّياسيّةُ والثَّقافيّة.. إلخ، كاشفةً عمّا سيُعرف بالعولَمة؛ حيثُ ظهرَت تحدِّياتٌ خَطيرةٌ - باعتبارها انعكاسًا سلبيًّا لها - شملَت العالمَ

بأسره، تغيَّرَ معَها مفهومُ الأمنِ ليَتجاوزَ ضمانَ استقرارِ مُؤسَّساتِ الدَّولةِ واستمرارِها، إلى البحثِ في سُبلِ حمايةِ مَنظومةِ القِيَمِ والمَبادئِ والرُّؤى الفكريّةِ والفلسفيّةِ والسِّياسيّةِ والأيديولوجيّة، التي يَقوم عليها تجانُسُ المجتمعِ وأنماطُ عيشِه وسلوكِه ورُؤيتِه الحضاريّة. كما اتَّسعَ مفهومُ الأمنِ ليَشملَ أبعادًا جديدةً؛ حيثُ بدأ الحديثُ في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ عن الأمنِ: الاقتصاديِّ، والغذائيِّ، والمائيِّ، والثَّقافيِّ والإعلاميِّ، والأمنِ السيبرانيّ..إلخ. مضافًا إلى المفهومِ التَّقليديِّ المُتعلِّقِ بالأمنِ السِّياسيِّ والعَسكريِّ..[1].

وقد ظهرَ بدرجة واضحة مَدى الاهتمامِ بـ «الأمن الفكريِّ» أو الثقافيِّ والإعلاميِّ؛ حيثُ رأينا كيفَ كانتْ دولُ المُعسكرِ الاشتراكيِّ- سابقًا- تتَّخذ بعضَ الإجراءاتِ التي تَحول دونَ الانتشارِ أو التَّرويجِ للقِيَمِ اللِّيبراليّةِ، وكذلكَ الأمرُ بالنِّسبةِ للمُعسكرِ الرَّأسماليِّ، الذي لم يَأْلُ جُهْدًا في مواجهةِ الأيديولوجيّاتِ الاشتراكيّةِ والشُّيوعيّة، كما رأينا كيفَ استنفرَتِ الدُّولُ الأوربيّةُ كلَّ قُواها الإعلاميّةِ والأمنيّةِ لمُواجهةِ ظاهرةِ انتشارِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والالتزامِ ببعضِ شعائرِه وعباداتِه داخلَ هذه الدُّول (ظاهرة الحجاب مثلاً)، بحُجّةِ الدِّفاعِ عن قِيَمِ الحرِّيةِ والدِّيمقراطيّةِ والجمهوريّة، ومُواجهةِ ما أسمَوهُ بـ «الإرهاب الإسلاميِّ؟!» الذي بدأ يُهدِّدُ نمطَ الحياةِ في أوروبا والغَرب !!.

وعليه، بدأ الحديثُ – على نطاق واسع - عن «الأمن الفكريِّ» في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ أو المُتعلِّقةِ بالعلاقاتِ الدَّوليّةِ في الغربِ وفي العالمِ بأسرِه، وأهمِّيتِه وخطورتِه، لتأثيرِه على باقي مَجالاتِ الأمنِ الأخرى، بعدَما تبيَّنَ أنَ التأثيراتِ الأيديولوجيّةَ والفكريّةَ العابرةَ للحدودِ - مثلاً - والحربَ الإعلاميّةَ المُنظَّمةَ، قد تُؤثِّرُ سلبًا على الأمنِ السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والمَعرفيِّ والفكريِّ.. وباقي المجالاتِ الأخرى في المجتمع، وهذا الأمرُ يُعرِّضُ ما يُسمَّى بالهويّاتِ الوَطنيّةِ وثوابتَها، والأمنَ القوميَّ، للخطرِ؛ حيثُ بدأ التَّفكيرُ في وضعِ استراتيجيّاتٍ وإجراءاتٍ مُتعدِّدةِ الأبعادِ، لمُواجهةِ هذه المَخاطرِ، حمايةً للمجتمعِ وتَحقيقًا لاستقرارِه.

أمّا بالنِّسبةِ للعالمِ الإسلاميِّ، فقد كان في صلب هذه المُتغيِّراتِ، وخصوصًا لجهة التأثُّرِ السَّلبيِّ

١ - انظر حول التطور الذي عرفه مفهوم الأمن: د. إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطورات – الإشكالات، ص ١١.

بها، لأنَّ معظمَ جغرافيته السِّياسيّة قد خضعَت للاستعمار العسكريِّ الغربيِّ المباشر، وتعرَّضَت ثرواتُه الطَّبيعيّةُ والاقتصاديّةُ للنَّهب المُنظَّم، كما عانَت شعوبُه - ولا تزالُ- من الغزو الفكريِّ والإعلاميِّ والقيَميِّ الغربيِّ، والعولمة الثَّقافية، التي هدَّدَت مَنظوماته العقدَيَّة والقِيَميّةَ والتَّشريعيّةَ والخُلُقيّة والعُرفيّةَ. مضافًا إلى تحدِّيات داخليّة لا تقلُّ خطورةً في تداعياتها السَّلبيّة عن أمن واستقرار المُجتمعات الإسلاميّة، أخطرُها انفجارُ الصِّراع الدَّمويِّ والتَّنازُعُ والاختلافُ بين المُكوِّنات: الإثنيّة والاجتماعيّة والمَذهبيّة والدِّينيّة داخلَ الأمّة الإسلاميّة، أي إنّ الأمنَ قد تعرَّضَ، في جميع أبعاده، في العالَم الإسلاميِّ، إلى الخطر على المُستويَين الدّاخليِّ والخارجيِّ، الفرديِّ والجماعيّ.

من هنا، ظهرَت كثيرٌ من الدِّراسات والأبحاث العلميّة المُهمّة، وعُقدت مؤتمراتٌ وندواتٌ للحديث عن ضرورة الاهتمام بـ «الأمن الفكريِّ» في العالَم الإسلاميِّ، والكشف عن المخاطر والتَّحديّات التي تتعرَّضُ لها الشُّعوبُ والدُّولُ العربيّةُ والإسلاميّة، وسُبلِ مُواجهتها والتصدِّي لها.

في هذه الدِّراسة مُقارَبةٌ تأصيليّةٌ لهذا المفهوم المُعاصر «الأمن الفكريِّ»، من خلال القرآن الكريم والسُّنة النبويّة، في إطار تَجديد الفكر الإسلاميِّ لاستيعاب المَفاهيم المُعاصرة، التي قد يكون مضمونُها قديمًا، لكنَّها تبلورتْ بشكل كبير في إطار الحضارة المعاصرة، وكذلك، لأهمِّية تناوُل هذا الموضوع بلغة مُعاصرة، خصوصًا في ظلِّ ما يتعرَّضُ له الإسلامُ - بوصفه دينًا سماويًّا- من تحدِّيات داخليّة وخارجيّة، الهدفُ منها التَّشكيكُ في جميع مَنظوماته العقديّة والقِيَميّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والحُقوقيّة، التي تُشكِّلُ السُّورَ الواقيَ، والحاجزَ الصّلبَ لصدِّ محاولات الاستعمار الغربيِّ لترَسيخ الهَيمنة على الجغرافية السِّياسيّة للعالَم الإسلاميِّ، ونهب ثرواته وتَدمير مُقوِّماته الحَضاريّة، ومُحاولة إلحاقه بالحضارة الغربيّة، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة:٢١٧].

تتكوَّنُ هذه الدِّراسةُ من محورَين رئيسين: الأوَّل، التَّعرُّفُ على مفهوم الأمن الفكريِّ في القرآن الكريم ومُرتكزاته الأساسيّة، الثاني، التعرُّفُ على أهمِّ مُعوِّقات الأمن الفكريِّ، وكيفيّة مُواجهتها، من خلال تعاليم القرآن الكريم وإرشادات السُّنة النَّبويّة الشَّريفة. وقد اعتمدَت الدِّراسةُ المَنهجَين: الاستقرائيِّ والتَّحليليّ.

أولا: الأمن الفكري مفهومه ومرتكزاته في القرآن والسُّنة

أ - تعريف الأمن الفكري: لغةً واصطلاحًا

يقول ابنُ فارس: (أمن) الهمزةُ والميمُ والنُّون، أصلانِ مُتقاربان، أحدُهما الأمانةُ التي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القلبِ، والآخَرُ التَّصديقُ.. قال الخليل: الأمَنةُ من الأمنِ، والأمانُ إعطاءُ الأمَنة، ورجلٌ أمَنةٌ، إذا كان يأمنُه النّاسُ ولا يَخافونَ غائلتَه..[1]، والأمنُ في اللُّغة ضدُّ الخوفِ، كما يَعني حالةَ السَّكينةِ واطمئنانَ النَّفسِ وزَوالَ الخَوفِ عنها والاستقرارَ..[2].

وفي القرآن الكريم وردَت كلمةُ (الأمن) بمعانٍ مُتعدِّدة: بمَعنى (سُكون القلب) في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]، وبمَعنى المكان الذي يأمنُ فيه النّاسُ: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا..**﴾ [البقرة:١٢٥]، وهناكَ كلماتٌ أُخرى مشتقّةٌ من مادة (أمن)، مثل: الأمانة، التي هي ضدُّ الخيانة: ﴿**..فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٣]، وكذلك مصطلحُ الإيمان ودلالاتُه المُتعدِّدةُ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾ [الشورى:٥٢]. وقد لاحظَ علماءُ اللُّغة أنَّ الألفاظَ الثّلاثةَ تَجمعُها صلةٌ وثيقةٌ، (الإيمان) يُفيد الطّمأنينةَ والسَّكينةَ والأمانَ، و(الأمانةُ) تُفيدُ التَّصديقَ بمَن تأمنُه على الشَّيء والاطمئنانَ له، و(الأمن) ويَعني أن تُصدِّقَ بمَن يُؤمِّنكَ على نفسكَ وأهلكَ ومالكَ.[3]

أمّا (الفكرُ)، فقد عرَّفَه ابنُ منظور بأنَّه: إعمالُ الخاطرِ في الشَّيء، والتَّفكُّرُ اسمَ التَّفكير، ومنهم من قال فِكري، ورجلٌ فكيرٌ: كثيرُ التَّفكير، وقال الجوهريُّ: التفكُّرُ: التأمُّلُ[4]. وعرَّفَه الرّاغبُ الأصفهانيُّ بقوله: « الفكرةُ قوّةٌ مُطرقةٌ للعلمِ إلى المعلوم، والتفكُّرُ جولانُ تلكَ القوّةِ بحسب نظرِ العَقلِ، وذلك للإنسانِ دونَ الحيوانِ، ولا يُقال إلاّ فيما يمُكِنُ أن يَحصلَ له صورةٌ في

١ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١ ص١٣٣.
٢ - انظر: محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، ج١٣ ص ١٣٤.
٣- انظر للمزيد عن معاني لفظة الأمن في القرآن: طلال مشعل، مفهوم الأمن في القرآن الكريم، ص٦.
٤ - محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، ج١١، ص ٢١١، مادة فكر.

القلبِ»[1]. أمّا (الفكرُ) في المعاجمِ المُعاصرةِ: فـ « يُطلَق على الفعلِ الذي تقومُ به النَّفسُ عندَ حركتِها في المَعقولات، أو يُطلَق على المَعقولاتِ نفسها، فإذا أُطلقَ على فعلِ النَّفسِ دلَّ على حركتها الذّاتيةِ، وهي النَّظرُ والتأمُّلُ، وإذا أُطلِقَ على المَعقولاتِ دلَّ على المَفهومِ الذي تُفكِّرُ فيه النَّفسُ»[2].

أمّا اصطلاحًا، فإنَّ هذا المُركَّبَ الوصفيَّ من كلمتَي: الأمن والفكر، قد خلَت من تعريفِه أو تحديدِه مُعظَمُ المعاجمِ والقَواميسِ اللُّغويّةِ القديمةِ والحَديثةِ أيضًا؛ لأنَّه من المَفاهيمِ المُستحدَثةِ التي ظهرَت – كما قُلنا في المَدخل- في إطارِ مَفاهيمِ الأمنِ المُتعلِّقةِ بالدَّولةِ المُعاصرةِ، على غرارِ مصطلحاتِ: الأمنِ الاقتصاديِّ، والأمنِ الغذائيِّ، والأمنِ المائيِّ، والأمنِ السيبرانيّ..إلخ. لكنْ هناكَ تعريفاتٌ متعدِّدةٌ وردَت في الكتاباتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ والدِّراساتِ الأكاديميّةِ المُتخصِّصةِ في أمنِ الدُّولِ والعلاقاتِ الدَّوليّةِ، معظمُها ركَّزَ على الغايةِ من الأمنِ الفكريِّ، مع الإشارةِ إلى الإجراءاتِ التي تقومُ بها الدُّولُ لتحقيقِ أمنِها في هذا المجالِ، في إطارِ الصِّراعِ السياسيِّ والأيديولوجيِّ والإعلاميِّ العالميِّ[3].

وبشكلٍ عامٍّ، فالأمنُ الفكريُّ في الفكرِ السِّياسيِّ الغربيِّ يُقصَد به: «حالةُ الاستقرارِ الفكريِّ والمعرفيِّ داخلَ المجتمعِ، بحمايتِه من التأثيراتِ الأيديولوجيّةِ المُتطرِّفةِ، والتَّضليلِ الإعلاميِّ، والحروبِ الفكريةِ التي تُهدِّدُ القيمِ الدِّيموقراطيّةَ وقيمَ الاقتصادِ الحرِّ، وحقوقَ الإنسانِ، والهويّةَ الثَّقافيةَ، أو الأمنِ القَوميَّ.. ويتحقَّقُ ذلكَ عن طريقِ التَّعليمِ النَّقديِّ، وتحليلِ المَعلوماتِ والأخبارِ، وحمايةِ حريّةِ التَّعبيرِ ودعمِ التعدُّديّةِ الثَّقافيّةِ والفكريّةِ، ومُواجهةِ جميعِ أنواعِ التَّضليلِ الاعلاميِّ، وثقافةِ الكراهيةِ والعُنفِ، أو الإخلالِ بالتَّعايُشِ السِّلميِّ بينَ المُكوِّناتِ الاجتماعية»[4].

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٨٤.

٢ - انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢، ص ١٥٦.

٣ - انظر: محمد محمد نصير، الأمن والتنمية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١- ١٤١٣هـ، ص١٢.

٤ - انظر: حول تعريف الأمن الفكري في الفكر الغربي الرأسمالي، إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، ص٧.

يظهرُ بوضوحٍ من خلال هذا التَّعريف العامِّ للأمنِ الفكريِّ في الأدبيّات السياسيّة الغربيّة الهواجسُ الأمنيّةُ - الفكريّةُ، التي تَعيشُها الدَّول التي تُطلِقُ على نفسها «الدِّيموقراطيات الغربيّة». كما عرَّفتْه دراساتٌ أخرى بأنَّه: « الحالةُ التي يَطمئنُّ فيها المجتمعُ على ما يَعيشُ عليه من قِيَم ومَبادئَ وأنماطِ عيشٍ، والحفاظُ على مكوِّناته الثَّقافيّة، وحمايتُها من التيّاراتِ الوافدة، وتحصينُ الهويّةِ من أيِّ اختراقٍ أو احتواءٍ خارجيٍّ..»[1].

والجامعُ بينَ التَّعريفَين هو التأكيدُ على أهمِّيةِ تَحصينِ الهويّةِ الثَّقافيةِ للمُجتمعِ وحمايتِها من أيِّ فكرٍ أو ثقافةٍ وافدةٍ أو خارجيّةٍ، وهذا في نظرِنا هو جوهرُ مفهومِ الأمنِ الفكريِّ، كما أشارَت إليه معظمُ التَّعريفاتِ الغربيّة. التي يُلاحَظُ أنَّها تركِّز على حماية قِيَم الحرِّيةِ والحقوقِ الفرديّةِ والدِّيموقراطيّةِ وحرِّيةِ السُّوق، وضرورةِ حمايةِ المجتمعاتِ الغربيّةِ من التَّضليلِ الإعلاميِّ والأيديولوجيّاتِ الدِّينيّةِ المُتطرِّفة، والمَقصودُ بها في أغلبِ الأحيانِ الإسلامُ (السَّلفيُّ - الوَهابيُّ)، مضافًا إلى الحديث عن إجراءاتِ التصدِّي، التي تتَّخِذُ طابعَ الإجراءاتِ الأمنيّةِ التي تقومُ بها هذه الدُّولُ للحفاظِ على أمنِها الفكريِّ.

• التَّعريفاتُ العربيّةُ والإسلاميّةُ للأمن الفكريّ

معَ توسُّع الاهتمامِ في العالمَينِ العربيِّ والإسلاميِّ بمَفهومِ الأمنِ الفكريِّ، وظهورِ كتاباتٍ ودراساتٍ متعدِّدة، وخصوصًا ما قُدِّم منها في المؤتمرات والنَّدوات الخاصّة عن: «الأمن الفكريِّ»، فإنَّ الباحثينَ العربَ والمسلمينَ حاولوا نَحْتَ مجموعةٍ من التَّعريفات للأمن الفكريِّ، استفادَت معظمُها من التَّعريفات الغربيّةِ له، لكنْ مع إضفاءِ طابعِ الخصوصيّةِ فيما يتعلَّقُ بطبيعةِ الهويّةِ والإجراءاتِ المُقترحةِ لحمايتِها، والإشارةِ إلى بعضِ الهواجسِ التي بدأتْ تُقلِقُ الدَّولةَ والمجتمعَ الإسلاميَّ، مثل ظواهرِ التطرُّفِ والإرهابِ والصِّراعاتِ المَذهبيّةِ والدِّينيّةِ والإثنيّةِ التي تَجتاحُ بعضَ المَناطقِ في الجغرافية الإسلاميّة.

١ - انظر: للمزيد من هذه التعريفات: نبيل بن نذير الشرايري، الأمن الفكري في ضوء القرآن الكريم، ص ٩.

من هذه التَّعريفات للأمن الفكريِّ:

تعريفُ (الجحنيِّ)، بأنَّه: «سلامةُ فكرِ الإنسانِ وعقلِه وفهمِه من الانحرافِ والخروجِ عن الوسطيّةِ والاعتدالِ، في فَهمِه للأمورِ الدِّينيّةِ والسِّياسيّةِ، وتَصوُّرِه للكونِ بما يَؤول إلى الغُلوِّ والتنطُّعِ، أو إلى الإلحادِ والعَلمنةِ الشّاملة»[1].

وعرَّفَه (نايل ممدوح)، بأنَّه: «سلامةُ الفكرِ الإنسانيِّ من الزَّيغِ والانحرافِ، في فهمِ الأمورِ حالَ طلبِها للوصولِ إلى حقيقتِها، والحُكمِ عَليها»[2]. وقدَّمَ د. الفقي تعريفًا عامًّا وشاملاً للأمن الفكريِّ، بأنَّه: «الشُّعورُ بالأمنِ الرُّوحيِّ والنَّفسيِّ والجسديِّ والعقليِّ والماديِّ، بما لا يتعارضُ مع الدِّينِ والمَبادئِ والمُثُلِ العُليا والأخلاقِ التي يُؤمِنُ بها الفردُ والمجتمعُ، ولا يُؤثِّرُ سلبًا على أفكارِه وحياةِ الآخَرين»[3].

وهناكَ تعريفاتٌ أخرى، ركَّزَت على الأمنِ العقدَيّ خصوصًا، وضرورةِ حمايةِ عقيدةِ المجتمعِ الإسلاميِّ من التحدِّياتِ الدّاخليّةِ (الغلوِّ- الانحراف) أو الخارجيّةِ (الغزو الفكريِّ- الإلحاد- العَلمانيّة)، فيما وسَّعَت تَعريفاتٌ أخرى مفهومَ الأمنِ ليَتجاوزَ حمايةَ العقيدةِ إلى الاطمئنانِ على النَّفسِ والعقلِ والعِرضِ والمالِ، أي حمايةِ ما يُعرف في الشَّريعةِ الإسلاميّةِ بالضَّروراتِ أو المَصالحِ الخَمسةِ، أي: (الدِّين، النَّفس، العَقل، العِرض، المال).[4]

ومن خلال هذه التَّعريفاتِ، يُمكنُ أن نُلاحِظَ، وبشكلٍّ عامٍّ، الفرقَ بينَ مفهومِ الأمنِ في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ والتَّعريفاتِ العربيّةِ والإسلاميّة؛ حيثُ تحدَّثَت التَّعريفاتُ الإسلاميّةُ عن أهميّةِ وضرورةِ حمايةِ المَنظوماتِ: العقدَيّةِ والتَّشريعيّةِ والخُلُقيّةِ التي يَحتضنُها الإسلامُ، مضافًا إلى الأبعادِ الأخرى للأمنِ في المجتمعِ الإسلاميِّ، وعلى رأسِها الأمنُ السِّياسيُّ والاقتصاديُّ.. إلخ، فيما كادَ المفهومُ الغربيُّ للأمنِ أن يقتصرَ أو يُركِّزَ على حمايةِ الوضعَينِ السِّياسيِّ والاقتصاديِّ،

١ - الحجني، وظيفة الأسرة في تدعيم الأمن الفكري، ص١٨٥.
٢ - نايل ممدوح أبو زيد، الأمن الفكري في القرآن، ص ١٤٤.
٣ - د. إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطور - الإشكالات، ص ١٢.
٤ - انظر للتوسع عن هذه الفروقات: إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن الفكري بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، ص٧.

حماية: (القِيم الدِّيموقراطيّة، وحرِّية السُّوق والقِيَم الاقتصاديّة اللِّيبرالية، بالإضافة إلى حماية القِيَم االفَرديّة/ الحرِّية الشَّخصيّة وحقوق الإنسان)؛ لأنَّ الاختيارات الفكريّةَ والعقدَيّة وطبيعةَ العلاقاتِ الشَّخصيّةِ مع الآخَرينَ، تُعتبر من الحقوقِ الفرديّة التي يتحكَّمُ فيها الإنسان، دونَ تدخُّلِ المجتمعِ أو الدَّولة. ومن خلال ذلك - أيضًا – سيَظهر الفرقُ فيما يخصُّ الإجراءاتِ المتَّخذةَ لتحقيقِ الأمنِ الفكريِّ، ومَدى مسؤوليّةِ الأفرادِ والمجتمعِ والدَّولةِ في ذلك. كما سيَظهر معنا عندَ الحديثِ عن مُعوِّقاتِ الأمنِ في القرآنِ الكريمِ وسبُلِ التصدِّي لها.

ب - أهميّةُ الأمن الفكريِّ للفرد والمجتمع المُسلم

أمّا بالنِّسبةِ لأهميّةِ الأمن الفكريِّ، فتَكمنُ أولاً في كونه أحدَ المُكوِّناتِ الأساس للأمن بوجه عامٍّ في أي دولةٍ أو مجتمع، وكذلك لعَلاقته بجميع الأبعادِ الأخرى للأمن: السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ.. إلخ، وثانيًا، في الغاية منه وما يترتَّبُ على فقدانه من أثارٍ سلبيّة، فأيُّ خللٍ في الأمن الفكريِّ سيَنعكسُ سَلبًا أو خللاً في هذه الأبعاد، وعلى المُستويَينِ الفرديِّ والاجتماعيِّ، وهذا ما أكَّدتْه الدِّراساتُ السِّياسيّةُ الاستراتيجيّةُ الغربيّةُ.

أمّا بالنِّسبة للأمن الفكريِّ، في الفكر الإسلاميِّ، فهو كما يقول الباحثُ (رامي تيسير): «من أهمِّ وأسمَى مُكوِّنات الأمن بصفة عامّة؛ لأنَّه أساسُ وجودها واستمراريّتها، فهو يأتي في المَرتبة الأولى من حيثُ الأهَمِّيّةُ والخطورةُ، فهو لُبُّ الأمنِ وركيزتُه الكُبرى؛ لأنَّه يَستمدُّ جذورَه من عقيدة الأمّة ومُسلَّماتها»[1]. فهو أمنٌ يتعلَّقُ بحماية المَنظومة العقديّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والقِيَميّة بوجه عامٍّ، التي يَعيش وفقَها الإنسانُ المسلمُ والمجتمعُ الإسلاميُّ، ومن ورائها حمايةُ الأمّة ودُولِها وشعوبها من التفكُّك السِّياسيِّ والاجتماعيِّ والانهيار الاقتصاديِّ، خصوصًا أمامَ التحدِّيات التي تُواجهُ الأمّةَ ودينَها ومجتمعاتها اليومَ، تحدِّيات الغزوِ الفكريِّ الغربيِّ والعَولمة الثَّقافية، وما تَحملُه من تيّاراتٍ فلسفيّةٍ ماديّةٍ وإلحادٍ وانحرافٍ خُلُقيّ، وانتشارِ ظواهرِ الغلوِّ والتطرُّفِ والتَّكفيرِ،

١ - انظر: رامي تيسير فارس، الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، ص١٤٧.

والصِّراعاتِ الدَّمويّة بين المُكوِّنات: الإثنيّة والمَذهبيّة والدِّينيّة والسِّياسيّة، وهذا ما سيُؤدِّي حتمًا إلى انهيار هذه الأمّة، بتفكُّك دُولِها وشعوبِها سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، وانهيارِها اقتصاديًّا، وما يُفضي إليه ذلك من فتحِ الطَّريقِ أمام الاستِعمارِ، الذي يَنتظر الفرصةَ للانقضاضِ عليها ونهبِ ثرواتِها واستعبادِ شعوبِها.

وعليه، فغايةُ الأمن الفكريِّ بالنِّسبة للأمّة اليومَ، هو إمَّا حياةٌ كريمةٌ واستمراريّةٌ وتقدُّمٌ ونَهضةٌ للأمّة وشعوبِها، وإمّا تخلُّفٌ وتفكُّكٌ، ومن ثمَّ استعمارٌ- مرّةً أخرى، بطريقة واضحة أو ملتوية- وأُفولٌ حضاريٌّ وانهيارٌ شاملٌ.

ت - مُرتكزاتُ الأمن الفكريِّ من خلال القرآن والسُّنة

المقصودُ بالمُرتكزاتِ الدَّعائمُ التي يَقوم عليها هذا الأمنُ، ما دام المقصودُ به حمايةُ المنظومة العقدَيّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والقِيَميّة الإسلاميّة، فهذه المَنظومةُ – كما هو معلومٌ – قائمةٌ أولاً على الوحي (القرآن والسُّنة)، وثانيًا على العقل. سنتحدَّثُ عن هاتَينِ الرَّكيزتَينِ وخصائصِهما باختصار.

أولاً: الوحي (القرآن والسُّنة)

أ. القرآنُ الكريم هو كتابُ الله المُنزَّلُ على (رسول الإسلام) ﷺ، ومُعجزتُه الخالدةُ، لهداية البشر جميعًا إلى الدِّين الحقِّ، والصِّراط المُستقيم: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة:١٦]، وقد أنزلَ اللهُ فيه كلَّ ما تَحتاجُه البشريّةُ من عقائدَ وتشريعات وأحكام وقِيَم خُلُقيّة، ومواعظَ وحِكَم وإرشادات..إلخ: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل:٨٩]، وقد

حفظَه الله من التَّحريف أو الزِّيادة والنُّقصان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. والمطلوبُ من المؤمنينَ به قراءتُه وحفظُه وفهمُه وتدبُّر آياته، والعملُ بكلِّ ما جاء فيه، والرُّجوعُ إليه لاستنباط كلِّ ما يَحتاجُه المُسلمُ من تشريعاتٍ وأحكام ومبادئَ وقيَم، واتِّباعِ إرشاداته وتعاليمه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧].

وفي السُّنة الشَّريفة يقول رسولُ الله ﷺ عن القرآن: «... كتابُ الله، فيه نبأُ مَن قبلكُم، وخبرُ مَن بعدَكُم، وحُكمُ ما بينَكم، هو الفَصلُ ليس بالهَزل، مَن تركَه من جبَّارٍ قصمَه اللهُ، ومن ابتغى الهُدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تَختلفُ به الآراءُ، ولا تَلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ التَّرديد، ولا تَنقضي عجائبُه ، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، مَن قال به صدَقَ، ومَن حكمَ به عدَلَ، ومَن عمِلَ به أُجرَ، ومَن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مُستقيمٍ»[1].

ب. السُّنة النَّبويّةُ: وهي كلُّ ما وردَ عن (رسول الإسلام) ﷺ، من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، وهي المصدرُ الثاني - بعد القرآن الكريم – للأحكام والقيَم والمَبادئ في الإسلام، وإليها يُرجَع في فَهم القرآن وتَفسيره، ومنها تُستنبط الأحكامُ كذلك، لقول الله -عزَّ وجلَّ- عن (الرَّسول) ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، ولذلك أوجبَ اللهُ طاعتَه وقرنَها بطاعته – عزَّ وجلَّ - ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. والرُّجوع إليه وإلى سنّته عندَ التَّنازُع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ [النساء:٥٩].

وهذا ممّا أجمعَ المسلمونَ على الاعتقاد به، وإنَّما وقعَ الاختلافُ بينهم في: أولاً، صحّةِ ما نُسب إليه أو نُقلَ أو رُوي عنه ﷺ من أحاديثَ وروايات، وثانيًا، في فهمِ وفِقهِ السُّنة، وقد وضعَ

١ - محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، عن الإمام علي بن أبي طالب، حديث رقم: ١٣٥٠٩.

المسلمونَ ضوابطَ علميّةً ومَنهجيّةً لتَمييزِ الصَّحيحِ من الضَّعيف في هذه الأحاديثِ وفَهمها وفِقهها. كما أضافَ الشِّيعةُ الإماميّةُ إلى السُّنة ما رُوِيَ عن أئمةِ أهلِ البَيت عليهم السلام لقول الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم: « إنِّي تاركٌ فيكم الثَّقَلَيْنِ، كتابَ الله وعِترْتي أهلَ بَيْتي، ولنْ يَتفرَّقا حتَّى يَردَا عليَّ الحَوضَ» [1]، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك: «..فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بَعدي فسيرَى اختلافًا كثيراً، فعَلَيكُم بسُنّتي وسُنّة الخلفاءِ المَهديِّينَ الرّاشدينَ تمَسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيّاكُم ومُحدثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ»[2].

ج. العقلُ: للعقلِ في القرآن والسُّنةِ مكانةٌ كُبرى، باعتباره الأداةَ الرَّئيسةَ للإدراك والعلم والمَعرفةِ والفَهم، وبه التَّمييزُ بين الصَّوابِ والخطأ، والحقِّ والباطلِ، وإليه يَتوجَّهُ الأمرُ والنَّهيُ الإلهيُّ، وعليه يترتَّبُ الجَزاءُ والعِقابُ[3]، وعلاقتُه بالوَحي (القرآن والسُّنة) هي علاقةُ: الفَهمِ والتدبُّرِ والاعتبار والتَّذكُّرِ، وتعقُّلِ الآياتِ، والفِقهِ والاستنباط..إلخ، وقد ركَّزَ القرآنُ الكريمُ على هذه الوظائف، وليس على ماهيّةِ العقلِ، لذلك، فكلُّ ما وردَ عن العقلِ في القرآن مُتَّجهٌ لتَفعيلِ هذه الوظائف، وما يترتَّبُ عليها، والتَّحذيرِ من تَعطيلها: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [النحل:١٢].

ثانيا: مُعوِّقاتُ الأمن الفكريِّ من خلال القرآنِ والسُّنةِ وكيفيّةُ مُواجهتِها

ونَقصدُ بها المَوانعَ التي تَحولُ دون تحقُّق الأمن الفكريِّ على المستويَينِ الفرديِّ والاجتماعيِّ، أي تمَنعُ الإنسانَ وتَحرمُه من الهدايةِ واتِّباعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وما نزلَ معَهم من الحقِّ والعَدلِ والصِّراطِ المُستقيمِ، وتُوقِعُه في العِصيانِ والانحرافِ عن الحقِّ، وفي الضَّلالِ والكُفرِ والشِّركِ

١ - سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ج٣ ص ٧٤، رواه عن أبي سعيد الخدري.

٢ - سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، حديث رقم ٤٦٠٧. عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي.

٣ - انظر: عن تعريف العقل في اللغة والفكر الإسلامي، د. عبد اللطيف بيركوب، مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل حفظه: دراسة قرآنية مقاصدية، ص ٨٦.

والظُّلم والتِّيه، بما يُفضي إلى الهلاكِ وعدمِ الاستقرارِ والطمأنينةِ النَّفسيّةِ والرُّوحيّةِ في الدُّنيا، والشَّقاءِ والعَذابِ الأبديِّ في الآخرة، وهذه الموانعُ تنقسمُ إلى قسمَينِ: موانعُ داخليّةٌ جوّانيّةٌ، وموانعُ خارجيّةٌ برّانيّةٌ، وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريم عنها بالتَّفصيل، وكشفَ عن عواقبها وكيفيّةِ مُواجهتِها والتَّخلُّصِ منها، وكذلك أشارَت الأحاديثُ والرِّواياتُ إلى الكثيرِ منها. وسنُحاول تتبُّعَ معظمِها دونَ تفصيلٍ؛ لأنَّ حجمَ هذه الدِّراسةِ لا يتَّسع لذلك.

١ - تَعطيلُ العَقل:

بما أنَّ العقلَ هو القوّةُ أو المَلَكةُ والبَصيرةُ التي أودعَها اللهُ في الإنسان، وهو مَنبعُ الإدراكِ والتَّمييزِ، والمُخاطَبُ بالتَّكليفِ ومَناطُه، فإنَّ تَعطيلَه، بعدَمِ استخدامه في التَّفكيرِ والنَّظرِ والتأمُّلِ والتدبُّرِ والاستنباطِ والاعتبارِ في: الكونِ والمَلكوتِ من جهة، وعالمِ الوَحي (القرآن والسُّنة) من جهة أخرى، يُعتبر من أهمِّ مُعوِّقاتِ الأمنِ الفكريِّ؛ لأنَّ هذا التَّعطيلَ يَحرمُ الإنسانَ من معرفة حقائقِ الوجودِ، وما حَمَلَه الوحيُ من آياتٍ وأسرارٍ وكنوزٍ معرفيّةٍ، ويمُهِّدُ أمامَه الطريق للسُّقوطِ في متاهاتِ الجهلِ والضَّلالِ والتِّيه، وبذلك، لا يُحقِّقُ الهدفَ من وجودِه، أي عبادةِ الله، وبناءِ الحضارةِ الإنسانيّةِ وفقَ المَشيئةِ الإلهيّةِ.

لذلكَ دَعا القرآنُ في أكثرَ من آيةٍ إلى التَّفكيرِ والنَّظرِ والتعقُّلِ: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ..**﴾ [العنكبوت:٢٠]، ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]. وكذلكَ بالنِّسبةِ للوَحي فقد نزلَ ليُفهَمَ ويُتدبَّرَ: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [سورة محمد: ٢٤]. بل إنَّ الإنسانَ الذي لا يَستخدم الحواسَّ التي تُزوِّدُ العقلَ بالمعرفة، ولا يُفكِّرُ ولا يَستخدمُ عقلَه في ذلك، لا يَختلفُ عن الدَّوابِّ التي لم يُكرمْها اللهُ بالعَقل: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا**﴾ [الفرقان:٤٤]، والنَّتيجةُ الحتميّةُ لذلك الضَّلالُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخرة: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[الملك:١٠].

٢ - اتِّباعُ الأهواءِ والشَّهوات والنَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوء:

من أخطرِ العواملِ التي تَحولُ دونَ اتِّباعِ الإنسانِ للحقِّ، وتُوقِعُه في الضَّلالِ والانحرافِ والظُّلمِ، اتِّباع الهَوى أو الأهواء، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريم بشدّة من اتِّباعِ الهَوى، الذي قد يُصبحُ بمَثابةِ الإلهِ الذي يُعبَدُ من دون الله: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:٢٣]، ففي هذه الآيةِ إشارةٌ واضحةٌ إلى أن اتِّباعَ الهَوى،لدرجةِ أن يُصبحَ إلهًا يُعبَد، فإنَّ ذلكَ سيُؤدِّي حتمًا إلى الضَّلالِ، بل إلى ما هو أخطرُ، وهو الخَتْمُ على القلبِ؛ لأنَّ الهوى يُعطِّلُ جميعَ وسائلِ المَعرفةِ لدى الإنسان، فيَسقط في الضَّلالِ الأبديِّ. كما أشارَ القرآنُ إلى ارتباط اتِّباعِ الهوى بالضَّلال: ﴿**.. قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [الأنعام:٥٦]، وبالجَهل: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية:١٨]، وبالمَيل إلى الشَّهوات: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم:٥٩].

ولخطورة اتِّباعِ الأهواءِ، نجدُ القرآنَ يُحذِّرُ الأنبياءَ- أيضًا- من اتِّباعِ الهَوى، معَ أنَّهم مَعصومونَ عن الخطأ، كما يُحذِّرُهم من اتِّباعِ أهواءِ مُجتمعاتهم: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [سورة ص:٢٦]. ويقول -عزَّ وجلَّ- مُخاطبًا (الرَّسولَ الكريمَ محمد) ﷺ: ﴿**.. فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ..**﴾ [المائدة:٤٨]. كما أشارَ القرآنُ – أيضًا- إلى أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُؤدِّي حَتمًا إلى فسادِ الكونِ: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾ [المؤمنون:٧١].

كما حذَّرَ القرآنُ الكريمُ من النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ، ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ [يوسف:٥٣]، فهذه النَّفسُ تُسوِّلُ لصاحبها عملَ المَعاصي استجابةً للهَوى والشَّهوة، فيَنحرف عن الحقِّ ويَسقطُ في الضَّلالِ والظُّلمِ: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة:٣٠].

أمّا في السُّنة الشَّريفة والرِّوايات، فإنَّ اتِّباعَ الأهواء سببٌ في إفساد العَقلِ والدِّين، والابتعاد عن الحقِّ، يقول (الإمامُ عليٌّ): « فأمّا اتِّباعُ الهَوى فيَصُدُّ عن الحقِّ» [1]، وهو من أهمِّ أسباب ظهور الفتن والمحَن، يقولُ الرَّسولُ ﷺ: «إنَّما سُمِّي الهَوى لأنَّه يَهوي بصاحبه»[2]، ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «إنَّما بَدْءُ وقوعِ الفِتنَ أهواءٌ تُتَّبعُ، وأحكامٌ تُبتدَعُ»[3]. وفي ذلك إشارةٌ إلى التأثيرِ السَّلبيِّ لاتِّباع الهَوى على الأمنِ الاجتماعيِّ؛ لأنَّ وقوعَ الفتنَ في أيِّ مجتمعٍ يَتبعُه التَّنازُعُ والتَّحاربُ والانقسامُ بينَ مُكوِّناته. ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام عن مَخاطرِ الشَّهواتِ: « مَن تَسرَّعَ إلى الشَّهواتِ تَسرَّعَت إليه الآفاتُ»[4].

أمّا العِلاجُ الذي يَقترحُه القرآنُ، وأرشدَت إليه السُّننُ والرِّواياتُ، فيَتمثَّلُ في: اتِّباعِ العَقلِ والعلمِ والوَحي وطاعةِ اللهِ ورُسله: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [النور:٥٢]، والابتعادِ عن أهلِ الأهواءِ والغَفلة، وتجنُّبِ طاعتِهم، ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، وقمعِ الشَّهوات، بتَزكيةِ النَّفسِ ومُجاهدتها وتَخويفها من العَواقبِ، حتى تصلَ إلى مقام التَّقوى حيثُ الاطمئنانُ والسَّكينةُ والاستقرارُ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات:٤٠-٤١]. وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قالَ: «إنَّ هذه النَّفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ، فمَن أهملَها جَمحَتْ به إلى المآثِمِ»[5].

٣ - اتِّباعُ الشَّيطان:

في القرآن والسُّنةِ، اعْتُبر الشَّيطانُ العدوَّ الثّاني الخارجيَّ للإنسان، بعدَ النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوء،

١ - الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، خطبة ٤٢-١.
٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١٠، ص٣٧٤، حديث: ٢١٠٦٩.
٣ - نهج البلاغة، خطبة ٥٠. وميزان الحكمة، ص٣٧٣ حديث: ٢١٠٦٧.
٤ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١٠، ص٣٧٥ حديث: ٢١٠٨٥.
٥ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج١٠ ص ١٣٠، حديث: ٢٠١٦٧.

العدوُّ الأوَّلُ للإنسان من داخله، وقد حذَّرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- (آدمَ) وذريّتَه من بعده من (الشَّيطان)؛ لأنَّه العدوُّ المُبينُ لآدمَ وذُريّته: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**﴾ [طه:١١٧]، بعدَما طردَه اللهُ من الجنّة ولعنَه لامتناعه عن السُّجودِ لآدمَ، فمن تلكَ اللَّحظة أعلنَ الشَّيطانُ الحربَ على (آدمَ) وذريّته، وأنَّه سيَعملُ كلَّ ما في وُسعه لإضلالهم وحَرفهم عن الصِّراط المُستقيم؛ حيثُ استطاعَ بكذبه وتَغريره - في البداية - أن يُخرجَ (آدمَ وحوّاءَ) من الجنّة، ثم تَوعَّدَ البشريّةَ: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ بالتَّفصيلِ عن هذا العدوِّ المُبينِ للإنسان، وكشفَ لنا عن أساليبه في إضلال الإنسان عن طريق: الوَسوسة: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا**﴾ [الأعراف:٢٠]، والتَّغرير والإغراء: ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ [الأعراف:٢٢]، والتَّزيين والإغواء: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحشر:٣٩]، والنَّزغ: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الإسراء:٥٣]، والتَّخويف من الفَقر، والأمر بارتكاب المَعاصي والمُنكَرات: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [البقرة:٢٦٨]، وإيقاع العَداوة والبَغضاء بينَ النّاس في الخَمر والمَيسر: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة:٩١]، وبالفتنة والافتتان: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**﴾ [الأعراف:٢٧].

والهدفُ النِّهائيُّ للشَّيطان هو إيقاعُ الإنسان في الكفر والشِّرك والظُّلم ومَعصية الله ورُسله، وارتكاب المعاصي والمُنكرات، ويُلاحَظُ أنَّ ما يترتَّبُ على هذه الأفعال والسُّلوكيّات من جرائمَ ومُنكرات تُؤثِّرُ على جميع أبعاد الأمن: الرُّوحيِّ والفكريِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ والسياسيِّ.. إلخ، ما يُؤدِّي بالإنسان إلى أن يَعيش في هذه الأرض بشَقاء وضَنك وانحراف، ويَؤولُ به الأمرُ في نهاية المَطاف إلى العذاب الأبديِّ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الحج:٤].

ولم يَكتف القرآنُ بالتَّحذيرِ من هذا العدوِّ المُبينِ للإنسان وكشف أساليبه، وإنَّما قدَّمَ له كيفيّةَ المُواجهةِ والتَّخلُّصَ من مَكرِ الشَّيطانِ ووَساوسِه وخططه للإيقاع بالإنسان، تَبدأ أولاً من:

- اتِّخاذه عدوًّا: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر:٦]، وهذه العَداوةُ تَقتضي الحذرَ الشَّديدَ منه، بالامتناعِ عن اتِّباعه أو اتِّباعِ خُطواته: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [البقرة:٢٠٨]، يقول (العلامةُ الطباطبائيُّ): إنَّ المُرادَ من اتِّباعِ خطواتِ الشَّيطانِ ليس اتِّباعَه في جميعِ ما يَدعو إليه من الباطل، بل اتِّباعَه فيما يَدعو إليه من أمرِ الدِّينِ، بأنْ يُزيِّنَ شيئًا من طُرقِ الباطلِ بزينةِ الحقِّ، ويُسمِّي ما ليس من الدِّينِ باسم الدِّينِ، فيأخذ به الإنسانُ من غير علمٍ[1].

- الحذر من السُّقوط في عبادته: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٦٠]، أي بطاعته والخضوعِ لوساوسه، أو الاستجابة لأوامره: ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم**﴾ [إبراهيم:٢٢]. أو مُوالاته: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧]، أي قرناءَ وأعوانًا للكفّارِ.

- الدُّعاء والاستعاذة بالله من الشَّيطان في كلِّ حين: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ**﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف:٢٠٠].

- التَّخلُّصِ من سلطانه بالعبوديّة لله والتَّقوى والإخلاصِ: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر:٤٢]، ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، أي المُؤمنينَ حقًّا والمُوحِّدينَ، والذين يَعبدونَ اللهَ بإخلاصٍ.

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص ١٠١.

أمّا السُّننُ والرِّواياتُ فقد حذَّرَت – كذلك - من الشَّيطانِ وكَيدِه، يقول (الرَّسولُ الكريم) ﷺ لابن مسعودٍ: يا بنَ مسعودٍ، اتَّخذ الشَّيطانَ عدوًّا، فإنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..**﴾ [1]. وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قال: «احذَرُوا عَدُوًّا نفذَ في الصُّدورِ خَفِيًّا، ونَفثَ في الآذانِ نَجِيًّا»[2].

٤ - جَحْد الحقائقِ:

الجُحودُ هو إنكارُ الحقائقِ وعدمُ الاعترافِ أو الإقرارِ بها، مع العلمِ واليَقينِ النَّفسيِّ، أو الإنكارُ باللِّسانِ مع اليقينِ القلبيِّ بصحّةِ ما يُنكِرُه، وهو سلوكٌ وطريقٌ للضَّلالِ وحِرمانِ النَّفسِ من معرفةِ الحقِّ والإذعانِ له والالتزامِ بمُقتضاهُ، وهذا ما وقعَ لكثيرٍ من النّاسِ زمنَ الأنبياءِ وبعدَهُم؛ حيثُ نجدُهُم يُنكِرُونَ ويَكفرونَ بالمُعجزاتِ الواضحةِ والآيّاتِ البيِّنةِ، مع اليقينِ النفسيِّ والعلمِ بأنَّها حقائقُ، وهذا ما كان سببًا في ضلالِهم وانحرافِهم عن الحقِّ والصِّراطِ المُستقيمِ، ورَفضِهم دعوةَ الأنبياءِ والرُّسلِ ونصائحَ الأولياءِ والدُّعاةِ.

والأسبابُ كثيرةٌ أشارَ إليها القرآنُ الكريمُ وحذَّرَ منها مثلُ الظُّلمِ والعلوِّ: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا..**﴾ [النمل:١٤]، ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام:٣٣]. وقد قدَّمَ القرآنُ نماذجَ لهؤلاءِ الجاحدينَ وعَواقبِ جُحودِهم، للتَّحذيرِ من هذا السُّلوكِ، مثل فرعونَ وملئِه وجنودِه، الذين استيقنوا بأنَّ (موسى) عليه السلام نبيٌّ مُرسَلٌ، وأنَّ الآياتِ والمُعجزاتِ التي جاء بها هي من عندِ الله، لكنَّهم جَحدوا بها استكبارًا وإجرامًا: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف:١٣٣]. ونتيجةُ هذا الجُحودِ كانَت الإغراقَ في اليَمِّ، حيثُ خَسروا الدُّنيا والآخرةَ: ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص:٤٠]، و﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦-٢٧].

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٥، ص٨٠، حديث: ٩٣٦٩.

٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٥، ص٨٠، حديث: ٩٣٧١.

٥ - التَّقليدُ الأعمى للآباء والسَّلَف:

من أهمِّ العَقباتِ، التي واجهَها الأنبياءُ في طريقِ دعوتِهم، كانَ تَشبُّثُ أقوامِهم ومجتمعاتِهم بتَقليدِ واتِّباعِ آبائِهم وأجدادِهم، ورفضُ كلِّ ما جاءَ به الأنبياءُ مخالفًا لعقائدِ وأعرافِ وتقاليدِ الآباءِ، وكذلك الأمرُ مع المُصلحينَ والمُجدِّدينَ، دائمًا يَصطدمونَ مع عقبةِ تقليدِ الآباءِ، لذلك نجدُ القرآنَ الكريمَ، وفي عدد كبير من آياته يَذمُّ هذا التَّقليدَ ويَنتقدُ هذا الاتِّباعَ غيرَ العَقلانيِّ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة:١٧٠]، ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [المائدة:١٠٤]. والمُشكلُ ليسَ في التَّقليدِ، فكما وردَ في الآيتَينِ الكريمتَينِ، فإنَّ النَّهيَ عن تقليدِ هؤلاءِ الآباءِ أو السَّلَفِ، بسببِ جهلِهم وضَلالِهم وبُعدِهم عن العَقلانيّة، وهذا واضحٌ في عبادتهم للأصنامِ وشركِهم بالله وعَيشِهم وفقَ التَّقاليدِ الجاهليّة، حتى إنَّهم يُقلِّدونَ آباءَهم ليس فقط في العقائدِ الضّالة، وإنَّما في بعض الأفعالِ والسُّلوكيّاتِ والأخلاقِ المَذمومةِ عقلاً وعُرفًا: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٢٨]، ﴿**قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء:٧٤]. وقد أكَّدَ القرآنُ على مسألةٍ في غايةِ الأهمِّيةِ والخطورةِ، وهي أنَّ التوجُّهَ لتقليدِ الآباءِ لن يُبرِّرَ الشِّركَ والضَّلالَ يومَ القيامةِ، ولذلك على الخَلَفِ أن يُعيدَ النَّظرَ في عقائدِ السَّلَفِ ويَتبرَّأَ من أي انحرافٍ عقائديٍّ فيها: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٣].

كما أشارَ القرآنُ إلى مسألةٍ مُهمّة، وهي أنَّ المُتشبِّثَ بتقليدِ الآباءِ قد لا يكونُ فَردًا، وإنَّما فئةً في المجتمعِ، من مَصلحتِها بقاءُ هذا التَّقليدِ للآباء؛ لأنَّه يُحقِّقُ مصلحةً ما لهم: ﴿**مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٣]، فهؤلاءِ المُترَفونَ همُ الطَّبقةُ الاقتصاديّةُ الغَنيّةُ، وقد تكونُ هي نفسُها الحاكمةَ، لذلك تُواجِهُ الأنبياءَ والمصلحينَ؛ لأنَّ العِلمَ الجديدَ يُخالفُ مَصالحَهم.

فالتَّقليدُ الأعمى المَذمومُ للآباءِ والسَّلف[1]، أو تقديسُ الموروثِ الفكريِّ أو السُّلوكيِّ، الذي لا يَرتكزُ على وحيٍ إلهيٍّ أو علمٍ صَحيحٍ، أو بَصيرةٍ أو حجّةٍ أو بُرهانٍ، يُعتبرُ انحرافًا فكريًّا يُؤثِّرُ على الأمنِ الفكريِّ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى تَعطيلِ العَقلِ، ﴿**حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [المائدة:١٠٤]، ويمَنعُ التَّفكيرَ والإبداعَ، كما يُؤدِّي إلى رفضِ الحقِّ والإعراضِ عن الحقائقِ الجَديدة، وحرمانِ الإنسانِ من العلمِ الجديدِ والنّافعِ والمُنسجمِ معَ الواقعِ الجديدِ، كما يَحولُ دونَ التَّفكيرِ والنَّظرِ النَّقديِّ في المَوروثاتِ القَديمةِ المُتراكمة، التي قد تَحتوي الكثيرَ من الأفكارِ والرُّؤى والنَّظريّات، إمّا الخاطئة والضّالّة أو التي لم تعدْ صَحيحةً أو صالحةً، بحكمِ التقدُّمِ المَدنيِّ والحضاريِّ، والتطوُّرِ المَعرفيِّ الذي تعرفُه البشريّة.

والأخطرُ والأسوأُ، في هذا التَّقليدِ، تقليدُ الأديانِ والمذاهبِ والملَلِ التي حُرِّفَت عبرَ التّاريخِ، أو التي تُنسَبُ إلى اللهِ والأنبياءِ كذبًا وافتراءً، فكلُّ ذلكَ يُؤدِّي حتمًا إلى الضَّلالِ والعَمى، والانحرافِ عن الصِّراطِ المُستقيمِ، لذلك نجدُ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ يَدعو أباهُ (عمّه آزر) إلى تركِ ما كان يَعبدُ من أصنامٍ تقليدًا لآبائه ومجتمعه، وأنْ يتَّبعَه لما عندَه من العلمِ الجديدِ والعقيدةِ الصَّحيحة: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم:٤٣]، وهذا ما وقعَ مع جميعِ الأنبياءِ والرُّسلِ والمُصلحينَ، كانوا دائمًا يَدعونَ أقوامَهم، مُتسلِّحينَ بالعلمِ الذي يَفتقدُه أقوامُهم وآباؤُهم، بسببِ البُعدِ عن رسالاتِ الأنبياءِ السّابقينَ، وتراكُمِ الانحرافاتِ، بسببِ تفسيرِ وتأويلِ الجَهَلةِ وأهلِ الأهواءِ والمُبتدِعة.

وعليه، فتحقيقُ الأمنِ الفكريِّ، حسبَ القرآنِ والسُّنة، يَكمُنُ في اتِّباعِ الوحيِ الإلهيِّ، وتقليدِ الأنبياءِ والأوصياءِ وأهلِ الذِّكرِ والعلمِ بالوَحي، والبَحثِ عن العلومِ والمعارفِ الجديدةِ والرُّؤى العَقلانيّةِ المُنسجمةِ مع مبادئِ الوَحي ومقاصدِه، وفسحِ المجالِ للعقلِ للتَّفكُّرِ والتدبُّرِ والتذكُّر، وأخذِ العِبرَ من الماضي وتراثِ الآباءِ، ونقدِ كلامِهم وآرائِهم، نقدًا علميًّا، وتَمحيصِ كلِّ ما ورثناهُ عنهم، تَحريرًا للعقولِ من أغلالِ التَّقليدِ الصّلبةِ والمُتحجِّرة، وعتقًا للرِّقابِ من أيِّ ضلالٍ أو انحرافٍ قد نقعُ فيه بسببِ هذا التَّقليدِ والاتِّباعِ للآباءِ والسّادةِ والكُبراءِ، وقد حذَّرَنا القرآنُ من

١ - ميّز العلماء والفقهاء بين التقليد المذموم والتقليد الممدوح، وهناك مباحث مهمة حول جواز التقليد في الفروع لغير العالم أو المختص، والنهي عن التقليد في العقائد والأصول.

النَّدم والحَسرة يومَ القيامة؛ لأنَّ مَن نتَّبعُهم اليومَ، إذا كانوا على ضلال في الدُّنيا، فسيتخلَّونَ عنّا في الآخرة ويَتبرَّؤونَ منّا: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾ [البقرة:١٦٦]، والمطلوبُ عقلاً وشرعًا هو اتِّباعُ الرُّسلِ وما نزلَ معَهم من الوَحي، واتِّباعُ أئمّة العلم والهُدى من بعدِهم: ﴿**...قال يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [يس:٢٠-٢١]، ويقول (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «انظرُوا أهلَ بيتِ نبيِّكُم، فالزَمُوا سمتَهم، واتَّبِعُوا أثرَهُم، فلن يُخرِجُوكُم من هُدًى، ولن يُعيدوكُم في رَدًى»[1].

٦ - اتِّباعُ السّادةِ والكُبراءِ والطَّواغيت:

النَّهيُ عن اتِّباعِ هؤلاءِ أو طاعتُهم جاءَت في القرآن مُعلَّلةً بعدّة أسباب، أهمُّها أنَّ اتِّباعَ هذه الفئات الاجتماعيّة يُؤدِّي إلى الضَّلال والانحراف عن الحقِّ والسُّقوط في الكُفر والشِّرك والظُّلم، والحِرمان من اتِّباعِ الحقِّ والوَحي والأنبياءِ والرُّسلِ؛ لأنَّهم مُنحرفونَ وضالُّونَ وظالمونَ، لذلك فهم يَدْعونَ أتباعَهم لتقليدهم والعَيشِ وفقَ ما يَعتقدونَ وما يَفعلونَ، والنَّتيجةُ هلاكُ الجميع في الدُّنيا والآخرة، وهذا ما يُؤكِّدُه القرآنُ وهو يُصوِّرُ حالةَ فئةٍ من النّاسِ في الآخرة، وهم يتحسَّرونَ على ما وقعوا فيه من ضلالٍ بسببِ طاعتهم لرُؤسائهم ومُلوكهم وقادتهم في الدُّنيا، وهذا ما تَسبَّبَ في ضَلالِهم وانحرافِهم عنِ الحقِّ: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾ [الأحزاب:٦٧].

وكذلك اتِّباعُ الطّاغوت، وهو كلُّ ذي طُغيانٍ على الله، من شيطانٍ وحاكمٍ كافرٍ ظالم، أو أيِّ مَعبودٍ أو مَتبوعٍ من أئمّةِ الضَّلال، أو مُطاعٍ من دون الله، فطاعتُه أو الخضوعُ له واتِّباعُه تُؤدِّي حَتمًا إلى الانحراف والخروج من نور الإيمان والحقِّ والعَدل والعلم، إلى ظلمات الكُفر والشِّرك والنِّفاق والظُّلم والجَهل، وهذا ما أكَّدَه القرآنُ بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

١ - كاظم محمدي ومحمد دشتي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، خطبة: ٩٧- ١٢، ص٣٧.

واستخدامُ القرآن الكريم للفظ (الإخراج) له دلالاتٌ تَدبُّريةٌ عميقةٌ جدًّا، إحدى دلالاتها أنَّ هذه الفئةَ تستخدمُ وسائلَ وطُرُقًا متعدِّدةً - قد تكونُ من بينها القوّةُ الماديِّةُ- لإخراجِ النّاسِ (التّابعينَ أو الخاضعينَ لسُلطتها)، من (النُّور) لترَمي بهم في متاهات الظَّلام، والمقصودُ بالنُّور هنا عدّةُ أمور (الفطرة، الحقّ، العدل، الصِّراط المُستقيم، الوَحي..إلخ)، وقد ضربَ القرآنُ للنّاسِ مثلاً، فرعونَ الذي طَغى في الأرضِ واستعبدَ قومَه واستخفَّهُم: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف:٥٤]، فلم يُؤمنوا بالآيات والمُعجزات الواضحة بل اتَّبعوا أمرَه وعصَوا اللهَ ورسولَه، ﴿**.. فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**﴾ [هود:٩٧]. فكانَت النَّتيجةُ هلاكَ الجميعِ وشقاءَهُم في الدُّنيا والآخرة: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الزخرف:٥٥].

وهكذا كان مصيرُ كلِّ مَن يَعصي اللهَ ورُسلَه، ويتَّبِعُ كُبراءَه وسادتَه والطَّواغيتَ في كلِّ زمانٍ ومكان. والحلُّ الذي يُقدِّمُه القرآنُ الكريمُ لهذه المُعضلة هو استبدالُ طاعة السّادة والكُبراء بطاعةِ الله ورُسُله، والكُفر بالطّاغوت: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٣٢]، ﴿**.. فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٦]. ففي طاعةِ اللهِ ورُسلِه النَّجاةُ والأمنُ والسَّكينةُ والرَّحمةُ والفلاحُ في الدُّنيا والآخرة.

٧- الغُلوُّ:

المقصودُ بالغلوِّ في اللُّغة: تَجاوزُ الحَدِّ[١]، بالمُبالغة أو الإفراط والشَّطط، والتَّنطُّع والتَّشدُّد والمُروق،..إلخ، والغُلوُّ في الدِّين يكونُ في المُعتقدات والأقوال، كما يكونُ في جانب الالتزام والسُّلوك والأفعال، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريمُ من الغلوِّ في الدِّين بشكلٍ عامٍّ، في المُعتقَد والسُّلوك، تَحذيرًا شديدًا، لِما يترتَّبُ عليه من تَحريف للمُعتقدات وسقوط في الضَّلال والانحراف عن الصِّراط المستقيم، والتأثيرِ سلبًا على الدِّين الواحد، الذي قد يتحوَّلُ إلى أديانٍ مُتعدِّدة، ومذاهبَ

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٦٤.

مُتفرِّقة ومُتنازعة ومُتناحرة، ومُعتقدات باطلة مُتنافرة ومُختلفة، وسُلوكيات يتحكَّمُ فيها الجهلُ والهَوى والتعصُّبُ الأعمى، وكلُّ ذلك بعيدٌ كلَّ البُعد عن مقاصد الوَحي والتَّشريع، ويُؤثِّرُ سلبًا على الأمن الفكريِّ في أيِّ مُجتمعٍ، بل على جميع الأبعادِ الأخرى للأمن: السِّياسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصادية..إلخ.

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريم عن أهلِ الكتابِ (اليهود والنَّصارى)، وكيف سقطُوا في الغلوِّ وابتعدوا عن الحقِّ، باعتقادات ابتدعُوها وأقوالٍ نَسبوها لله وأنبيائه، كتأليه الأنبياء والإلحاد في أسماء الله، أو وصف الله -عزَّ وجلَّ- بما لا يَليقُ: يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ..**﴾ [التوبة:٣٠]، لذلك نَهاهُم عن هذا الغلوِّ وأعادَهُم إلى الحقِّ والعَقيدة الصَّحيحة قائلاً: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلا**﴾ [النساء:١٧١]، وكذلك قولهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ..**﴾ [المائدة:٦٤].

والقرآنُ، وهو يَنهى أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ، إنَّما يُحذِّرُ المسلمينَ كذلك من السُّقوط في الغلوِّ، لكنْ - معَ الأسف - فقد ظهرَ الغلوُّ في الأوساط الدِّينيّة والمذهبيّة والاجتماعيّة المُسلمة بعدَ وفاة (الرَّسول) ﷺ؛ حيثُ ظهرَت فرقةُ الخوارجِ الذينَ تميَّزوا بالتَّشدُّد والمُروق من الدِّين، وقد حذَّرَ (الرَّسولُ الكريم) ﷺ منهم ومن مَنهجهم، فعن أبي سعيد الخدريِّ قال (رسولُ الله) ﷺ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ القِيلَ وَيُسِيئُونَ الفِعْلَ، يَقْرَؤونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّة، لا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرتَدَّ عَلَى فُوقِه، هُمْ شَرُّ الخَلْقِ والخَلِيقَة، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُم وقَتَلُوهُ، يَدعُونَ إِلى كِتابِ اللَّه ولَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قاتَلَهُمْ كانَ أَولَى بِاللَّهِ مِنهُم»، قَالُوا يا رَسُولَ اللَّه ما سِيماهُم؟ قالَ: «التَّحْلِيقُ»[1].

١ - سليمان بن الأشعث (أبو داود)، سنن أبي داود، ج٧ ص ١٤٣.

كما ظهرَت فرقٌ كثيرةٌ عُرفت بالغُلاة: كلاميّةٌ وصوفيّةٌ وحشويّةٌ تكفيريّةٌ، غالَت في بعض الأئمة وألَّهتهُم، وهناكَ مَن نسبَ الخوارقَ لبعض رؤساءِ الفِرَقِ والمَذاهبِ، وهناكَ شَططٌ وإفراطٌ في أقوال فاسدة، ومُعتقدات غريبة (الحلول- الوحدة والاتِّحاد؟!)، وتأويلاتٌ غامضةٌ مُتشابهةٌ، بعيدةٌ عن الإسلامِ وهَديه، كما وُجدَ مَن شطَّ وغالىَ في بعض الأفعالِ العباديّة، وابتدعَ شَطحات غَريبة لا عَلاقةَ لها بالشَّعائرِ المَنصوصِ عليها. وكما قُلنا، كان لهذا الغلوِّ آثارُه السَّلبيّةُ الخطيرةُ على المسلمينَ، أفرادًا ومُجتمعات؛ حيثُ تعرَّضَ أمنُهم الفكريُّ والعقديّ والاجتماعيُّ والسياسيُّ للخللِ، ويكفي أن نُطالعَ كتبَ التّاريخِ وكتبَ الفِرَقِ والمِلَلِ والنِّحَلِ، لنرَى ما أصابَ هذه الأمّةَ بعدَ نبيِّها ﷺ من انقسامٍ وتفرُّقٍ وصراعاتٍ دَمويّة بينَ هذه الفِرق والتيّارات. لذلك - وإلى جانبِ القرآنِ الكريم- فقد حذَّرَت السُّنَّةُ الشَّريفةُ وروياتُ أهلِ البيتِ عليهم السلام، من الغلوِّ ومن أسبابه ومَخاطره وتداعياته السَّلبيّة، ودَعَت إلى الوسطيّةِ في الأقوالِ والأفعالِ، والحرصِ على الاتِّباعِ والبُعدِ عن الابتداعِ، منها قولُ (الرَّسولِ) ﷺ: «رجلان لا تَنالُهُما شفاعتي، صاحبُ سُلطانٍ عَسوفٌ غَشومٌ، وغالٍ في الدِّينِ مارقٌ»[1]، وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قال: «هلكَ فيَّ رجلان: مُحبٌّ غالٍ، ومُبغضٌ قَالٍ»[2]. وعن (الإمام الصّادق) عليه السلام قال: « احذَرُوا على شبابكُم الغُلاةَ، لا يُفسدونَهم، فإنَّهم شرُّ خلقِ اللهِ، يُصغِّرونَ عَظمةَ اللهِ، ويدَّعونَ الرُّبوبيّةَ لعبادِ الله»[3].

٨- الخوضُ في المُتشابِهِ من الوَحي دونَ عِلم:

من الحقائق التي أشارَ إليها الوحيُ وأكَّدَها كونُ القرآن الكريم يَشتملُ على آيات مُحكمة وأُخَرَ مُتشابهة: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧]، وقد اختلفَ المُفسِّرونَ في تعريفِ المَقصودِ بالمُحكَم والمُتشابه من الآيات: على أقوال: «المُحكَمُ ما لا يَحتمِلُ إلا وجهًا واحدًا، والمُتشابهُ ما يَحتمِلُ وَجهَينِ فصاعدًا، وقيلَ

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٧ ص٣٠٤٣، حديث: ١٥٢٢٠.
٢ - محمد الريشهي، ميزان الحكمة، ج٧، ص ٣٠٤٣، حديث: ١٥٢٥٧.
٣ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٧ ص ٣٠٤٤، حديث: ١٥٢٦٢.

المُحكَمُ ما يُعلَمُ تَعيينُ تأويله، والمُتشابهُ ما لا يُعلم تَعيينُ تأويله، وقيل: المُحكَمُ ما عُرف المُرادُ منه، إمّا بالظُّهور وإمّا بالتأويل، والمُتشابهُ ما استأثَرَ اللهُ بعلمه، يقولُ (السيِّدُ الحَكيمُ): ولعلَّ هذا التَّفسيرَ يَتلاءَمُ مع ما يَبدو من ظهور هذه الآية: ﴿**.. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:٧][1]. وقد تحدَّثَ (العلامةُ الطباطبائيُّ) عن مسألة الإحكام والتَّشابُه في القرآن الكريم، وخلصَ إلى أنَّ المقصودَ بالمُحكمات «إتقانُ هذه الآيات من حيثُ عدمُ وجودِ التَّشابُه فيها كالمُتشابهات.. وقد وصفَ المُحكمات بأنَّها أُمُّ الكتاب، والأُمُّ بحسبِ أصلِ مَعناهُ، ما يَرجعُ إليه الشَّيءُ، وليس إلاَّ أنَّ الآيات المُتشابهةَ تَرجعُ إليها، فالبعضُ من الكتاب، وهي المُتشابهاتُ، تَرجعُ إلى بعض آخَرَ وهي المُحكَماتُ.. فالكتابُ يَشتملُ على آيات هي أُمُّ آيات أُخَر.. وأمّا التَّشابُهُ المَذكورُ في هذه الآية،.. فيَدلُّ على أنَّ المرادَ به كونُ الآية بحَيثُ لا يتعيَّنُ مُرادُها لفَهم السّامع بمُجرَّد استماعِها، بل يتردَّدُ بينَ معنًى ومعنًى حتّى يَرجعَ إلى مُحكمات الكتاب، فتُعيِّنُ هي مَعناها وتُبيِّنُها بيانًا، فتَصير الآيةُ المُتشابهةُ عندَ ذلك مُحكَمةً بواسطة الآية المُحكَمة, والآيةُ المُحكَمةُ مُحكَمةٌ بنَفسها, كما أنَّ قولَه: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه:٥]، يَشتبهُ المُرادُ منهُ على السّامع أوَّلَ ما يَسمعُه، فإذا رجعَ إلى مثل قوله تعالى: ﴿**.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١]، استقرَّ الذِّهنُ على أنَّ المرادَ به التسلُّطُ على المُلك والإحاطةُ على الخلق، دونَ التَّمكُّن والاعتمادِ على المكان المُستلزِم للتَّجسُّم المُستحيلِ على الله سبحانه..»[2].

وقد زلَّت أقدامُ أقوامٍ كثيرةٍ أثناءَ الخوضِ في هذه المُتشابهات، ومُحاولةِ تأويلِها بالعَقلِ أو بالهَوى، حيثُ سقطَ عددٌ ممَّن ليس لديه علمُ الكتاب، أو لم يَرجعْ إلى الرّاسخينَ في العلم بالقرآن، في الفِتنة، فهلكَ وأهلَكَ، كما قال (الإمامُ الباقرُ) عليه السلام في حوارِه مع أحدِ المُفسِّرينَ المَشهورينَ[3]،

١ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص١٠٣.

٢ - محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٣ ص٢٠.

٣ - انظر نص الحوار في: محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص١٠٤ وما بعدها. « فقد دخل قتادة على أبي جعفر(الباقر عليه السلام): فقال له: أنت فقيه أهل البصرة، فقال: هكذا يزعمون. فقال(عليه السلام) بلغني أنك تُفسِّر القرآن، قال: نعم - إلى أن قال - يا قتادة، ان كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك، فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلكت يا قتادة - ويحك - إنما يعرف القرآن من خوطب به..»

وكذلكَ ما وقعَ مع الأسماء والصِّفات الإلهيّة الواردة في القرآن وغيرها من الألفاظ المُتشابهة، حيثُ ظهرَت فِرَقٌ ومَذاهبُ شتَّى، كلٌّ يَدَّعي أنَّ تأويلَه هو الحقُّ، وغيرَه في ضلالٍ مُبينٍ.

لذلك وقعَ التَّحذيرُ بشدَّة في القرآن والسُّنة، من اقتحام هذا المضمار الخطير من غير أهله، فإنَّ مصيرَه الضَّلالُ والفتنةُ لا محالةَ. والمطلوبُ هو القولُ بعلمٍ ويَقينٍ أو الإمساكُ والبُعدُ عن الخوضِ أو التأويلِ والتَّفسيرِ بجَهلٍ وهوًى، «فعَن زرارةَ بن أعينَ، سألتُ أبا جعفرٍ الباقر (عليه السلام)، ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ قال: أن يَقولوا ما يَعلمونَ، ويَقِفُوا عندَ ما لا يَعلمونَ»[1]. ولذلكَ ذهبَ عددٌ من المفسِّرينَ، للآيةِ الآنفةِ الذِّكرِ، إلى أن موقفَ الرّاسخينَ في العلمِ من الآيات المُتشابهة، هو إمّا تفسيرُها وتأويلُها بعلمٍ، أو الإيمانُ بها وإيكالُ علمِها وتأويلِها الحقيقيِّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

٩ - اتِّباعُ الظنِّ:

الظنُّ في اللُّغة اسمٌ لما يَحصل عن أمارةٍ، ومتى قَويَتْ أدَّتْ إلى العلمِ، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التوهُّمِ، وقد يُفيدُ العلمُ والاعتقادُ الذي يكونُ صَحيحًا أو خطأً، والظنُّ - كما يقول (الأصفهاني):- في كثيرِ الأمورِ مَذمومٌ[2]. وقد وردَ التَّحذيرُ في القرآن الكريم من الظنِّ (الاعتقاد)، الذي لا يُفيد علمًا حقيقيًّا صحيحًا وواقعيًّا، بل يكونُ مجرَّدَ توهُّمٍ بأنَّه علمٌ، أو قريبٌ من العلمِ، أو يَشتبهُ أنَّه علمٌ، كما يقعُ مع كثير من النّاس: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم:٢٨]، وخطورةُ اتِّباعِ الظنِّ، تكمنُ في ما قد يترتَّبُ عليه من مواقفَ، خصوصًا في مجال الاعتقادِ والفكرِ، مثل: الإيمانِ أو الكفرِ، أو الضَّلالِ والابتداعِ، والسُّقوطِ في الغلوِّ والشَّطط: كما وقع مع بني إسرائيلَ بخصوصِ (نبيِّ الله عيسى) (عليه السلام) وادِّعائهم قتلَه وصَلبَه، يقول القرآن: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾ [النساء:١٥٧].

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٦ ص١٤، حديث: ٩١١٥.
٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٣١٧،

وبناءً على هذا الظنِّ وعدمِ اليَقين، ظهرَت ديانةٌ وفِرَقٌ وكنائسُ ومعتقداتٌ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان، وكذلكَ المَواقفُ الخُلُقيّة في العلاقاتِ الاجتماعيّة، المَبنيّة على الظنِّ أو سُوءِ الظنِّ وما يترتَّبُ عليها من تخاصُمٍ وشِجارٍ وفُرقةٍ وصِراعاتٍ، ومخاطرَ على الأمنِ الاجتماعيِّ أيضًا، ولهذا حذَّرَ الإسلامُ من الظنِّ ونَهى عن اتِّباعه سواءٌ في المُعتقداتِ أو السُّلوكيّات: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ [الحجرات:١٢]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إيّاكُم والظنَّ، فإنَّ الظّنَّ أكذَبُ الكذبِ (أو قال الحديث)[1]، ويقول (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «حُسنُ الظنِّ سلامةُ القلبِ، وراحةُ الدِّينِ»[2]. وبالتالي، فالمطلوبُ بالنِّسبةِ للمُسلمِ هو أن يَبنيَ مُعتقداتِه ومَواقفَه الفكريّةَ والعَقديّةَ على اليَقين، أو الظنِّ المُفيدِ للعلمِ، وأن يُحسِنَ الظنَّ في المواقفِ الاجتماعيّةِ والمُتعلِّقةِ بالأخلاقِ والسُّلوكِ، وهذا ما يُحقِّقُ الأمنَين مَعًا، الفكريَّ والاجتماعيَّ في المجتمعِ المُسلم.

١٠ - التكبُّرُ والاستكبار:

مِن أخطرِ معوِّقاتِ الأمنِ الفكريِّ التكبُّرُ، وهو من أمراضِ القلوبِ المُستعصيةِ على العلاجِ، وهو من الأخلاقِ القَبيحةِ المَرْدية، وعنوانُ الجَهلِ والوَضاعة، ويترتَّبُ على التَّلبُّسِ بالكِبْرِ، جَحْدُ الحقِّ والتكذيبُ به ورَفضُه وتَركُه، بل مُحاربتُه ومُواجهةُ أهلِه ودُعاته؛ لأنَّ التَّكبُّرَ يَخلقُ غشاوةً على القلب، تمَنعُه من الإذعانِ والانقيادِ للحقِّ، كما وقعَ لإبليسَ: ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ**﴾ [ص: ٧٥]، والمُتكبِّرُ مَحجوبٌ قلبُه عن الإيمانِ والهدايةِ والرُّشدِ والمَغفرة: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٤٦].

والكِبْرُ يكون أكثرَ خطرًا على الأمنِ الفكريِّ عندَما تتلبَّسُ به الجماعةُ أو المَلأُ المُوجِّهُ لها،

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٦، ص٢٣٥٨، حديث: ١١٥٣٨.

٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٦، ص٢٣٥٧، حديث: ١١٥٣١.

فإنَّ حالةَ الإضلالِ تكونُ عامّةً كما وقعَ معَ قومِ نوحٍ: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾ [نوح:٧]. وكذلكَ فرعونُ وملؤُه وجنودُه، الذين جَحدوا بكلِّ الآياتِ، فكان مَصيرُهُم الغرَقُ جميعًا. لذلك حذَّرَ القرآنُ الكريمُ وكذلك السُّنةُ، بشدّة من الكبْرِ والاستكبار، وكشَفا عن عَواقبه في الدُّنيا والآخرة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأعراف:٣٦]، وعن الإمام عليٍّ عليه السلام قالَ: «إيَّاكُم والكِبرَ، فإنَّه أعظمُ الذُّنوبِ وأَلأمُ العيوبِ، وهو حليةُ إبليسَ»[1]. وعلاجُه يَكمنُ في علاج أسبابه، وهي كثيرةٌ، أشهرُها: الجهلُ والحسدُ والحِقدُ، واتِّباعُ الهَوى، والشُّعورُ بالوَضاعة النَّفسيّة والاجتماعيّة، وكلُّ هذه الأمراضِ تحتاجُ إلى تزكيةٍ للنَّفسِ، بالإيمانِ والالتزامِ بالطَّاعاتِ والتفقُّهِ في الدِّينِ، وطلبِ الهدايةِ من الله عزَّ وجلَّ.

١١ - الرُّكون إلى أهل الكتاب (اليهود والنَّصارى) وطاعتُهم:

من التَّحديّات التي واجهَت الإسلامَ، منذُ بزوغِ فجرِه في الجزيرةِ العربيّة، عَداءُ أهلِ الكتابِ السّافرُ ، خصوصًا القبائل اليَّهوديّة، التي كانَت تسكنُ المَدينةَ المنوَّرةَ (يثرب)، فقد أعلنوا مُبكِّرًا عداءَهم ورَفضَهم للدِّين الجديد ولرسوله وللمؤمنينَ به، وتآمَروا على المسلمينَ في يثربَ وغَدروا بهم، معَ ما أعطاهُمُ اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وآله من حقوقٍ (في وثيقة المَدينة)؛ حيثُ اعتبرَهُم مواطنينَ في دولة الإسلام، لكنَّهم لم يتوقَّفوا عن التآمُرِ على الإسلام والرَّسولِ صلى الله عليه وآله والمسلمينَ، إلى أن جرى القضاءُ عليهم وإجلاؤُهم عن جزيرةِ العربِ، لكنَّ عداءَهم للإسلام لم يتوقَّفْ، بل استطاعَ بعضٌ منهم ممّن اعتنقَ الإسلامَ أن يُدخِلَ في الثَّقافة الإسلاميّة كثيراً من المُعتقداتِ اليَهوديّة المُنحرفة، فيما عُرف بالإسرائيليّات. وقد استمرَّ عداؤُهم للإسلام من ذلك اليوم وإلى الآنَ، لأسبابٍ كثيرةٍ، ليسَ هنا محلُّ الحديثِ عنها بالتَّفصيلِ، من بينِها الحسدُ والتَّنافسُ الدِّينيُّ، وقد رأوا الإسلامَ يَنسخُ مُعتقداتِهم ويَكشفُ الانحرافاتِ التي وقعوا فيها والضَّلالَ الذي سقطوا فيه.

---

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٨ ص٣٥٠٨، حديث: ١٧٢٠٦.

والذي يَهمُّنا هنا، هو التَّحذيرُ الشَّديدُ الذي وردَ في القرآن الكريم من أهل الكتاب وخاصةً اليَهود: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة:٨٢]، كما كشفَ عن نيّتهم ورَغبتهم في إضلال المسلمينَ وحَرفهم عن دينهم وعَقيدتهم وإعادتهم إلى الجاهليّة والشِّرك، بسبب الحسد وكراهية أن يُنعمَ اللهُ عليهم بالوَحي والنُّبوة دونَهم[1]: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ [البقرة:١٠٩]، ولذلك لم يكتفِ القرآنُ بالتَّحذير منهم، بل كشفَ كثيراً من مُؤامراتهم ودَسائسهم وأساليبهم الماكرة في التَّآمر على المسلمينَ ودينهم ورَسولهم، ونَهى بشدّة عن طاعتهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٠].

وهذا العَداءُ للإسلام ورسوله، والرَّغبةُ في إضلال المسلمينَ وإعادتهم إلى الجاهليّة والكُفر، لم تَنته بانتصار الإسلام، بل استمرَّت بطرق وأشكال متعدِّدة، ولا تَزالُ إلى يومنا هذا، فالكتاباتُ الاستشراقيّةُ – مثلاً - التي حاولَت التَّشكيكَ في الإسلام وعقائده وشَريعته وسيرة نبيِّه، يَقفُ وراءَ مُعظمها مُستشرقونَ من اليهود والمَسيحيِّينَ. واليومَ، الإسلامُ هو العدوُّ الأوَّلُ للصهيونيّة وبعض الكنائس الإنجيليّة في العالَم، يَظهر ذلك، ليس فقط في الحرب السياسيّة والعسكريّة على العالم الإسلاميِّ، ولكنْ في الحرب الفكريّة والدِّينيّة والإعلاميّة الشَّرسة التي كانَت لها نتائجُ سلبيّةٌ عميقةٌ على الأمن الفكريِّ والعقديّ في العالَم الإسلاميِّ، لذلك، لا بدَّ من أخذ التَّحذير القرآنيِّ من أهل الكتاب على محملِ الجدِّ، وعلى المسلمينَ أن يُواجهُوا هذا التحدِّي الخطرَ، ببرامجَ وخطط وكتابات وسياسات، واستخدامُ كلِّ الوسائل المُمكنة لمواجهته والتصدِّي له، حمايةً للمُسلمينَ، وفئة الشَّباب على وجه الخصوص، من الضَّلال والانحراف والكفر، الذي يودُّ أهلُ الكتاب أن يُوقعوهُم فيه.

١ - كان ظهور الإسلام في مكة ضربةً قاسية لليهود، فقد انتقلت النبوة من ذرية (إسحاق) و(يعقوب) عليهما السلام، إلى ذرية (إسماعيل بن إبراهيم) عليه السلام.، وهذا ما لم يقبل به اليهود، لذلك تآمروا على الإسلام وتعاونوا مع مشركي مكة للقضاء عليه، ومحاولة اغتيال (الرسول) ﷺ. وفي السيرة النبوية تفاصيل ما وقع بين (الرسول) والمسلمين واليهود في المدينة(يثرب).

١٢ - مصاحبةُ المُنحرفينَ والضّالينَ:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ المصاحبةَ والمُرافقةَ يترتَّبُ عليها - حتمًا - التّأثيرُ والتأثُّرُ، سواء أكان التأثيرُ سلبيًّا أم إيجابيًّا، لذلك نبَّهَ القرآنُ الكريمُ والسُّنةُ الشَّريفةُ على أهميّةِ اختيارِ الصَّديقِ والقَرينِ والرَّفيقِ، سواءٌ في الطَّريقِ أم السَّفرِ أم في طلبِ العلمِ وفي جميعِ نواحي الحياةِ، وأنْ يكونَ هذا الرَّفيقُ والصَّديقُ من أهلِ: العلمِ والمَعرفةِ والتَّقوى والأخلاقِ الحَميدةِ والمُروءةِ وتَهذيبِ النَّفسِ، وحُبِّ الخَيرِ، فمَن كانَت هذه صفاتُه أو يتحلَّى ببعضِها، فإنَّ مصاحبتَه ستَعودُ بالخيرِ والفلاحِ والهدايةِ والرُّشدِ وسلوكِ الطَّريقِ المُستقيمِ في الدُّنيا والآخرةِ، أمّا إذا كان الرَّفيقُ والصّاحبُ لا يتحلَّى بهذه الصِّفاتِ أو ببعضِها، فإنَّ خطرَ الانحرافِ والضَّلالِ وسلوكِ سبيلِ الغوايةِ والسُّقوطِ في المَهالكِ، يكونُ محتملاً إن لم يكنْ حتميًّا، وهذا ما أشارتْ إليه الآيةُ الكريمةُ: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولا**﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨-٢٩]، إنَّ الرَّفيقَ أو الصَّديقَ أو القَرينَ السَّيِّئَ والمُنحرفَ، يكونُ بمثابةِ الشَّيطانِ يُوسوسُ ويُزيِّنُ ويأمرُ بالفَحشاءِ والمُنكَرِ، ويُضِلُّ؛ لأنَّه هو نفسُه ضالٌّ مُنحرفٌ.

وهذا ما نبَّهَت إليه السُّنَنُ والرِّواياتُ أيضًا: يقول (الرَّسولُ) ﷺ «المَرءُ على دينِ خليلِه، فلْيَنظرْ أحدُكُم مَن يُخالِلُ»[١]. فالمَطلوبُ بالنِّسبةِ للإنسانِ المُسلمِ هو اختيارُ أفضلِ الأصدقاءِ، علماً وورَعًا، وخُلقًا وتَقوى ومودّةً، ومَن يُذكِّرونَه باللهِ ويَنصحونَه ويُرشِدونَه إلى الطَّريقِ المُستقيمِ، يقولُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «صاحِبِ العُقلاءَ، وجالسِ العُلماءَ، واغْلبِ الهَوى، تُرافِقِ المَلأَ الأعلى»[٢].

وقد كشفَ كثيرٌ من الدِّراساتِ، الخاصّةِ بانحرافِ الشَّبابِ، أنَّ هذا الانحرافَ جاءَ بسببِ صُحبةِ

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٥ ص ٢٩٧، حديث: ١٠٢٢١.
٢ - محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص ٤١٧.

رفيقٍ سيِّءٍ أو مُنحرفٍ، أو يتَّبِعُ مذهبًا أو تيارًا فكريًّا ضالًّا، وكذلكَ جرائم الأحداث - بل حتّى الكبار- فقد تورَّطَ البعضُ منهم في جرائمَ خطيرةٍ بسبب الرِّفقةِ السَّيئةِ، وهذا الأمرُ يَنعكِسُ سَلبًا على الأمن الفكريِّ والأمنِ الاجتماعيِّ معًا.

١٣ - اتِّباع السُّبل وسبيلِ غيرِ المؤمنينَ:

نَهى القرآنُ الكريمُ بشدّةٍ عن اتِّباعِ السُّبلِ، بعدَ ظهورِ الإسلامِ ونزولِ القرآن، والمقصودُ بها الأديانُ المنحرفةُ والاتِّجاهاتُ والفِرَقُ والأهواءُ والمَناهجُ والتَّفسيراتُ المُخالفةُ للصِّراطِ المُستقيمِ، المُتمثِّلِ في الإسلام، وعقيدةِ التَّوحيدِ والإيمانِ بالوحيِ والالتزامِ بما نزلَ فيه من قِيَمٍ وأحكامٍ ومَبادئَ، وطاعةِ الله ورسولِه في كلِّ أمْرٍ ونَهي..إلخ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وخطورةُ (السُّبلِ) على الأمن الفكريِّ والاجتماعيِّ واضحةٌ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ في الدِّينِ، يُحوِّلُ الاختلافَ إلى مجموعة من الأديان والفِرَقِ والمَذاهبِ والتَّياراتِ المُتنافسةِ والمُتصارعةِ، وهذا ما يُؤثِّرُ سلبًا على الحقائق الدِّينيّة أوَّلًا، ثم على الوحدةِ الدِّينيّةِ والاجتماعيّةِ للأمّةِ ثانيًا، بتحوُّلِ هذا الاختلاف إلى نزاعٍ وتحارُبٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ..إلخ. لذلك، فالمطلوبُ هو الاعتصامُ بحبلِ الله، وتجنُّبُ التفرُّقِ باتِّباعِ هذه السُّبلِ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..**﴾ [آل عمران:١٠٣]. وهذا ما أكَّدَت عليه السُّنّةُ أيضًا: فعَن (جابرِ بن عبد الله)، قال كنَّا عندَ النَّبيِّ ﷺ، فخَطَّ خطًّا، وخطَّ خطَّينِ عن يمينه، وخَطَّ خطَّينِ عن يساره، ثمَّ وضعَ يدَهُ في الخطِّ الأوسَط، فقالَ: هذا سبيلُ اللَّه ثمَّ تَلا هذه الآيَةَ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

وإلى جانب النَّهي عن اتِّباعِ (السُّبُلِ)، نَهى القرآنُ الكريمُ كذلك، عن اتِّباعِ ما أسماهُ سبيلَ غيرِ المسلمينَ، ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ**

١ - محمد بن يزيد (ابن ماجة)، صحيح ابن ماجه، باب اتِّباع سنة رسول الله ﷺ، ج١ ص٨ رقم الحديث ١١.

مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وسبيلُ المُؤمنينَ هنا هو طريقُ الإسلامِ بعَقائده وتَشريعاته وقِيَمه، وهو طريقُ الحقِّ، فمَن يَختَرْ غيرَ هذا السَّبيلِ، ويتَّبِعْ سبيلَ الكُفارِ أو المُنافقينَ، أو سبيلَ أهلِ الكتابِ وغيرِهم من أهلِ الشِّركِ والضَّلالة، أو يُوالِهم أو يُطعْهم، فإنَّه سيَنحرفُ حَتمًا عن الصِّراطِ المُستقيم، ولذلك حذَّرَ القرآنُ من هذه السُّبُلِ أيضًا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٩]، وقوله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [المائدة:٥١].

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ عن العواقبِ السَّلبيّةِ لاتِّباعِ الكُفّارِ والمُنافقينَ ومُوالاتِهم، أو الرُّكونِ لأهلِ الفسقِ والفُجورِ، أو التورُّطِ في البَغي والعُدوانِ، وتأثيرِ ذلك على الأمنِ الفكريِّ والاجتماعيِّ، وكذلك عن مخاطرِ تَعطيلِ شَعيرةِ الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، لدَورِها في المُساعدةِ على تحقيقِ الأمنِ بشكلٍ عامٍّ، في الدَّولةِ المُسلمةِ، وغيرِها من المُعوِّقاتِ الأُخرى، التي لم يتَّسعِ المجالُ للحديثِ عنها بالتَّفصيلِ في هذه الدِّراسة.

الخاتمة

بعدَ التعرُّفِ على مَفهومِ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنةِ النَّبويّةِ، واستعراضِ أهمِّ مُعوِّقاتِه وكيفيّةِ مواجهتِها، فإنَّ ضمانَ تَحقيقِ الأمنِ الفِكريِّ والعقدَيّ في المَجتمعِ الإسلاميِّ ومن ثَمَّ تحقيقِ الأمنِ على جميعِ المُستوياتِ، يَقتضي من المسلمينَ، أفرادًا ومُجتمعاتٍ، اتِّباعَ (هدى الله)، الذي أكَّدَ عليه الوَحيُ المُنزَّلُ بعدَ نزولِ (آدمَ وحوّاءَ) إلى الأرضِ وبدءِ تجربةِ إقامةِ الخلافةِ في الأرضِ: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة:٣٨]. ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ**﴾ [طه:١٢٣].

فاتِّباعُ هُدى الله - بالنِّسبةِ للإنسان- يَحولُ دونَ وُقوعِه في الخوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشَّقاءِ، فتحلُّ الطّمأنينةُ والسَّكينةُ والأمنُ النَّفسيُّ والرُّوحيُّ. وقد وضعَ الوحيُ الإلهيُّ برنامجًا تفصيليًّا

مُتكاملاً لتحقيق هذا الأمن على جميع المُستويات. فاتِّباعُ هُدى الله يَعني: الإيمانَ بالله ورُسله وكتبه [التغابن:٨]، واتِّباعَ الوَحي والحقِّ: [الأعراف:٣]، واتِّباعَ الأنبياء والرُّسلِ والأوصياء، وكلَّ مَن يَهدي إلى الحقِّ، وطاعتَهم واتِّخاذَهُم قدوةً وأُسوةً في كلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بالحياة [يس:٢٠-٢١]، [الأحزاب:٢١]، [يونس:٣٥]. والاحتكامَ إلى شريعة السَّماء والحُكم بها، لأنَّ مَن لم يَحكُمْ بها فسيسقطُ في الكُفر والظُّلم والجاهليّة، [المائدة:٤٩]، [المائدة:٤٥]، [لمائدة:٥٠]. والجمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ: [البقرة:٢٧٧]...إلخ.

أمّا مَن خالفَ أو حادَ عن هذا الهُدى، فلم يُؤمِنْ بالله والغَيب، ولم يتَّبِع الوَحيَ والرُّسلَ ولم يَقتَدِ بالأنبياء والأوصياء، وأعرضَ عن ذكر الله وعبادته، فإنَّ النَّتيجةَ الحَتميّةَ هي: المَعيشةُ الضَّنكةُ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه:١٢٤]، قال (العلامة الطباطبائيُّ): «مَعيشةً ضَنْكًا» أي مَعيشةً دُنيويّةً ضيِّقةً؛ لأنَّه كلَّما حصَّلَ منها واقتناها لم يُرضِ نفسَه بها، وانتزَعَت إلى تحصيلِ ما هو أزيَدُ وأوسعُ، من غيرِ أن يقفَ منها على حدٍّ، فهو دائمًا في ضيق صدرٍ وحنقٍ ممّا وُجِدَ، مُتعلِّقُ القلبِ بما وراءَه، معَ ما يَهجمُ عليه من الهَمِّ والغَمِّ والحزنِ والقلقِ والاضطرابِ والخوفِ من نزولِ النَّوازِلِ، وعُروضِ العَوارضِ، مِن موتٍ ومرضٍ وعاهة... إلخ»[1].

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤ ص ٢٢٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطورات – الإشكالات، بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري، الرياض، (٢٢-٢٥ جمادى الأولى- ١٤٣٠هـ، منشور على الرابط التالي: https://staffsites.sohag-univ.edu.eg/
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (بل تاريخ الطبعة).
- إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن الفكري بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، من أوراق المؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري، (٢٢-٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ)، منشور على الرابط التالي: https://dr-faisal-library.pub.sa/
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط- ١٩٨٢.
- خلدون سعود القرالة، الأمن الفكري من منظور القرآن الكريم: دراسة موضوعية، رسالة ماجستير من جامعة مؤته، نوقشت سنة ٢٠١٠.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن في غريب القرآن، المكتبة الرضوية، قُم المشرفة، ط١ ١٣٦٢ هـ. ش.
- سليمان بن الأشعث (أبو داود) سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١- ٢٠٠٩م.
- طلال مشعل، مفهوم الأمن في القرآن الكريم، منشور على موقع موضوع، على الرابط التالي: https://mawdoo3.com
- عبد اللطيف بيركوب، مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل حفظه: دراسة قرآنية مقاصدية،

مجلة التراث، عدد ٢٥ سنة ٢٠٢٠م، منشور على الرابط التالي: https:ll journalarticle. ukm.my

- علي بن فايز الحجني، وظيفة الأسرة في تدعيم الأمن الفكري، قاعدة البيانات، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١- ٢٠٠٤م.
- https://dr-faisal-library.pub.sa//
- كاظم محمدي ومحمد دشتي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء بيروت، ط١- ١٩٨٦.
- محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم المشرفة، ط١- ١٣٧٦ هـ.ش.
- محمد الريشهري، ميزان الحكمة، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط١- ٢٠٠١م.
- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، المحقق: أحمد بن محمد شاكر، بيروت، دار الكتب العلمية، (بدون سنة الطبع).
- محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١-٢٠٠٣م.
- محمد بن يزيد (ابن ماجة)، صحيح ابن ماجة، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١- ٢٠٠٩ م.
- محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، مؤسسة أهل البيت (ع) للطباعة والنشر، ط٢-١٩٧٩.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الإسلامي، قم المشرفة، ط٣- ١٩٧٢م.
- محمد محمد نصير، الأمن والتنمية، مكتبة العبيكان، االرياض، ط١-١٤١٣هـ.

- نايل ممدوح أبو زيد، الأمن الفكري في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، نوقشت سنة ١٩٩٤-١٩٩٥م.
- نبيل بن نذير الشرايري، الأمن الفكري في ضوء القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، منشورة على الربط التالي: https://archive.org/details

منهجُ الأنبياءِ في تحقيق ركائز الأمنِ الفِكريِّ
نَبيُّ اللّهِ إبراهيمُ (عليه السلام) أنموذجاً

◆ **الشيخ د. عبد القادر ترنني**[1]

■ **خلاصة**

يُعتبرُ تحقيقُ الأمنِ من أهمِّ ما تَطمحُ إليه المجتمعاتُ الإنسانيّةُ؛ لأنَّه السَّبيلُ لاستقرارها وتقدُّمِها وازدهارِها في جميع مجالاتِ الحياة.. في هذا البحثِ نُسلِّط الضَّوءَ على المَنهج الإسلاميِّ الذي رفعَ لواءَه أبو الأنبياء (إبراهيمُ) (عليه السلام)، لتَحقيق أمنٍ رساليٍّ حقيقيٍّ، حملَه معَ كلِّ حجرٍ رفعَ به بنيانَ الكعبةِ المُشرَّفة، راجيًا ربَّه أن يَعمَّ الأمنُ الظّاهرُ والباطنُ أرجاءَ المَعمورة، من خلال الاعتقادِ الصَّحيح، وتقويم الفكر الإنسانيِّ باتِّجاه التَّوحيدِ والعُبوديّةِ التّامّةِ لله – عزَّ وجلَّ- الذي يُفضي إلى أمنٍ فكريٍّ وعقديٍّ إنسانيٍّ، تتحقَّقُ معَه جميعُ أهدافِ الرِّسالاتِ السَّماويّةِ في الأرض..

الكلمات المفتاحية: الأمن الفكري - (إبراهيم) (عليه السلام) - الدَّعوة - الكعبة المشرَّفة - منهج الأنبياء.

١ - أستاذ دكتور في الجامعة اللبنانية، قسم اللغة العربية وآدابها، ومؤسس جمعية الأثر الطيب الثقافية الاجتماعية- لبنان.

المقدمة

للأمن في القرآن الكريم حقلٌ دِلاليٌّ واسعٌ، ذو علاقة بالحياة الدنيويَّة والأخرويَّة على حدٍّ سواء؛ ذلك أنَّ الإسلامَ دينٌ يَدعو الإنسانَ إلى بناء الدُّنيا والآخرة؛ حيثُ جعَلَ الدُّنيا مزرعةً يَغْرسُ العبدُ فيها البُذورَ التي يَجني ثمارَها في الآخرة؛ ومن أهمِّ البُذور، التي يُمكنُ أن يكون غرسُها وبَذْرها وثمَرُها طيِّبًا عَظيمًا، إنَّما هو الأمنُ الذي يُسيِّجُ العقولَ والنُّفوسَ والمجتمعاتِ بسياجٍ يَكفُلُ لها العيشَ الكريمَ، ويُحافِظُ على وجودِها وتقدُّمِها ورُقيِّها وصَفائِها...

وإذا رجعْنا إلى كتاب الله نَستنطقُه ونسألُه عن سبب إرسال الرُّسلِ، والهدف من بعثة الأنبياء والمُرسلينَ، فإنَّنا سنجدُ أنَّ هدايةَ النّاسِ إلى الإسلام هي الهدفُ الأسمى من الرِّسالات جميعها؛ إذ الاستسلامُ لله -تعالى- خالق الخَلق ومُشرِّع الشَّرائع الضّامنة للحقوق وللأمن الفرديِّ والمُجتمعيِّ والإنسانيِّ والعالميِّ فكريًّا وسياسيًّا وعقدَيًّا وخُلُقيًّا واقتصاديًّا... هذا الاستسلامُ هو الضَّمانةُ الحقيقيّةُ لبلوغ كلِّ الأهداف النَّبيلة التي تكفلُ حمايةَ البشرِ من الضَّياعِ والانحرافِ والاستغلالِ الذي تُمارِسُه القوى الظّالمةُ في الأرض..

ولئنْ حاوَلنا تحديدَ أهمِّ المجالاتِ، التي عملَت كلُّ الرِّسالات على تَحصينها أمنيًّا، فإنَّ النصَّ المعصومَ سيُنَبِّهُنا إلى أنَّ الأمنَ الذي عملَ الإسلامُ على تهيئته طالَما ركَّزَ على أمنِ البلاد الذي يتحقَّقُ بالأمن المكانيِّ والوجوديِّ والخُلُقيّ والتَّواصُليِّ على كلِّ صعيد بدءًا من العلاقات الأُسَريَّة وانتهاءً بالعلاقات الاجتماعيّة، سواءٌ أكانتْ أساليبُها قديمةً كقصائد الشُّعراء والأخبار والأنباء التي كانَت الألسنُ تتناقلُها وتَسيرُ بها الرُّكبانُ.. أم مُستحدثةً كتلك التي تتناقلُها الفَضائيّاتُ والوسائلُ الإعلاميّةُ ووسائلُ التَّواصلِ الاجتماعيِّ، التي تكفلُ الأمنَ الخُلُقيّ والمعلوماتيَّ والعَقديَّ والالتزامَ

الفرديَّ والمجتمعيَّ الذي يُعَدُّ البيئةَ الحاضنةَ للأمنِ الفكريِّ متى كانَت محلَّ عنايةٍ ومراقبةٍ واهتمامٍ من قِبَلِ المَعنيِّينَ بهذا الجانب الخَطيرِ.

الأمنُ الفِكريُّ - إذنْ - لا بدَّ له من مَحطّاتٍ تُحيطُ به من كلِّ جانبٍ، وتَرْفُدُه بأسباب وقُوًى تُساعدُ على تحصين الإنسانِ وعقله، وما لم يَعمدِ المَسؤولونَ والدُّعاةُ إلى الاهتمامِ بجانب الحصانةِ الفكريّةِ، وما لم يَعملِ العلماءُ والنُّقادُ والمُصلحونُ على بناء المَحطّاتِ الرَّئيسةِ الحَصينةِ وتَهيئةِ أسبابها، ذهبَت الجهودُ سُدًى، لا بل انقلبَت رأسًا على عَقب إلى أن تنهارَ في قَبضةِ المجرمينَ، الذينَ يُخَطِّطونَ لهدمِ الإنسانِ فكريًّا ودينيًّا وقِيَميًّا.

من هذا المنطلقِ جاء هذا البحثُ المكوَّنُ من أربعةِ محاورَ وخاتمةٍ:

أولا: الهدفُ من بعثة الأنبياءِ والرُّسلِ في دعوة (إبراهيمَ) عليه السلام ووصيّته

إذا كان اللهُ -سبحانَه- قد أرسلَ الرُّسلَ للعبادِ كي يَهدوهُم ويُرشِدُوهُم إلى طريق رِضوانه، فإنَّ سائلاً يَسألُ: ما الهدفُ الذي أرادَ الله -تعالى- للخلق الوُصولَ إليه من خلال الرِّسالاتِ السَّماويةِ والأنبياءِ والمُرسَلينَ الذينَ انْتجَبَهُم وبعثهم للنّاسِ، فأنزلَ عليهم كتبًا وشرعَ لهم شرائعَ مُتعدِّدةً؟

يُخبرُنا اللهُ -سبحانه- عن الهدف المُشترك الجامع من بعثة الرُّسُلِ عمومًا، مُخبراً عن ملَّة نبيِّه (إبراهيمَ) أبي الأنبياء بقوله: ﴿**وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة:١٣٠].

هذه الآيةُ الشَّريفةُ وما بعدَها من آياتٍ تُعلنُ أنَّ الإسلامَ هو الهدفُ الأوَّلُ والأخيرُ من بعثةِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ إذ كانَت وصيّةُ (إبراهيمَ) لأبنائه، من بعده، الثَّباتَ على الإسلامِ والموتَ عليه، وبهذه الوصيّةِ التزمَ أبناؤُه من بعده ووَصَّوا بها أبناءَهم: ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ**

يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣].

فلمَ الإسلامُ لا غيرُه؟

الإسلامُ هو الدِّينُ الجامعُ الذي ابتعثَ اللهُ -تعالى- به أنبياءَه، بهدف حفظ الإنسان في نفسه وماله وعِرضه وعَقله ودينه، فهو الدِّينُ الذي عُني بالفكر قويمًا من أيِّ زلّة أو انحرافات من المُمكن أن تَستوليَ عليه فتَستغلَّه وتُصيِّرَه عبدًا مُستسلمًا للجَهلِ والرَّذيلةِ والعَصبيّةِ والظُّلمِ والقوى المُتجبِّرةِ والشَّهواتِ والنَّزوات..

إنَّه الحصنُ الحصينُ والملاذُ المكينُ الذي يَضمنُ سعادةَ البشر، ويُحقِّقُ العدالةَ بينَهم، ويَقضي على كلِّ وجهٍ من أوجُه الاستغباءِ والاستخفافِ بالعُقول والنُّفوس، والذي يُحوِّلُ المجتمعاتِ البشريّةَ إلى وقودٍ للعقائدِ والأفكارِ الهَدّامة ذاتِ العَناوينِ البرّاقةِ الجَذّابةِ القادرةِ على التَّلاعُبِ بعواطفِ البشر، واستمالتِهم نحوَ مُستنقعاتِ الضَّياعِ والدَّمارِ والخُسرانِ المُبين، وذلك باسم الدِّفاعِ عن حقوقِ الإنسانِ وحريّته، والمساواةِ بينَ الرَّجلِ والمرأة، وتمَكينِ النِّساء، وحقِّ الطِّفلِ، والرِّفقِ بالحَيوان... ولا تَنتهي الشِّعاراتُ والعَناوينُ المُجلجلةُ التي ثبتَ أنَّ واضعيها كانوا يَصرفونَ أبناءَ المجتمعاتِ عن حقوقِهم، ليَشغلوا الأمّةَ كلَّ الأمّةِ عن قضاياها المَصيريّة، فيتمكَّنوا من السَّيطرةِ على مُقدّراتِها وخيراتِها واستعبادِ أهلِها بأكاذيبَ وشعاراتٍ ساريةِ المَفعولِ حتّى وهم يَقتلونَ شعبًا بلا شفقةٍ ولا رَحمة..

الإسلامُ هو الدِّينُ الذي أرسلَ الله به خاتمَ أنبيائه ورُسله رحمةً وهدايةً، ليُقوِّمَ مسيرةَ البشريّة التي انحرفَت عن طريق الله تعالى وصراطه المُستقيم؛ قال -تعالى-: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ * قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧ - ١٠٨].

وبما أنَّ الإسلامَ هو العنوانُ والمَضمونُ والفكرُ والأساسُ الذي دَعا إليه أنبياءُ الله -تعالى-، مُتحمِّلينَ من أجله العَذابات، ومُتَحَدِّينَ الخطوبَ والمِحَنَ وقُوى الشَّرِّ وملوكَ الضَّلال، حتى قُتل من قُتِلَ منهم لأجلِه، فإنَّ كلَّ العناوينِ الفرعيّةِ التي دَعا إليها المنحرفونَ عن الخطِّ الإلهيِّ

والمُتستِّرونَ بأنبياءِ الله -تعالى- – اسمًا ومنهاجًا - لا علاقةَ لها بالمَنهجِ الإلهيِّ ولا بالرِّسالاتِ السَّماويّةِ تحتَ أيِّ شعارٍ كانَت، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٦].

إنَّ الحركاتِ المُنحرفةَ عبرَ التّاريخِ إلى يَومِنا هذا، والتي تتلفَّعُ بالعناوينِ والأقنعةِ الإصلاحيّةِ، لا قيمةَ لها ولا علاقةَ لها بالخطِّ القويمِ وبالدِّينِ الحقِّ الجامعِ لكلِّ الحركاتِ الدَّعويّةِ الرِّساليّةِ الإلهيّةِ عبرَ العصورِ؛ وكم تُطالعُنا اليومَ هذه الحركاتُ المُنحرفةُ بأسماءَ مُستحدَثةٍ تَهدفُ إلى ضربِ الفكرِ في الصَّميمِ، والقضاءِ على المنهجِ الإلهيِّ بمناهجَ شيطانيّةٍ تَرفعُ أسماءَ الأنبياءِ وتَستغلُّها في حركةٍ بهلوانيّةٍ تُصرَفُ عليها الأموالُ الطّائلةُ التي تتفنَّنُ في شراءِ الدُّولِ والحُكّامِ والسّاسةِ والمَسؤولينَ والإعلامِ والذِّمَمِ والعَمائمِ والشَّخصياتِ... لتُحاربَ كلَّ مَن يقفُ في وجهِ هذا المشروعِ الجهنَّميِّ الإبليسيِّ، القائمِ على الفسادِ والانحرافِ والخنوعِ والرَّذيلةِ والإجرامِ والقَتلِ والإبادةِ الجماعيّةِ والتَّطهيرِ العرقيِّ لكلِّ مَن يتصدَّى لهذا المشروعِ السّاقطِ، ولو كان شعبًا أو أمّةً...

ويُؤكِّدُ القرآنُ هذه الحقيقةَ التي يَعمد المنحرفونَ إلى تَزويرِها عبرَ العصورِ والدُّهورِ، فاتحًا كلَّ الكتبِ والدَّفاترِ التي تَخطُّ مناهجَ الضَّلالِ من قَبلِ أن تَبدأَ مراحلُ جديدةٌ من التَّغييرِ المُمَنْهَجِ والتَّزويرِ الفاضحِ، ليُعْلِنَ للأجيالِ قاطبةً أنَّ التلطّي خلفَ أسماءِ الأنبياءِ لا يَزيدُ هؤلاءِ الضّالّينَ إلا ضَلالًا وكفرًا وانحرافًا: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧ - ٦٨].

فمَن دَعا إلى اليهوديّةِ أو النَّصرانيّةِ، التي تَنغلقُ على نفسِها، وتَدعو إلى قتلِ مَن يَختلفُ معَ مُستجدَّاتِها المُخترعةِ وزياداتِها المُبتدَعةِ التي سطَّرَها المُتاجرونَ باسمِ الأنبياءِ، ثم تَنسفُ الحقائقَ التي جاءَ بها (مُوسى كليمُ اللهِ) وكلُّ أنبياءِ بَني إسرائيلَ الذينَ سَبقوهُ أو الذينَ جاؤُوا بعدَه، لتحاربَ (النبيَّ الخاتمَ) بُشرى المُرسَلينَ ورحمةَ اللهِ -تعالى- للعالمينَ، فليسَ بتابعٍ لـ(مُوسى) ولا مُؤمنًا

بـ(عيسى)، كما أنَّه بَريءٌ من توراة (مُوسى) وإنجيلِ (عيسى)؛ فكيفَ بمَن نسفَ كلَّ القِيَمِ والمَبادئِ والأخلاق والأعرافِ والإنسانيّةِ والإيمانِ والرِّسالاتِ، ثم دَعا إلى دينٍ إبراهيميٍّ جديدٍ مُخترَعٍ، هو خليطٌ من قذاراتِ المُنحرفينَ، والقَتَلةِ والمُجرمينَ، ومُبيدي الشُّعوبِ، ومُحتلِّي الأوطانِ، ومُرتكبي أبشعِ المَجازرِ في تاريخ البشريّةِ، وصانعي آلاتِ القتلِ والدَّمارِ، وناشري المُجونِ والفسادِ والانحلالِ، ممَّن يُهيمنُونَ على العالَمِ ومُقدَّراته، ويَتحكَّمونَ بدُوَلِه وحكوماتِها واقتصاداتِها ومناهجِها التَّربويّةِ والتَّعليميّةِ والسِّياسيّةِ والإعلاميّة...؟!

ولئلاّ يَنجرفَ المسلمونَ الملتزمونَ بمنهاجِ أنبياءِ الله -تعالى- خلفَ أيِّ شعارٍ من الشِّعاراتِ المُضلّة، تحتَ أيِّ ظرفٍ من الظُّروف، ولأيِّ سببٍ من الأسباب، أمرَ الله -تعالى- نبيَّه بالإعلانِ عن المنهجِ الجامعِ لكلِّ الأنبياءِ والرِّسالات فقال: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣].

إنَّ المتأمِّل في هذا البيانِ والتِّبيانِ يَعرف يَقينًا أنَّ القرآنَ أراد إقامةَ الحجّةِ على العبادِ جميعِهم: علماءَ وعامّةً وحُكامٍ ومَحكومينَ...، فإذا التزموا بالخطِّ الإلهيِّ كانوا مسلمينَ، وإن لم يَفعلوا كانوا على النَّقيضِ من الإسلامِ والحقِّ والهداية... فالإسلامُ هو جوهرُ الملّةِ الإبراهيميّة، وكلِّ الرِّسالاتِ التي بَعث الله -تعالى- بها رسلَه قبلَ (إبراهيمَ) وبعدَه؛ إذ دعَت إلى هذا الجَوهرِ.

وبما أنَّ الإسلامَ هو الهدفُ الأساسُ، وهو الضّامنُ للأمنِ بكلِّ عناوينه... لذا كان لا بدَّ من إقامة بنيانٍ وتَعبيدِ طريقٍ لهذا البنيانِ يكونُ مؤشِّرًا على الطَّريقةِ الواجبِ اتباعُها والتَّضحيةُ من أجلها، وهنا لا بدَّ من الإضاءة على المَحطّاتِ المُتدرِّجةِ التي أرشدَ القرآنُ إلى أهمِّيتِها في تحقيق الأمنِ الفكريِّ في الأ

ثانيا: الكعبةُ المُشرَّفةُ مَظهرُ الأمنِ المكانيِّ ومُستلزماته

يَذكر اللهُ -تعالى- في كتابه قصّةَ (إبراهيمَ) عليه السلام مع بناءِ الكعبةِ التي عفَت آثارُها بعد طوفانِ (نوحٍ)

ﷺ، مُسلِّطًا الأضواءَ على محطاتٍ وعبرَ تَستوقفُ المُتدبِّرينَ والمُتأمِّلينَ وتُحدِّدُ مُستلزماتِ الأمن الفكريِّ بوضوحٍ وجلاءٍ لا نظيرَ له، نُلخِّصُها بما يأتي:

أ - نبيُّ الله (إبراهيمُ) وقيادةُ الفكرِ الآمنِ

لماذا يُعرِّجُ القرآنُ إلى مسألة الاختبارِ لقادةِ الفكرِ بالرَّغمِ من أنَّهم أنبياءُ ومُرسَلونَ من قبلِ الحديثِ عن كيفيّةِ بناءِ مُجتمعاتٍ آمنةٍ؟

لعلَّ القصّةَ تَبدأُ باختبار الله -تعالى- نَبيَّهُ (إبراهيمَ) مُرشِدًا الخلقَ إلى أنَّ نجاحَ قادةِ الفكرِ النَّيِّرِ في المجتمعاتِ الإنسانيّةِ لا بدَّ من تعرُّضه لهزّاتٍ وامتحاناتٍ واختباراتٍ من قَبْل التصدِّي للمُهمّةِ التي تُوكَلُ إليهم؛ وما ذاكَ إلا لأنَّ الفكرَ من أخطر القَضايا التي تَحملُها البشريّةُ في مراحلِها كافةً، فبالفكرِ صَلاحُ العقولِ أو فسادُها، وبصلاحِها صلاحُ الفردِ والمُجتمعاتِ والبلدان، وبفسادِها فسادُها، وبانهيارِه انهيارُها، وبدَمارِه دمارُها... ومن أجل ذلك كان أمرُ الله -تعالى- أنَّ الذي يَخصُّهُ الحقُّ بالإمامةِ والقيادةِ الإلهيّةِ، التي تُصلِحُ المجتمعاتِ، لا بدَّ من أن يكونَ أهلاً للمَسؤوليّةِ، لا يَضعفُ أمامَ المَصاعبِ، ولا تُوقِفُه العَوائقُ، ولا تُزعزِعُه الحوادثُ، ولا تُخيفُه قُوى الظُّلمِ واجتماعُها عليه، فلو أنَّ إنسانًا مُنحرفًا كان من ذرّيةِ (إبراهيمَ) والأنبياءِ من بعده فإنَّه لا يَصلحُ للإمامةِ الإلهيّةِ طالما انغمسَ في الظُّلمِ والابتعادِ عن الخطِّ القَويمِ؛ تُلخِّصُ آيةُ الابتلاءِ هذه المَعانيَ بلمحةٍ تُعدُّ من أروعِ اللَّمحاتِ المُوجِّهةِ نحوَ الاستقامةِ والمَعرِّفةِ بصفاتِ القائدِ الذي يُلائمُ المَراحلَ جميعَها؛ قال -تعالى-: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤].

لقد امتحنَ اللهُ -تعالى- (إبراهيمَ) واختبرَهُ في أعقدِ الأمورِ وأدقِّها، فلم يكنْ إلا مثالَ العبدِ والوالدِ والزَّوجِ والمُوجِّهِ والدّاعيةِ والقائدِ والرَّسولِ الثابتِ على الفكرِ الذي اختطَّتْه السَّماءُ لأهلِ الأرض، ومَن يتتبَّعْ سيرتَه المُباركةَ سيَكتشفُ جُملةً من الصِّعابِ التي لا تَثبتُ أمامَها الجبالُ الرّاسياتُ، حيثُ امتُحن بها (إبراهيمُ) ﷺ، فثَبتَ من دون أن يَرِفَّ له جَفنٌ أو تَهتزَّ له عزيمةٌ، وما أعجبَ تَحدِّيَه

لشياطينِ الإنسِ والجنِّ منذُ نشأته، وصمودَه الكبيرَ في قلب النِّيران، هذا الصُّمودُ الذي أثارَ إعجابَ نمرودَ الطّاغيةِ نفسِه؛ حيث راح يُردِّدُ دونَ وعي: «مَنِ اتَّخَذَ إِلهًا فَلْيَتَّخِذْ إِلهاً مِثْلَ إِلهِ إِبْرَاهِيمَ»[1].

ب - جهودُ (إبراهيمَ) عليه السلام في بناء البيتِ الآمنِ وحقيقةُ التوجُّه إليه

البيتُ رمزٌ للمكان الأوَّلِ الذي اختارَه اللهُ -تعالى- ليكون الأنموذجَ الأسمى الذي يَحتذيه الخلقُ في كلِّ مكان يَرحلونَ إليه، والأعظَمُ من ذلك أنَّه نَسَبَه إلى نفسه نسبةَ تعظيم، فجعلَه مَوطنًا مُقدَّسًا في كلِّ أبعادِه الرُّوحيّة والدِّينيّة والعَقديّة والدُّنيويّة والأُخرويّة، وكلَّما اقتربَت الأمكنةُ من طبيعة هذا البيتِ طهارةً ونقاءً - متى ارتحلَ الإنسانُ إليها حاملاً معَه روحيّةَ البيتِ العَتيق - كانَت المثالَ الذي يُحتذى والأرضيّةَ الصّالحةَ لبناء مُجتمعاتٍ نقيّةٍ فكرًا وصَلاحًا، قادرةً على الإصلاحِ وخَوضِ مَعاركه التي لا تَنتهي إلا بانتهاءِ الحياةِ وقيامِ السّاعة؛ قال -تعالى-: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج: ٢٦].

ونلحظُ أنَّ القرآنَ حدَّدَ الكعبةَ لتكونَ المَعلَمَ الأوحَدَ الذي تتَّجهُ إليه الأفئدةُ من كلِّ أصقاعِ الأرضِ؛ فمِن قوله "بوَّأنا"؛ "أي: أظهَرْنا وحدَّدْنا المكانَ، وهو الذي سيَبني فيه سيِّدُنا إبراهيمُ بالأحجارِ ليُبرِزَ البيتَ؛ فالبيتُ - إذنْ - كان مَوجودًا من قَبلُ"[2].

وإذا كان اللهُ قد بَوَّأَ لـ(إبراهيمَ) مكانَ البيتِ، أي: جعلَه مَباءةً ومَرجعًا له، يَرجعُ إليه ويَقصدُه... فإنَّ تَبوئتَه -تعالى- مكانَ البيتِ لـ(إبراهيمَ) عليه السلام هي جَعْلُ مكانه مَباءَةً ومَرْجعًا لعبادته، لا لأنْ يتَّخذَه بيتَ سُكْنى يَسْكُنُ فيه[3]، وإنمَّا هو سُكْنى للقلوبِ الطّاهرةِ وائتلافِها وتَلاقيها وتَعارُفِها وتَوادِّها، كما أنَّه المكانُ الذي سدَّدَ إليه نبيَّهُ ليَجمَعَ البشرَ على توحيد الله -تعالى- الخالقِ الحقِّ وعدمِ الإشراكِ معَه أحدًا غيرَه؛ ولذا قيلَ في معنى بَوَّأَ: بوَّأْتُهُ مَنزلاً، إذا أسكنتُهُ إيّاهُ؛ وبَوَّأْتُ الرُّمحَ نحوَه، إذا سَدَّدْتُهُ نحوَه[4].

١ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، ج١ ص٣٨٧.
٢ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي خواطر، ج٨ ص٤٩٣٨.
٣ - محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٤ ص٣٦٤.
٤ - أحمد ابن فارس، معجم مقاييس اللغة؛ مادة (بوأ).

وكما أنَّ المؤمنينَ جميعَهم أينَما كانوا يتَّجهونَ في صَلواتِهم يوميًّا إلى جهةِ الكعبةِ فإنَّ "المساجدَ المُنتشرةَ في الأرضِ لا بدَّ أن يكونَ لها مُتَّجَهٌ واحدٌ، لإلهٍ واحدٍ، لذا حدَّدَ الحقُّ هذا المكانَ بالقِبلةِ إلى الكَعبة" [1].

بهذه الطَّريقةِ تَجتمعُ الأجسادُ في بيتِ الله -تعالى- حولَ كعبتِه التي ارتضاها مَعْلَمًا يَجمعُ النّاسَ على اختلافِ بيئاتِهم، ومَوطِنًا مُطهَّرًا يَصهرُهُم في بَوتقةٍ نقيّةٍ تصقلُ عقولَهم وقلوبَهم ونفوسَهم، وتَجلو عن أفكارِهم كلَّ صَدأٍ؛ وكما تَجتمعُ أجسادُهُم عن قربٍ، كذا فإنَّ أرواحَهُم تَجتمعُ مَهما كانوا بَعيدينَ بحيثُ يكونونَ جسدًا واحدًا يتأثَّرُ كلُّه بما يُصيبُ بعضَه مصداقًا لقول (النبيِّ الأكرم) ﷺ «مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ إذا اشتَكى مِنهُ عُضوٌ تَداعَى لَهُ سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى»[2] .

هذه الحكمةُ الإلهيّةُ من اختيار مكّةَ المُعظَّمةَ، وتوجُّه البشرِ إلى كعبتِها على مَدارِ اليومِ والنَّهارِ، لا تُؤتي ثمارَها إذا لم يتحرَّكِ المؤمنونَ في كلِّ بقعةٍ من بقاعِ المَعمورةِ لأجلِ إخوانِهم متى تعرَّضوا لظُلمٍ أو لعدوانٍ، فإذا تعرَّضَ وطنٌ من أوطانِ المُسلمينَ وبُقعةٌ من بقاعِه لاحتلالٍ وعدوانٍ وظُلمٍ وقَتلٍ، ثم لم يتحرَّكِ المؤمنونَ الذين يُشاركونَ إخوانَهم قِبلتَهم وكعبتَهم، فإنَّ الغايةَ من التوجُّه إلى الكعبةِ المُشرَّفةِ سيَكونُ مَفقودًا أو مُنعدمًا، لذا تَحتَّمَ على المؤمنينَ الاستفادةُ من عُمقِ الخِطابِ القرآنيِّ ومَعرفةِ الأبعادِ والمَقاصِد، وإلا كانَت عباداتُهم عاداتٍ وحركاتٍ خاويةً من رُوحِها.

إنَّ الواقعَ الذي تَعيشُه الأمّةُ في ظلِّ العدوانِ الصهيونيِّ والأمريكيِّ والغربيِّ بشكلٍ عامٍّ، وحالةَ الخنوعِ التي تتخبَّطُ فيها الحكوماتُ العربيّةُ والإسلاميّةُ، ليُثبتان لنا يَوميًّا أنَّ المكانَ الجامعَ المختارَ من قِبلِ الخالقِ، ليكونَ قِبلةَ الأمّةِ، ما هو إلا مقدِّمةٌ رمزيّةٌ لا بدَّ منها، وهذا المكانُ رغم قداستِه العَظيمةِ ستَنتفي ريادتُه إذا لم يتحصَّنْ أبناءُ هذه الأمّةِ بمَضامينِ الكتابِ المُنزَلِ من قِبَلِ ربِّ البيتِ، الذي أمرَ المؤمنينَ بالتوجُّه إلى البيتِ الحَرامِ، وهو ما يُؤكِّدُ على أنَّ المكانَ وحدَه مَهما كان مُقدَّسًا

١ - محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي خواطر، ج٨ ص٤٩٣٨.

٢ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، ح: ٢٥٨٦/٦٦، والمسند، هو الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ.

فإنَّه لا يمُكنُ أن يُورِّثَ المؤمنينَ القداسةَ إذا لم يَستلهموا القداسةَ فكرًا ليُترجموهُ عملاً وتضحيةً وإباءً وعزةً وجهادًا ضدَّ الأعداءِ والغُزاةِ، ووَحدةً تُبْذَلُ مِنْ أجلها الأموالُ والنُّفوسُ مهما تَبَاعَدَتْ أوطانُهم وتبايَنَتْ لُغاتُهم واختلفتْ مذاهبُهم... فوحدتُهم تتجلَّى مع كلِّ نَفَسٍ من الأنفاس الطّاهرةِ التي تتَّجهُ نحوَ الكعبةِ الطّاهرةِ؛ بحيثُ تَهُبُّ الأمَّةُ كلُّ الأُمَّةِ مُعْلِنَةً النَّفيرَ العامَّ متى داهمَ أدنى خطرٍ أيَّ مُؤمنٍ سواءٌ أكان قريبًا أم بَعيدًا.

ثالثًا: الأمن القوميُّ وأثرُه في صناعة الفكرِ الآمنِ من خلال قصّةِ (إبراهيمَ) عليه السلام

لئنْ أرشَدَ القرآنُ الكريمُ إلى قضيّةِ تَطهيرِ البَيتِ والمكانِ الذي يتوجَّهُ إليه أبناءُ الأمّةِ لتَنعكسَ طهارتُه وقداستُه على نفوسِهم مُنضوينَ تحتَ مظلّةِ أنواره التي تَجمعُهم على امتداد مساحة الأرضِ، فقد ركَّزَ على الهدفِ الأسمى من اختيارِ الكعبةِ المُشرَّفةِ فقال: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلى**﴾ [البقرة: ١٢٥].

هذه الآيةُ تُحَدِّدُ للأمَّةِ الطَّريقَ الذي يَقودُها إلى الغايةِ الكُبرى التي يَسعى إليها عُقلاءُ البشرِ من دون استثناء، وذلك من خلال ثلاثةِ أمورٍ، هي: الجَعْليَّةُ المكانيّةُ، والثَّباتُ الذي يَنعكسُ على نفوسِهم، وشبكةُ الأمانِ العالميّةُ التي تَحفظُ وجودَهُم. أمّا الضَّمانةُ التي تَحفظُ ذلك كلَّه فهي انقيادُ المؤمنينَ كافّةً نحوَ الخطِّ والمَشروعِ الإسلاميِّ الذي خطَّه نبيُّ الله (إبراهيمُ) عليه السلام؛ ولذا كانَ لا بدَّ من الإضاءةِ على موضوعاتِ هذه الآيةِ ومُفرداتِها وصولاً إلى أهدافها.

جاءَ في معنى المَثابةِ أقوالٌ كثيرةٌ منها:

قال (ابنُ عبّاسٍ): يَعني: مَعاذًا ومَلجأً[١]. وقال (سعيدُ بنُ جُبير) و(مجاهدٌ) و(الضَّحاكُ): يَثوبونَ إليهِ من كلِّ جانبٍ ويَحجُّونَ ولا يَملُّونَ منه، فما من أحدٍ قصدَه إلا وهو يتمنَّى العَودَ إليهِ[٢].

١ - أحمد بن محمد الثعلبي، تفسير التعلبي: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤، ص ٨٥.
٢ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤ ص٨٥.

وقالَ (ابنُ زَيدٍ): يَثُوبُونَ إلَيهِ مِنَ البُلدانِ كُلِّها ويأتُونَهُ[١] .

وقال (ابنُ أبي لُبابةَ): لا يَنصَرِفُ عَنهُ مُنصَرِفٌ، وهوَ يَرى أنَّهُ قَد قَضَى مِنهُ وَطَرًا [٢] .

وقال (قتادةُ) و(عِكرمةُ): مَجمَعًا[٣] .

وجَعْلُهُ مثابةً أي: مَرجِعًا؛ والمَثابُ والمَثابةُ واحدٌ كالمَقامِ والمَقامةِ[٤].

والمَثابةُ: المَوضعُ الذي يَثوبُ إليهِ النّاسُ. أي: مُجتَمَعًا بعدَ التفرُّقِ[٥].

والمَثابةُ: مَحلُّ عَودٍ[٦]؛ أي: جعلَه مَعادًا لهم، يَعودونَ إليهِ مرّةً بعدَ مرّةٍ[٧].

والمَثابةُ من الثَّوب، أي: عَودةِ الشَّيءِ إلى حالتِه الأُولى. ولَمّا كانَتِ الكعبةُ مَركزًا يتَّجهُ إليهِ المُوحِّدونَ للحجِّ كلَّ عامٍ، فهي محلٌّ لعودةٍ جِسميّةٍ ورُوحيّةٍ إلى التَّوحيدِ والفِطرةِ الأُولى، ومن هنا كانَت مَثابةً[٨].

وكلمةُ «مَثابةً» تتضمَّنُ معنى الرّاحةِ والاستقرارِ؛ لأنَّ بيتَ الإنسانِ - وهو محلُّ عَودتِه الدّائمُ - مكانٌ للرّاحةِ والاستقرارِ، وهذا المَعنى تُؤكِّدُه كلمةُ «أَمْنًا» التي تَلي كلمةَ «مَثابةً» في الآيةِ. وكلمةُ «لِلنَّاسِ» تُوضِّحُ أنَّه مَلجأٌ عامٌّ لكلِّ العالَمينَ، ولكلِّ الشُّعوبِ المَحرومةِ[٩].

من خلالِ أقوالِ المُفسِّرينَ، التي استعرضناها، وما تَحمِلُه كلمةُ «مثابة» في هذا السِّياقِ القرآنيِّ،

١ - إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، ج١ ص٢٩٠.
٢ - إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، ج١، ص ٢٩٠.
٣ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤ ص ٨٥.
٤ - أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج٤، ص ٨٥.
٥ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص ٣٨٤.
٦ - محمد محسن الفيض الكاشاني، التفسير الآصفى، ج١، ص ٧٦.
٧ - نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، ج١، ص ٩١.
٨ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ الْمُنزَل، ج١ ص٣٧٧.
٩ - نَاصِر مَكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ الْمُنزَل، ج١ ص٣٧٧.

يَتبيَّنُ لنا أنَّ لاختيار هذه المُفردةِ أبعادًا كثيرةً تَحملُها حَملاً مُعجزًا متى تأمَّلْنا سياقَها مُتدبِّرينَ، قَصْدَ الوصولِ إلى مَعانيها العَميقة.

فإذا كانَ البيتُ مَعاذًا ومَلجأً يَلجأُ إليه الخائفونَ، أو مَوئلاً يَقصِدُه الحاجُّونَ فيَثوبونَ إليه من كلِّ جانبٍ، يَطوفونَ ويتعبَّدونَ ولا يَملُّونَ منه، بحيث لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ مُنْصَرِفٌ على مدار السّاعة، أو مَجمعًا ومَرجعًا ومَعادًا يَجتمعونَ فيه بعدَ التفرُّق... فإنَّ اللهَ -تعالى- جعلَ كعبتَه مَحلاً لعَودة جسميّة ورُوحيّة إلى التَّوحيدِ والفطرة الأُولى التي فطرَ اللهُ -تعالى- النّاسَ عليها؛ على أنَّ هذه المَثابةَ تتضمَّنُ مَعنى الرّاحةِ والاستقرارِ لكلِّ المَحرومينَ في العالَم.

من خلال هذه المَعاني نَستطيعُ التَّحليقَ في أبعاد الآياتِ التي تُؤكِّدُ أنَّ اللهَ -تعالى- هو الذي جعلَ بيتَه مَلاذًا جسميًّا ورُوحيًّا تَجتمعُ عليه العقولُ والقلوبُ والأرواحُ، وتتوحَّدُ مَهما تباعدَتْ جاهدةً في سبيل تأمينِ الرّاحةِ والاستقرارِ والأمنِ الذي هو مَطلبُ كلِّ إنسانٍ على وجهِ الأرضِ؛ وإذا تحقَّقَ الأمنُ بكلِّ أبعادِه الجسمانيّةِ والرُّوحيّةِ والنَّفسيّةِ والمَعيشيّةِ والاقتصاديّةِ في البلادِ أثمرَ أرضيّةً قادرةً على استلهامِ الفكرِ الآمنِ من مَنهجِ نبيِّ اللهِ (إبراهيمَ)، ليتَّخذَ المُؤمنونَ من المَقامِ الذي وقفَ فيه (إبراهيمُ) - مُمتَثلاً أمرَ ربِّه - مَكانًا للصَّلاةِ التي هي صلةٌ بينَ العبدِ وربِّه؛ وهذا يَعني أنَّ العقلَ يكونُ مُستعدًّا لاستقبالِ الحقائقِ والعَقائدِ الصَّحيحةِ والأفكارِ البنّاءةِ متى نَعِمَ ببَلَدٍ آمنٍ مُسْتَقِرٍّ تَسودُه العَدالةُ.

رابعًا: الدَّعوةُ إلى تحقيق الأمن الفكريِّ عبوديَّةً وتضحيةً وتَعقُّلا

عندَ مُطالعةِ السِّيرةِ الإبراهيميّةِ في القرآن الكريمِ يَتساءَلُ القارئُ:

ما الحِكمةُ من وُقوفِ المؤمنينَ موقفَ (إبراهيمَ) عليه السلام ومَقامَه مُتَّخذينَ منه مُصلًّى؟!

ولماذا يَقفونَ موقفَه دونَ مَوقفِ غيرِه من الأنبياءِ؟

أولًا: عندَ التبصُّرِ بهذه القضيّةِ بغيةَ استلهامِ الحِكمةِ من اختيارِ الحقِّ للشَّخصيّةِ المُقدَّسةِ وللمكانِ

المُقدَّس، سنقعُ لا محالةَ على حِكَمٍ جَليلةٍ من الهدفِ الحَقيقيِّ الأسمى لهذا الاختيار، ولئنْ شرعْنا في اقتفاءِ أثرِ هذه الشَّخصيّةِ المُباركةِ فإنَّنا سنَجدُ أنَّ نبيَّ اللهِ (إبراهيمَ) عليه السلام هو أبو الأنبياءِ، ومن ذُرِّيته النبيُّ المَوعودُ الذي تُختَمُ به الرِّسالاتُ، فعندَ (إبراهيمَ) عليه السلام اجتمعَت النُّبوّاتُ، ومنه تسلسَلَتْ حاملةً فكرًا واحدًا لا يتغيرُّ ولا يَتبدَّلُ مَهما تعاقبَ الأنبياءُ وتباعدَتِ المَواطنُ التي تكونُ مَهدًا لرسالاتِهم.

هذا الفكرُ عبرَّ عنه (إبراهيمُ) و(إسماعيلُ) عليهما السلام ساعةَ عَملا على رفعِ قواعدِ الكعبةِ بقَصدِ رفعِ مُستوى العقلِ البشريِّ فكريًّا على أُسٍّ عقديٍّ ثابتٍ لا يَتزعزَعُ، يَبدأُ بالتوجُّهِ الكاملِ لله تعالى، وبالتَّذلُّلِ التامِّ لعَظمته، وبالوقوفِ على أعتابِ بيتِه الحرامِ، ومن أجلِ ذلك كان دعاؤُهما الذي رافقَ رفعَ البيتِ ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٨].

على أنَّ قمَّةَ التَّذَلُّلِ والانقيادِ والعبوديّةِ للحقِّ سبحانَه، كلَّ هذه العناوينِ، ما كانَ أبو الأنبياءِ ليَقصدَ توقُّفَها عندَه ويَحتكرَ أثرَها من دونِ أن تكونَ مَعلَمَ هدايةٍ يَلجأ إلى كنفِها كلُّ إنسانٍ يَعيشُ على وجهِ المَعمورةِ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ولذا كان الإسلامُ هو الجامعَ المُشتركَ بينَ كلِّ الأنبياءِ السّابقينَ له والآتينَ بعدَه، ومن أجلِ ذلكَ كان التأكيدُ على الإسلامِ عَقيدةً وفِكرًا ومُمارسةً ودينًا لا يَقبلُ أبو الأنبياءِ باستبدالِ غيرِه به تحتَ أيِّ ظرفٍ من الظُّروف، وفي أيِّ زمنٍ من الأزمنة، وتحتَ أيِّ شعارٍ من الشِّعاراتِ التي يُمكنُ أن يَرفعَها أعداءُ الأنبياءِ مُتَّخذينَ من اسمِ «إبراهيمَ عليه السلام» والإبراهيميّةِ ستارًا أَبَى اللهُ إلا أن يَفضحَهُم من قبلِ أن يَستغلُّوهُ على لسانِ نبيِّه الكريم، فها هو صوتُه وصوتُ وَلده (إسماعيلَ) عليه السلام يُتبعانِ الدُّعاءَ الأوَّلَ بنداءٍ ثانٍ قائلَيْنِ: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة:١٢٨ - ١٢٩].

واستجابَ الحقُّ دعاءَ هذَين النَّبيَّينِ الكريمَين؛ إذ بعثَ -سبحانه- من ذرِّيتهما نبيَّ آخرِ الزَّمان، يَتلو على النّاسِ آياتِ الله -تعالى-، ويُعلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ ويُزكِّيهم.. وفي ذلك يقولُ (النبيُّ الأكرمُ) صلى الله عليه وآله وسلم: «إنيِّ عندَ اللهِ مَكتوبٌ بخاتَمِ النَّبيِّينَ، وإنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِه، وسأُخبرُكُم بأوَّلِ ذلك: دَعوةُ أبي إبراهيمَ،

وبِشارةُ عيسى، ورُؤيا أمِّي الَّتي رأَتْ حينَ وضَعَتْني أنَّه خرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لها منهُ قصورُ الشَّامِ»[1].

ثانيًا: إنَّ اختيارَ الحقِّ لأبي الأنبياءِ هو اختيارٌ يُدلِّلُ على عَظيمِ حكمةِ الخالقِ الحَكيمِ الخَبيرِ سبحانه، فسِيرةُ (إبراهيمَ) مدرسةٌ عظيمةٌ للسّالكينَ طريقَ العَقلِ والنُّورِ، المُستسلمينَ لقوّةِ الله -تعالى- ولدِينه ولعَظمته؛ سِيرةٌ مُفعمةٌ بكلِّ أنواعِ الصَّبرِ والتَّحدِّياتِ والوقوفِ بوجهِ قوى الظُّلمِ والظَّلامِ منذُ نشأته داعيًا إلى الإسلامِ - دينِ الله -تعالى- مُكسِّرًا الصَّنميّاتِ البَشريّةَ والحَجريّةَ، المادِّيةَ والمَعنويّةَ في كلِّ أبعادِها، مؤكِّدًا على الاستسلامِ المُطلَقِ للرَّبِّ الواحدِ المُستحِقِّ للعُبوديّةِ، غيرَ آبهٍ بعاداتِ المُجتمعِ وباعتقاداتِه المُتوارَثةِ، مُستعدًّا لِلتَّضحيةِ بنفسِه ورُوحِه في سبيلِ هدايةِ الخَلقِ الذين أبَوا إلا أن يُعَطِّلوا عقولَهم ويَنتقمُوا ممَّن أرادَ خيرَهم: **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾** [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩].

لقد رفضَ (إبراهيمُ) عليه السلام، وهو لا يزالُ فَتيًّا، أن يُضحِّيَ بالفكرِ الذي يَضمَنُ أمنَ العبادِ، ويُحافظُ على وجودِهم وحقوقِهم وكراماتِهم ومصالحِهم، مُقَوِّمًا مَسيرتَهم التي تَقودُهم إلى سعادةِ الدّارَينِ، حتى لو أزهَقُوا رُوحَه بجَهلِهم وضَلالِهم المُتوارَثِ.

وكما وقفَ في وجهِ قومِه فَتيًّا، وقفَ مُعَلِّمًا ومُوجِّهًا بحكمةٍ مُتناهيةٍ أقوامًا يَعبدونَ آلهةً مُتعدِّدةً، منهم مَن يَعبدُ النُّجومَ، ومنهم مَن يَعبُدُ القمرَ، ومنهم مَن يَعبدُ الشَّمسَ، يُحاجُّهُم بالفكرِ مُقدِّمًا الأدلّةَ والبَراهينَ على وحدانيّةِ الله تعالى، الذي لا نظيرَ له ولا شبيهَ ولا مَثيلَ، وفي ذلك يقول -تعالى-: **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾** [الأنعام:٨٣].

فمَن هو (إبراهيمُ) إذنْ؟

إنَّه وارثُ الأنبياءِ، وإمامُ مَن آمنوا بالله -تعالى- إيمانًا لا تَشوبُه شائبةُ شركٍ أو ظُلمٍ أو عُدوانٍ؛ إذ كانوا أئمّةَ الفكرِ النَّقيِّ الصافي الذي يُحقِّقُ أمنَ البشريّةِ منذُ بداياتِها إلى نهايتِها **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ**

١ - محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص ٦٥٦، ح ٤١٧٤. وقال عنه: صحيح الإسناد.

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثالثًا: لقد تجلَّت الحكمةُ الإبراهيميّةُ في تَحفيزِ العُقولِ الضّالّة أو المُضلَّلة، وذلك من خلال حواراته مع بني قومه منذُ نشأته؛ حيثُ كسرَ أصنامًا حجريّةً يُقدِّسُها مجتمعٌ يَعتقدُ أبناؤُه أنَّهم سائرونَ في طريقٍ صحيحٍ قَويمٍ، أمّا دليلُهم على صحّةِ عبادتِهم للأصنامِ فهو أنَّهم وجدوا آباءَهُم عابدينَ راكعينَ ساجدينَ لها.

وما يَعجبُ له الإنسانُ أن يَقِفَ (إبراهيمُ) وحدَه مُواجهًا أمّةَ الكفرِ التي توارثَتْ عبادةَ الأصنامِ، مُقَلِّدَةً مَنْ سبقَها تقليدًا أعمى يمَنعُها من التَّفكيرِ، ويَسيرُ بها في طرقٍ مُظلمةٍ تُعَطِّلُ الآلةَ العاقلةَ التي بها كرامةُ الإنسانِ ورفعتُه وسعادتُه وأمنُه، فكان (إبراهيمُ) في صمودِه وفكرِه وثَباته وعدمِ تَنازُلِه عن عَقيدته ووقوفِه وحدَه أُمَّةً يَقِفُ في وَجْهِ أمّةٍ، ولم تمَنعْهُ القوى المُتجبِّرةُ حولَه من كسرِ العاداتِ والتَّقليدِ الأعمى القائمِ على مُجاراةِ المُتوارَثِ من دونِ إعمالِ فِكرٍ.

وعندَما سألَه قومُه عمَّن أهانَ أصنامَهم، ما كان منه إلا أن أشارَ إلى كبيرِ الأصنامِ، مُشدِّدًا على ضرورةِ استنطاقِها لتُخبرَهُم بالحَقيقة. ﴿**قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾** [الأنبياء: ٦٣ - ٦٤ – ٦٥ - ٦٦].

هذا الحوارُ حملَهم على الاعترافِ – في قرارةِ نفوسِهم - بالحقيقةِ التي لا يَختلفُ عليها مُفكِّران اثنان، والقاضيةِ بأنَّ الأصنامَ التي يَعبدونَها لا تَنطِقُ ولا تَنفعُ ولا تضرُّ، فتنبَّهوا من غَفلتهم، وإذا بالحجّةِ التي لهم باتَت عليهم، ليُعاودُوا الدِّفاعَ عن أصنامِهم مُجدَّدًا مُحتجِّينَ على فعلِ (إبراهيمَ) بأنَّه كان يَعلم أنَّ الأصنامَ لا تَنطقُ، لكنَّ الصّاعقةَ التي نزلَت على رؤوسِهم كانَت في جواب (إبراهيمَ) الذي دفعَهم إلى التعقُّل والتفكُّر بالدِّينِ الذي يَتَّبعونَه، حيثُ يَعبدونَ ما لا يَنطِقُ ولا يَعقِلُ...

وبنظرةٍ واعيةٍ نجدُ الحجّةَ العقليّةَ المَنطقيّةَ القويّةَ البيِّنةَ التي تَسلَّحَ بها (إبراهيمُ) في تَنبيهِ قومِه وتقويمِ مَسيرتهم وتَصحيحِ أفكارِهم وعَقائدِهم إنَّما أرادَ من خلالها أن يُرشِدَهُم إلى الأمنِ الفكريِّ القادرِ على المُواجهةِ والتحدِّي والصُّمودِ، وبذلك يُورِّثَهم أمنَ الدّارَينِ وسعادتَهما.

خاتمة

أضاءَ هذا البحثُ على منهج الأنبياءِ الإنسانيِّ في القرآن، من خلال إطلالة سريعة على منهجِ نبيِّ الله (إبراهيمَ) ﷺ في تعامُله مع الخَلق والخالق، وما قصّةُ (إبراهيمَ) ﷺ في القرآن إلا تلكَ التي تُؤكِّدُ على أنَّ اللهَ تعالى قد جعلَ الأمنَ ركيزةً من أعظمِ الرَّكائز التي تَقومُ عليها المُجتمعاتُ الإنسانيّةُ، وتتطلَّعُ إليها البشريّةُ عبرَ العصورِ والدُّهور؛ إذ هو الطَّريقُ الذي تَسلُكُه المُجتمعاتُ الطّامحةُ إلى التقدُّمِ والازدهارِ والرُّقيِّ في مجالاتِ الحياةِ بأجمعها. وإذا كانَت الدُّوَلُ المُتقدِّمةُ اليومَ تُولي عنايةً كبيرةً بالأمنِ، فتعملُ على توفيره لأبنائها من خلالِ التَّعاوُنِ الأمنيِّ والمُعاهداتِ والاتِّفاقيّاتِ التي تُبرِمُها الحكوماتُ فيما بينَها، فإنَّ هذه الدُّوَلَ رغمَ علوِّ كعبها في مُعظَمِ المَجالاتِ العلميّةِ والأمنيّةِ والاقتصاديّةِ والتُّكنولوجيّةِ المُعقَّدة لكنّها عملَت على تجريدِ الإنسانِ من قِيَمِه الإنسانيّةِ والخُلُقيّةِ، ثم استهدفَت القِيَمَ الدِّينيّةَ - بحُجّةِ تعارُضِ الدِّينِ معَ العلمِ والتقدُّمِ.. - والتي تُفرِغُ الإنسانَ من حقيقتِه وجوهرِه مُحاربةً فِكرَه، ومُحوِّلةً المُجتمعاتِ إلى دُمًى يَتلاعبُ بها الأشرارُ!

هذا السُّلوكُ القذرُ الذي يتعاملُ معَ الإنسانِ تَعامُلَه مع رَقمٍ من الأرقامِ أبعدَ الأمنَ الفكريَّ عن قائمةِ اهتماماتِ الدُّولِ التي صنعَت من البشرِ آلةً تَقومُ باستخدامها في عمليّاتِ تطويرِ الصِّناعاتِ المُتقدِّمةِ والسِّباقِ في المَجالاتِ الاقتصاديّةِ والأمنيّةِ، أو حقلَ تجاربٍ تُساعِدُ على تطويرِ آلاتِ التسلُّحِ والدَّمارِ الشّاملِ...

أمّا الإسلامُ فقد أرشدَ النّاسَ إلى أنَّ الأمنَ الحقيقيَّ، الذي يضمنُ سلامةَ البشرِ ويُحافظُ على أرواحِهم ووجودِهم ومُجتمعاتِهم، ويُشرِّعُ الشَّرائعَ الكفيلةَ بحَلِّ خلافاتهم وفاقًا لمنهجِ العَدالةِ والأمانِ الضّامنِ لاستقرارهم.. هو الحاضنةُ التي لا بدَّ منها لصناعةِ الأمنِ الفكريِّ الذي يتطوَّرُ ويتقدَّمُ تقدُّمًا حَثيثًا وفاقًا لخطٍّ ربّانيٍّ قائمٍ على التَّوازنِ التّامِّ بينَ الأمنِ الظّاهريِّ والأمنِ الباطنيّ.

فالأمنُ الظّاهريُّ من المُمكنِ أن يَسودَ بالظُّلمِ والقَهرِ والتَّخويفِ والاستعبادِ، وبالقوانينِ التي تُحاسِبُ المُخطِئَ أعنفَ حسابٍ، وتُعاقِبُ الرّافضَ للظُّلمِ والثّائرَ عليه أشدَّ عقابٍ.

أمّا الأمنُ الباطنيُّ فهو ما لا يتحقَّقُ إلا في أُطرٍ قويمةٍ تَهتمُّ بالإنسانِ ظاهرًا وباطنًا، فتُحصِّنُه

تَحصينًا نفسيًّا وإيمانيًّا وسُلوكيًّا وعَقديًّا وعلميًّا؛ بحيثُ تجتمعُ مُكوِّناتُه على بناء مَنظومة فكريّة آمنة يَلتزمُ بها أهلُ الأرضِ قاطبةً، التزامًا لا يَتزعزَعُ لو تَزعزَعَتِ الجبالُ. وما التَّوجُّهُ إلى الكعبة المُشرَّفة أثناءَ الصَّلواتِ إلا بعضٌ من هذا الأمن النابع من السُّلوكِ الفرديِّ والمُجتمعيِّ والإنسانيِّ العالميِّ، الذي يَتشاركُ ويَجتمعُ على تحقُّقه أهلُ الإسلامِ في كلِّ بقاعِ الدُّنيا. لذا ركَّزَ القرآنُ على المنظوماتِ الأمنيّة الكفيلة بصناعة بيئة آمنة تَحتضنُ أمنَ الإنسانِ الفكريِّ لئلا يَؤول المجتمعُ عُرضةً لتَجاذبِ المَوتورينَ من الكَذّابينَ والأفّاكينَ والمُنافقينَ والمُنحرفينَ.

نبيُّ اللهِ (إبراهيمُ) عليه السلام الذي تلاقَت عندَه الرِّسالاتُ، واستقرَّت لتَنبعثَ من جديد، انبعاثةً يكونُ هو أصلَها، وأبًا لحامليها من أنبياءِ بَني إسرائيلَ بعدَه، هو نفسُه النبيُّ الذي اختارَ اللهُ من ذريّته (نبيَّ الإسلامِ الخاتَم)، الذي تسلسَلَ من ذريّة (إسماعيلَ) المُطهَّرة، وخرجَ من مكّةَ عندَ الكعبة الآمنة نفسها التي رفعَ بنيانَها النَّبيَّان المُباركان لتتحقَّقَ دعوتُهما: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩]، وهكذا كان (محمدٌ رسولُ الله) ﷺ آخرَ الأنبياءِ الذينَ بعثَهُم اللهُ -تعالى- ليُعلِّمَ النّاسَ الكتابَ والحكمةَ، ويُزكِّيهم فيَطوي بذلكَ أزمنةَ الجَهالاتِ، ويُجدِّدَ الرِّسالاتِ، ويَؤولَ رائدَ الحقِّ والعَدلِ والعنوانَ الأمثلَ للأمنِ الدّائمِ ومَصدره القائم إلى قيام السّاعة، مَهما افتقدَت الإنسانيّةُ أمنَها وسَلامَها في كلِّ زمان، بسبب تفشِّي الظُّلمِ واستحكامِ قبضة الظُّلّام، واستسلامِ النّاسِ لغَيرِ اللهِ ودِينه وشَريعته؛ فأكَّدَ عبرَ تَوجيهاته وتَشريعاته وتَضحياته وثَباته على أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الذي ارتضاهُ اللهُ لأنبيائه الذين أرسلَهم للبشر بدينٍ واحدٍ لا ظلمَ معَه ولا عُدوانَ ولا نفاقَ ولا غشَّ ولا خداعَ ولا مُراوغةَ ولا تردُّدَ ولا تَراجعَ عن المَبادئِ والقواعدِ والأصولِ والفروعِ والقرآنِ الحَكيم، كتابِ الله الذي خطَّ قانونًا عجزتِ البشريّةُ عن مجاراته، وستَبقى عاجزةً مهما بلغَت قُوًى واتَّسَعَت مدارِكَ وتقدَّمَتْ عُلومًا.

فمَتى ستَسعى الأمّةُ إلى الاقتداءِ بمَنهجِ أبي الأنبياءِ، الذي يُحقِّقُ الأمنَ بكلِّ أبعاده؟ ومَتى ستَعرفُ أنَّ الإسلامَ هو الحلُّ والمَخرجُ الوَحيدُ من الصِّراعاتِ والحروبِ التي تَشنُّها قوى الاستبداد على أوطانها؟ وهل ستُدركُ أنَّ وحدتَها الإسلاميّةَ والفكريّةَ هي الضَّمانةُ الكبرى في ميادينِ المُواجهةِ والصِّراعِ مع مَحاورِ الشرِّ التي لا تَملُّ ولا تكلُّ؟

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- أحمد ابن فارس، مجمل اللغة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢-١٩٨٦م.
- أحمد بن محمد الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١-٢٠٠٢م.
- إسماعيل بن عمر (ابن كثير)، تفسير القرآن العظيم، المحرر: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢-١٩٩٩م.
- محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ. الحديث للطباعة والنشر، ط٢- ١٤٢٥هـ.
- محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن. موقع الجامعة الإسلامية، (بلا تاريخ).
- محمد بن عبد الله (الحاكم النيسابوري)، المستدرك على الصحيحين تحرير: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١-١٩٩٠م.
- محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط-١٤١٧هـ.
- محمد متولي الشعراوي، تفسير الخواطر، مطابع أخبار اليوم، القاهرة، ط-١٩٩٧م.
- محمد محسن (الفيض الكاشاني)، التفسير الآصفى، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط١-١٤١٨هـ.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، (بلا تاريخ).
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل. دار الكتب الإسلامية، إيران، (بلا تاريخ).
- نصر بن محمد السمرقندي، تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، دار الكتب العلمية، بيروت، (بلا تاريخ).

دورُ العقلِ في تشخيصِ الفتنِ النَّوعيةِ وسُبلُ معالجتها في ضوءِ القرآن الكريم

◆ د. فاضل مدّب المسعودي[1]

■ **خلاصة**

العقـلُ هو الحصنُ الأوَّلُ للمُؤمنِ وغيرِ المؤمنِ، لكنَّه يتجسَّـدُ بـكلِّ مزاياهُ الحميدةِ عندَ الإنسـان المؤمنِ بربِّه؛ حيثُ يَسـتطيعُ مـن خلاله التَّمييزَ بـينَ الحقِّ والباطـلِ، وما يَندرجُ تحتَهما من الخيرِ والشرِّ، واختيارِ المواقفِ الصَّحيحةِ، بما أولاهُ اللهُ -سـبحانه- من مواهبَ وإمكانيّـاتٍ تُؤهِّلُه لذلـك. وهذا الأمرُ يتوقَّفُ عـلى تغذيةِ الفكرِ من قِبَلِ الإنسـان بالأمورِ الحَميـدةِ، فكلَّما كان البنـاءُ صَحيحًا وله مبـادئُ خُلُقيّة حَميـدةٌ، كانَت النَّتائـجُ مُتوهِّجةً صحيحةً وناصعةً كالثَّلج.

في هذه الدِّراسةِ، حاوَلْنا إثباتَ أهميّةِ العَقلِ، ودَورِه المحوريِّ في تشخيصِ الفِتنِ النَّوعيّةِ، واتِّخـاذِ القراراتِ الصّائبةِ التـي تُجنِّبُه الوقوعَ فيها ومُعالجتها، الأمرُ الذي يُسـهم في توجيهِ الإنسانِ إلى الصَّوابِ، ويَضمن له الفوزَ والنَّجاةَ في الدّارَينِ.

الكلمات المفتاحية: العقل، الفتن - الشُّعور واللا شعور - المستقلات العقلية - الفتنة الدِّينية - الفتنة الدُّنيوية - المعالجات.

1 - أستاذ الدراسات العليا في كلية الفقه، تخصص علوم القرآن والتفسير، جامعة الكوفة - العراق.

مقدِّمة

لم يكنْ خلقُ الإنسانِ على هذه البسيطة عبثًا، ولم تكنِ الغايةُ من خَلقه عبادةَ الواحد الأحد فحسب، كما هو ظاهرُ قوله -تعالى-: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنَّما كانت الغايةُ من خلقِ هذا الكائنِ، الذي زيَّنَه اللهُ -تعالى- بنعمةِ العَقلِ، وجَعلَه -العقلَ- مناطَ التَّكليفِ، أن يَرتقي به نحو الكمالِ، فهو الغايةُ الكُبرى؛ إذ تتزيَّنُ ذاتُ هذا المخلوقِ بمكارمِ الأخلاقِ، والإيمانِ باللّه الواحدِ الأحدِ، من خلال استثمارِه للعقلِ الواعي، وانتباهِه إلى خوارقِ العقلِ اللا واعي. وعكسُ ذلك صحيحٌ.

وحيثُ أنَّ اللهَ -تعالى- تعبَّدنا بالعقلِ، فلا يمُكن تحقيقُ تلك الغايةِ، أو معاقبةُ المُنكرينَ والواقفينَ أمامَها، إلّا بعدَ إيصالِ الإنذارِ، وتَبليغِ التَّبشيرِ للنّاسِ، فمن القُبحِ العقليِّ أن يكونَ هناك عقابٌ بلا بيانٍ واصلٍ. وقد تمثَّلَ هذ البيانُ بمشاريعِ الدَّعوةِ الإلهيّةِ؛ إذ بلغَت ما يقربُ من مئةٍ وأربعةٍ وعشرينَ ألفَ مشروعٍ، على عددِ مَن أُرسِلَ من الأنبياءِ والرُّسلِ إلى أُممِهم، فكان كُلُّ نبيٍّ منهم يمُثِّلُ مَشروعًا إلهيًّا، يَحملُ بيانَ الإنذارِ والتَّبشيرِ للنَّاسِ، في محاولةٍ لصناعةِ أُمّةٍ خيرِّةٍ مُطيعةٍ لله تعالى، ومُطبِّقةٍ لما جاءَ به رُسلُهُ سبحانَه؛ لغرضِ الارتقاءِ في قوسِ الصُّعودِ نحوَ السَّماءِ؛ حيثُ العالَمُ العلويُّ الكاملُ.

لكنَّ المُطَّلعَ على المشاريعِ النبويّةِ، يَجدُها لم تُحقِّقِ المُرادَ لها، ولم تَنجحْ بالمستوى المَنشودِ الذي يَنشدُه المُقنِّنُ الإسلاميُّ، بل وقفَت الأُممُ الجاهلةُ بحقيقةِ ربِّ الكونِ وخالقِه، إزاءَ هذه المشاريعِ الإلهيّةِ، مُنكرةً ومُكذِّبةً بما جاءَ به أصحابُ تلك المَشاريعِ التي تَروم استنقاذَ الأُمّةِ، وتَطهيرَها من الرَّذائلِ، وتَزكيةَ النَّفسِ بالفَضائلِ.

وما حالةُ التردِّي الفكريِّ والحضاريِّ، للمجتمعاتِ على مرِّ العصور، وما نَعيشُه اليومَ من الصِّراعاتِ والنِّزاعاتِ بينَ الأُممِ، إلّا بسببِ عدمِ الوعيِ والتَّنبيهِ على الفتنة، حتى توالَتِ الفتنُ على العالَمِ الإسلاميِّ على وجهٍ خاصٍّ، لعدمِ القدرةِ على التَّحليلِ والتَّفكيرِ بمَنطقِ العَقلِ؛ لأنَّ واقعَ العالَمِ اليومَ يَعيشُ حالةً من الاستغراقِ في المناهجِ الماديّة، التي تُفقدُ الإنسانَ القدرةَ على النَّظرِ للأمورِ بعَينٍ إلهيّة، وبعقلٍ مُتنوِّرٍ بنورِ الله، وهذا ما جعلَهم يَسقطونَ في الفتنِ لفَقدِهم القدرةَ على تعقُّلِ الأمورِ تَعقُّلًا حقيقيًّا، نابعًا من المنطقِ الإلهيِّ؛ حيثُ جاءَ في قوله -تعالى-: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:١٠]، أي: لو كنّا نتعقَّلُ ونُميِّزُ بنظرةٍ إلهيّةٍ نورانيّةٍ لَما اخترنا طريقَ جهنَّمَ، كما قال -تعالى-: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**﴾ [الأنعام :١٢٢]؛ لأنَّ العقلَ من أهمِّ القُوى الإدراكيّةِ التي فضَّلَ اللهُ -تعالى- بها الإنسانَ على سائرِ خلقِه في هذهِ النَّشأةِ الماديّة.

وقوةُ العقلِ هي: القوةُ التّي بها يكون الإنسانُ إنسانًا، وقد جعلَها اللهُ مدارَ التَّكليفِ والاختبار، وبزَوالِها يَخرج الإنسانُ من دائرةِ التَّكليفِ، ويُرفَعُ عنه القلمُ كما وردَ في الخبرِ: «رُفِعَ القلمُ عن المجنونِ حتّى يَفيقَ»[1]. وهذه القوّةُ الإدراكيّةُ كانَت مَحلاً للبَحثِ والتَّحليل، وقد بحثَها العلماءُ سعيًا للتَّعرُّفِ إلى ماهيّتِها، وتَحديدِ خواصِّها التي تتميَّزُ بها عن سائرِ القُوى الإدراكيّة، وممّا لا شكَّ فيه أنَّ الكشفَ الذّاتيَّ الذي يَملِكُهُ العقلُ نابعٌ من أنَّ كُلَّ شيءٍ ظاهرٌ له – العقلِ- بسببِه.

وما سنُبيِّنُه في هذه الدِّراسةِ هو وَضْعُ الحلولِ المناسبةِ لمُعالجةِ الفتنِ في ضوءِ القرآنِ الكريم، ليكونَ سببًا وطَريقًا للنَّجاة، وهذه الطُّرقُ شاقّةٌ تَحتاجُ إلى ثَباتٍ وصَبر، فإذا لم يكنِ الثَّباتُ مُستمَدًّا من الله سبحانه وتعالى، فلا يَثبتُ أحدٌ على الإطلاق، فمَنْ لم يُثبِّتْهُ اللهُ فهو هالكٌ، كما قال -تعالى-: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ**﴾ [إبراهيم: ٢٧]، أي: يُثبِّتُهم اللهُ بالإيمان، عندَما تُعرَضُ عليهِمُ

---

١ - عن الأعمش، عن ابن ظبيان قال: أُتي عمر بامرأة مجنونة قد فجرَت، فأمر برجمها، فمرُّوا بها على علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقال: ما هذه؟ قالوا: مجنونة فجرَت، فأمر بها عمرُ أن تُرجَمَ; قال: لا تَعجلوا، فأتى عمرَ فقال له: أما علمتَ أنَّ القلمَ رُفع عن ثلاث: عن الصبيِّ حتى يَحتلم، وعن المجنونِ حتى يُفيق، وعن النّائمِ حتى يَستيقظ؟ انظر: محمد بن علي (الشيخ الصدوق)، الخصال، ج١١ ص ٤٦ -١٤.

الفتنُ والشُّبهاتُ والشَّهواتُ[1]، كما جاء في قوله -تعالى-: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٧]، هنا يتضرّعون إلى ربِّهم، أي: يُثبِّتُهم في المواطنِ الصَّعبةِ، والإسرافُ هو تجاوُزُ الحدِّ، وعَلموا أنَّ الذُّنوبَ والإسرافَ من أسباب الخذلانِ، فطلبوا من اللهِ سبحانَه العَونَ والصَّبرَ والثَّباتَ والمَغفرةَ[2].

وعليه فقد اختطَّتْ هذه الدِّراسةُ لنفسها أن تكون من ثلاثة مَطالبَ، تَسبقُها المُقدِّمةُ، وتَختمُها النَّتائجُ: فكانَ المطلبُ الأوَّلُ قد أبانَ مَفهومَ العقلِ ودَورَه في تَبيينِ الأحكام، فيما اهتمَّ المطلبُ الثّاني ببَيانِ المَباني العَقليّةِ التي يَستندُ إليها العقلُ في أحكامه، وجاء المطلبُ الثّالثُ بالتَّطبيقاتِ التي تُسْهِمُ في الكشفِ عن الفِتنِ النَّوعيّةِ بتَحكيمِ العقلِ، ثمَّ قائمة المصادر التي اعتمدَها الباحث.

أوّلا: مفهوم العَقلِ ودورُه في تشخيصِ الفِتنة

نُحاول في هذا المَطلب التعرُّضَ للتَّعريفِ اللُّغويِّ والاصطلاحيِّ لهذِه القوّةِ، ومعرفةَ خواصِّها من خلال المُقدِّماتِ الآتية:

١ - مفهوم العقل في اللُّغة والاصطلاح

عُرِّفَ العقلُ لغةً بأنَّه الحِجرُ والنُّهى، وأنَّهُ ضِدُّ الحُمقِ. والجمعُ عُقول، وهو المَسْكُ تقول: عقلَ الدَّواءُ بطنَه أي: أمسَكَها. وجاءَ بمعنى المَنعِ أيضًا، تقول: عقلتُ البعيرَ، إذا شددتُ ساقَه بحبلٍ لمَنعِهِ من الهربِ.[3]

وأمّا في الاصطلاحِ، فقد جاءَت كلماتُ العلماءِ في تحديدِه مُتشابهةً في المَعنى، وإنْ تباينَت في

١ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٦ ص ٢٩٣، بتصرف.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٢ ص ١٤٩.
٣ - محمد بن مكرم (ابن منظور) لسان العرب، ج١١ ص ٤٥٨.

الألفاظِ، وهو منحدرٌ عن مَعناهُ اللُّغويِّ، كالآتي:

١. تعريف (النفري) (ت٣٥٤هـ): «هو قوّةٌ للنَّفسِ بها تستعدُّ للعلومِ والإدراكاتِ»[١].

٢. تعريف (الغزالي) (ت ٥٠٥هـ): «الوصفُ الذي يُفارِقُ الإنسانُ به سائرَ البَهائمِ»[٢].

٣. تعريف (ابن الجَوزيّ) (ت٥٩٧هـ): الذي يقول فيه: «يُعرَفُ العقلُ بسُكوتِه وسُكونِه ومُراقبتِه للعَواقبِ، وليس العقلُ مَحسوسًا، وإنَّما يدلُّ عليه ظاهرُ قولِ العاقلِ وعملِه».[٣]

٤. تعريف (المجلسي) (ت١١١١هـ) هو: «قوّةُ إدراكِ الخيرِ والشَّرِّ والتَّمييزُ بينَهما ومعرفةُ أسبابِ الأمورِ»[٤].

٥. التَّعريفُ المعاصِر، هو للباحثة (حميدة الأعرجيّ)، وهو «جوهرٌ مُجرَّدٌ درّاكٌ مُحيطٌ بحقائق الأشياءِ، على ما هي عليه في نفس الأمرِ، غير مُتعلِّقٍ بجسمٍ، وله تعلُّقُ التَّدبيرِ والتَّصرُّفُ فيه"[٥].

وللشَّيخِ (الكرميّ) يَقول فيه إنَّه: «منظومةٌ من الأحكامِ العقليّةِ النَّظريّةِ والعَمليّةِ»[٦]، معَ أنَّه تعريفٌ موجزٌ لا يَنهض أن يكون جامعًا ومانعًا؛ لأنَّه إنَّما وصفَ العقلَ ولم يَحُدَّه على ما يَظهر.

ومن التَّعريفَينِ الاصطلاحيِّ واللُّغويِّ للعَقلِ يَظهر أنَّه: العَقدُ والإمساكُ، وبه سُمِّي إدراكُ الإنسانِ إدراكًا يعقدُ عليه عَقلاً، وأمّا إدراكُه عَقلاً - وهو القوّةُ التي يتصرَّفُ بها الإنسانُ- فيُميِّزُ بينَ الخيرِ والشَّرِّ، وبينَ الحقِّ والباطلِ، وهو ضدُّ الجنونِ والسَّفَهِ؛ إذ هو «وَعيُ الإنسانِ وإدراكُه لِما يَجري من

١ – عمر بن محمد النسفي، العقائد النسفية، ص٤٦.
٢ – محمد بن محمد (الغزالي)، إحياء علوم الدين، ج١ ص٧٢.
٣ – عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي)، الأذكياء ص ١٠.
٤ - محمد باقر المجلسي، مرآة العقول، ج١ ص ٢٧.
٥ – حميدة الأعرجي، فقه الأخلاق في الشرائع السماوية، ص ٦٦.
٦ – محمد تقي الكرمي، العقل في الفقه الشيعي، ص٢١٠.

حَوله" [1]، هذا الإدراكُ يَنبغي أن يكونَ نابعًا عن إرادته ووَعيه، وليسَ رَغماً عنه، أو أنَّه لا يَعي من أقوالِه وتصرُّفاته شيئًا، بل لا بدَّ له أن يَعرِفَ أسبابَ ما يَصدرُ عنه وما يَجري حولَه.

٢- دورُ العَقل:

إنَّ نعمةَ العقلِ، بلا شكٍّ، هي من أعظمِ النِّعَمِ التي مَنَّ اللهُ -عزَّ وجلّ- بها على الإنسان، يَقول (سيِّد الوَصيِّينَ) عليه السلام في ذلك: «لا غنى كالعَقلِ ولا فقرَ كالجَهلِ»[2]. وهو الحُجّةُ الباطنةُ التي يَحتجُّ بها اللهُ -تعالى- على عباده، قال (الإمام الكاظمُ) عليه السلام: «يا هشامُ إنَّ لله على النّاسِ حُجّتَين: حجةٌ ظاهرةٌ وحجّةٌ باطنةٌ، فأمّا الظّاهرةُ الرُّسلُ والأنبياءُ والأئمّةُ، وأمَّا الباطنةُ فالعُقولُ»[3].

ولهذا فإنَّ «الكشفَ الذّاتيَّ الذي يَملكه العقلُ نابعٌ من أنَّ كلَّ شيءٍ ظاهرٌ بسببه»[4]؛ ولذلك يكونُ حجّةَ ربِّ العالمينَ على خلقه؛ لأنَّه يَرى ما هو مُنكشفٌ على حقيقته، فيه يُمَيِّزُ بينَ الضّارِّ والنّافعِ، ويَستطيع الإنسانُ أن يَسكن إلى نفسه ويَثِقَ بفكره ويَهتدي إلى سبيلِ الرَّشاد، فيكون إمامَ العلمِ ونبيَّ الحكمة الباطنة، وهو ما أكَّدَه (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام بقوله: «العقولُ أئمةُ الأفكارِ، والأفكارُ أئمّةُ القلوبِ، والقلوبُ أئمّةُ الحواسِّ، والحَواسُّ أئمةُ الأعضاءِ»[5].

ولقد اهتمَّ القرآنُ اهتمامًا بالغًا وواضحًا بقضيّةِ إقناعِ العَقلِ؛ لأنَّ في ذلك تَحصيلاً للقناعة الشَّخصيّة التي يَثِقُ بها الإنسانُ حتى يُغيِّرَ قناعاته الخاطئةَ، والتي اعتادَ عليها حقبًا طويلةً، فأصبحَت سلوكًا طبقيًّا في المجتمعِ، لا بدَّ من تَغييرِ قناعاتِ الإنسانِ على المُستويَينِ الفَرديِّ والمُجتمعيّ.

والقرآنُ الكريمُ اتَّبعَ هذا المنهجَ في التَّغيير، للوصول إلى القناعة المُستمرّة الثّابتة، وليسَ القناعةَ المُتزعزعةَ أو المُتغيِّرة مع تَغيُّرِ المَوقف، ولا شكَّ فإنَّ القناةَ الثّابتةَ تَرتبطُ بكوامنِ النَّفسِ، أو قُلْ: بعوالمِ اللاّ شعورِ التي يتولَّدُ عنها التأثيرُ في السُّلوكِ الفرديِّ أو الجَمعيّ.

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ج٢ ص ٢٤٧.
٢ – صبحي الصالح، نهج البلاغة، ص ٤٧٨.
٣ - محمد بن يعقوب، الكليني، الكافي، ج١ ص ١٦.
٤ – محمد تقي المدرسي، الفكر السلامي، ص ٣٤.
٥ - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج١ ص ٩٦.

فهناكَ حالاتٌ تمرُّ بالشُّعورِ (العقل) يُدركُ مَعناها ويميِّزُ وَصفَها، سواءٌ أكانَت صالحةً أم طالحةً، يُخزنُها في اللا شعورِ لتُصبحَ مَلَكةً باطنيّةً تُوجِّهُ الإنسانَ على وَفقها، وهو لا يَعلَمُ بها ولا يَستشعِرُها[1].

ولهذا فإنَّ العاقلَ الحَصيفَ يَجد أنَّ القرآنَ الكريمَ يُخاطبُ العُقولَ، ويَجعلُها الحاكمةَ على كثيرٍ من الظَّواهرِ كقوله -تعالى-: ﴿**كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وقوله -تعالى-: ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ**﴾ [الروم: ٨]، وقوله -تعالى-: ﴿**قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦]، وغيرها كثيرٌ من آياتِ الذِّكرِ الحكيمِ التي تَدعونا إلى التَّفكُّرِ فيما حَولنا لتَغييرِ سُلوكنا وقناعتنا، ثم بعدَ ذلك تَنتقلُ هذه القناعاتُ إلى اللاّ شعورِ، وهذا أمرٌ ضروريٌّ لكي يُوافِقَ السُّلوكُ الظّاهريُّ باطنَ الإنسانِ في أفعالِه الخارجيّة.

ولهذا، فذاتُ الإنسانِ ونفسُه الباطنةُ أو(عقلُه الباطنُ) حينَ يَمتلِئُ بصُورٍ رُوحيّةٍ مثلاً، فإنَّ ذلك مَدعاةٌ للحفاظِ على تلكَ القيَمِ والثَّوابتِ والأخلاقِ الفاضلة، وقد وردَ في الحديث: «إنَّ النَّظرَ إلى الكعبةِ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى الوالدينِ عبادةٌ، والنَّظرَ في المُصحفِ من غير قراءةٍ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى وجهِ العالِمِ عبادةٌ، والنَّظرَ إلى آلِ مُحمَّدٍ ﷺ عبادةٌ»[2].

ونجدُ في مُقابلِ هذا كراهةَ أو حرمةَ النَّظرِ إلى المرأةِ الأجنبيّةِ أو الأفلامِ والصُّورِ الخَليعة؛ لأنَّ في ذلك مَلْئًا للذّاكرةِ التي تَدفع العقلَ الباطنَ للتَّشبُّهِ بتلكَ الأفعالِ أو صدورِ أفعالٍ منه على وُجهتِها.

فحينَ يقولُ الله -تعالى- في مُحكَمِ كتابِه الحَكيم: ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى**﴾ [طه:٧]، فإنَّ «المُرادَ بالقولِ ما في الضَّميرِ من حيثُ أنَّ ظهورَه إنمَّا هو بالقول غالبًا، أو كانَ أخفى

---

١ - يُنظر بحثنا: الشعور واللاشعور الإنساني وعلاقته بالإعجاز القرآني.

٢ – محمد بن علي (الصدوق)، من لا يحضره الفقيه، ج٢ ص ٢٠٥. محمد بن عبد الله (ابن عربي)، التجليات الإلهية، ص ٢٠.

من ذلك بأنْ كانَ خَفيًّا حتى عليكَ نفسك، فإنَّ اللهَ يَعلمُه»[1]؛ إذ المُرادُ (بأخفى) على ما يَظهر هو ما دفعَه العقلُ الباطنُ إلى بالكَ، وأنتَ لا تَشعرُ أينَ كانَ هذا وممَّن جاءَ؟ فالأخفى في الآيةِ إذنْ هو اللاّ شعورَ، وهو منطقةُ العلمِ الرّاسخِ اليَقينيِّ عندَ الإنسانِ، مع أنَّ الإنسانَ لا يُدركُ تلكَ المنطقةَ وما تَحتويه من علمٍ يَقينيٍّ مُستقرٍّ.

ولهذا فحينَ يَحكي القرآنُ الكريمُ عن أناسٍ يَظنُّونَ لا شُعوريًّا أنَّهم مُصلحونَ، فإنَّما يُشيرُ إلى هذه الحقيقة، قال -تعالى-: ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة:١١]. ففعلُهُم الصّادرُ عنهم، وهو الإفسادُ، جاءَ لا شعوريًّا؛ لأنَّ ذاتَهم وذاكرتَهم امتلأتْ بالإفسادِ[2].

وكذا قوله -تعالى-: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، فإنَّما أصبَحوا من الفاسدينَ، لأنَّ عقلَهم الباطنَ، بما امتلأ من الأعمالِ البَعيدة عن صالحِ الأمورِ التي أصبحَت في باطنِه مَلَكةً، تُوجِّهُ سُلوكَه نحوَ الخُسرانِ، وهو يَظنُّ أنَّه يُحسنُ الصُّنعَ.

وتَوضيحًا لما تقدَّمَ، وبيانًا لدَورِ العَقلِ، يُوردُ البحثُ قولَه -تعالى-: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

هنا إشارةٌ إلى شيءٍ لا يُدركُه الإنسانُ، وهو من صُنعِ الله تعالى، ولا دخلَ للإنسانِ فيها، وهي الفِطرةُ التي هي: «مجموعةٌ من الصِّفاتِ والقابليّاتِ التي تُخلَقُ معَ المَولودِ، ويتَّصفُ بها الإنسانُ في أصلِ خلقتِه، سواءٌ القابليّاتُ البَدنيّةُ، أم النَّفسيّة، أم العَقليّة، والفِطرةُ تَهدي الإنسانَ إلى تتميمِ نَواقصِه»[3].

١ - محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج١٤ ص ١٢١.
٢ - الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١، ص ١٠٥.
٣ - جعفر بن محمد السبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص ١٥.

وهنا في الآية الكريمة تأكيدٌ على «أنَّ معرفةَ الله ليسَت المَطلوبةَ وحدَها، بل الدِّينُ والاعتقادُ بشكلٍ كُلِّيٍّ، وفي جميعِ أبعادِه، هو أمرٌ فِطريٌّ.. فما وردَ في الشَّرعِ لا بدَّ أن يكونَ له جذرٌ في الفطرةِ، وأنَّ اللهَ لا يَفعل أعمالاً مُتناقضةً أبدًا»[٤]، فما يأمرُ به الشرَّعُ تَقبلُه الفِطرةُ السَّليمةُ التي أودعَها اللهُ في نفسِ الإنسانِ وهو لا يَعلم.

٣- الفرق بين الفِطرة والعَقل:

الفِطرةُ بالطَّبعِ هي غيرُ العَقلِ الواعي؛ لأنَّ الفِطرةَ ذاتُ جذورٍ باطنيّة، وهي تتَّصفُ بالشُّموليّةِ والعُمومِ، ولا تَحتاجُ إلى تعلُّمٍ أو تَعليمٍ، ولا تَخضعُ للعواملِ السِّياسيةِ أو الاقتصاديّةِ ونحوِها، ولا يُمكنُ استئصالُ الفِطرةِ والقضاءُ عليها، نعمْ رُبَّما تَضعفُ عندَ بعضِ البشرِ لكنَّها لا تَنتهي بالمرَّةِ[٥]، والعقلُ ليس كذلك كما عرفتَ فيما سبقَ.

إذنْ في المنظورِ الإسلاميِّ هناكَ فِطرةٌ سليمةٌ وطبيعيّةٌ تُوافقُ ما يأتي في الشَّرعِ ولا تُعارضُه، وهناكَ فطرةٌ غيرُ سليمة، تَنشأ من ارتكابِ الإنسانِ لبعضِ الأعمالِ التي تُخالف فطرتَه السَّليمةَ، وحينَها تَبدأ النَّفسُ الأمّارةُ بالسُّوءِ بإيجادِ جدارٍ وَهميٍّ عازلٍ للفطرةِ السَّليمة، فتُقصيها وتُعطِّلُ وَظيفتَها، وتتقدَّمُ الفِطرةُ غيرُ السَّليمة، وتكونَ هي الفاعلةَ والنّاظرةَ والواصفةَ والمُفوِّتةَ لأفكارِ ومشاعرِ وسُلوكيّاتِ الإنسانِ الظّاهريّة[٦].

وكذلك الحالُ بالنِّسبةِ للنَّفسِ المُطمئنّةِ المُلهَمةِ بالقُوى والإيمان؛ إذ هناكَ نفسٌ فاجرةٌ مُتغطرسةٌ مُتمرِّدةٌ وعاصيةٌ، تَنشأ هذه النَّفسُ بسببِ ارتكابِ المَعاصي والآثام، فتتقوَّى على النَّفسِ المُطمئنّةِ وتُزيحُها من المُقدِّمة، لتَحلَّ مكانَها وتكونَ هي الحاكمةَ والشّارحةَ والمُبرِّرةَ لأفعالِ ذلك الإنسان، ويَنتجُ عن ذلك تجاهُلُ الفِطرةِ السَّليمةِ وتَناسي النَّفسِ المُطمئنّة، إلى الحدِّ الذي يَنسى الإنسانُ سببَ وُجوده في هذه البَسيطة، ويَتعامى عن الذُّنوبِ التي يَرتكبُها، قال -تعالى- ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولِئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**﴾

٤ - ناصر مكارم الشيرازي، التفسير الأمثل، ج٥، ص١٥٧.
٥ - جعفر بن محمد السبحاني، مفاهيم القرآن، ج١، ص٥٣.
٦ - جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المناهجية التكاملية التوحيدية، ج٢ ص ٢٥٠.

[الروم:١٩]، ويكونُ هذا الإنسانُ الغافلُ مصداقًا لقولِ سيِّدِ الوَصيِّينَ (عليِّ بنِ أبي طالب) (عليه السلام): «مَن عرفَ نفسَه فقد عرفَ ربَّه»[١]، وبمَفهومِ المُخالفةِ فإنَّ الذي لا يَعرِفُ نفسَه يكونُ غافِلاً عن أوامرِ ونَواهي اللهِ سبحانه.

إذنْ هناكَ حالةٌ شعوريّةٌ طاغيةٌ وظاهرةٌ، وحالةٌ لا شعوريّةٌ مَخبوءةٌ وباطنةٌ، ويكون الصِّراعُ بينَ فِطرتَين، إحداهُما مَركوزةٌ ومَجعولةٌ من الله تعالى في الإنسان، وهي حقيقيّةٌ وسَليمةٌ، وأُخرى مَوهومةٌ ومَخبوءةٌ وسَرابيّةٌ، يُوجِدُها الإنسانُ بارتكابِه الأفعالَ المُنكرةَ للفِطرةِ الأولى.[٢]

وهذا الصِّراعُ مَوجودٌ في باطنِ كُلِّ إنسان، واللهُ -تعالى- يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، حتى يَصِلَ الإنسانُ إلى الكمالِ الذي يُريدُه المُقنّنُ الإسلاميُّ والشّارعُ المُقدّسُ للعَقل.

وهذا الكمالُ المُتمثِّلُ بمَعرفةٍ حقيقيةٍ ودقيقةٍ لرُوحِ الدِّينِ، وللمَعارفِ الإلهيّةِ السّاميةِ في عالَمِ الرُّوحِ، وعالَمِ المَلكوتِ، لا يتحقَّقُ البتةَ إلا لأصحابِ الولايةِ، ولِمَن اجتباهُم اللهُ، واختارَهُم على عِلمٍ على العالَمينَ، وهم المَعصومونَ الذينَ ذكرَهُم اللهُ -تعالى- في قوله: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾ [الأحزاب:٣٣]، وفي الدَّرجةِ الثّانيةِ يأتي الصّالحونَ في كلِّ زمانٍ ومَرحلةٍ مُتمثِّلينَ بمَراجعِ الدِّينِ في وَقتِنا المُعاصِر.

وخلاصة ما تقدَّمَ: إنَّه من الطَّبيعيِّ حين يَتبنَّى الإنسانُ فكرةً او اتِّجاهًا مُعيَّنًا، كالحبِّ أو البُغضِ، ونحوِ ذلك، «يكونُ مَنشأُه أو مَصدرُهُ تلك الأفكارُ الخَفيّةُ والذِّكرياتُ الغامضةُ، أو المَبادئُ غيرُ المَعلومة، والتَّجاربُ الخَفيّةُ التي تُرغِمُنا وتُسيِّرُنا - من غيرِ أن نَشعُرَ بها- إلى اتِّخاذِ مواقفَ وإصدارِ أحكامٍ مُعيَّنة»[٣].

فمثلاً هناك حالاتٌ من الكِبر والغُرورِ والعُجبِ، تَظهر في الإنسانِ من دونِ أنْ يَشعُرَ بها، ولا

١ - ابن أبي جمهور الأحسائي، عوالي اللآلي، ج٤، ص ١٠٢، محمد بن الحسن (الحر العاملي)، الجواهر السّنية، ص ١١٦.

٢ - جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المناهجية التكاملية، ج٢، ص ٢٤١.

٣ - جميل صليبا، علم النفس، ص١٦٧.

يمُكنُه اكتشافُها إلا بعدَ حينٍ، وبصراعاتٍ طويلة الأمد، ورُبمَّا لا يتخلَّصُ منها مُطلَقًا، ويُدافعُ عنها، ويَحسب أنَّه يُحسنُ صُنعًا، كما أشارت الآيَةُ في قوله تعالى: ﴿**وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١١-١٢].

وسببُ ذلك أنَّ في داخلِ وباطنِ لا شعورِ الإنسانِ رذائلَ وخبائثَ، أو قُوًى شَيطانيّةً مُتعدِّدةً، ترسَّخَت وتَنامَت، ثم اختفَت في باطنه منذُ فترةٍ سابقة[١]، ولم يَنتبهْ إليها، وتَعامى عنها، فصارَت تلكَ الرَّذائلُ والذُّنوبُ - صغيرةً أو كبيرةً - بعدَ أن أهملَها الإنسانُ وأغمضَ بصيرتَه عنها، تمُثِّلُ لا شعورَه، وهي تَظهر لا إراديًّا، إمّا بصورةٍ تلقائيّة، أو عندَما يُصادفُ صَدمةً، أو واقعًا خارجيًّا يَتناغَمُ معَ ما في باطنِه، ويَنسجِمُ مع تلك القُوى الشَّيطانيّةِ أو الأفعالِ المَذمومةِ، التي امتلأتْ ذاتُه بها وهو لا يَعلم.[٢]

فنجدُ آيات القرآن تُؤكِّدُ على ذكرِ الله -تعالى- وتمَدحُ الذّاكرينَ: ﴿وَالذَّاكِرينَ اللهَ كَثيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله -تعالى-: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ١٩١].

وليسَ المرادُ بالذِّكرِ هنا اللَّفظيَّ فقط، وإنَّما مراقبةُ النَّفسِ وإدراكُ أنَّ الله -تعالى- مُطَّلِعٌ على خفايانا كما هو مُطَّلِعٌ على ظاهرنا.

وكلُّ ما تقدَّمَ يتعلَّقُ بتَقويةِ العَقلِ باعتباره مصدرًا من مصادرِ مُعالجةِ الفتنةِ المَذمومةِ على وجهِ الخُصوصِ، والتعرُّفِ على الفتنةِ المَحمودةِ التي يكونُ مَصدرُها اللهَ -تعالى- على نحوِ الاختبارِ للإنسان، فيُجازي المُحسنَ على إحسانه ويُثيبُه على قناعاته، ويُوظِّفُه لمَواردِ الافتتانِ الحَسنِ، قالَ -تعالى-: ﴿**واعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٢٨]، فالعاقلُ الحَصيفُ هو الذي يُفيدُ من فِتنةِ الأولادِ في تَربيتِهم الصّالحة، كي يَكونوا عُنصرًا فَعّالاً يُسهِمُ في بناءِ المُجتمعِ الإنسانيِّ على وفقِ التَّعاليمِ الإسلاميّةِ والقرآنيّة.

١ - جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية وأثرها على تحريف الحقائق، ص١٩.
٢ - جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية... ص ١٩ (بتصرف).

ثانيًا: المَباني العقليّةِ ودورُها في تَشخيص الفِتنَِ العامّة

١ - المَباني العقليّة:

تُشيرُ المَباني العَقليّةُ إلى الأصولِ والقواعدِ التي انتزعَها العقلُ من خلالِ تَحليلِ الواقعِ المُحيطِ بالإنسانِ، تَحليلاً عقليًّا صِرفًا، دونَ الرُّجوعِ إلى مَرجعيّةٍ مَعرفيّةٍ أُخرى كالنَّقلِ والكشفِ.

ويَستندُ الإنسانُ إلى هذه المَباني في بناءِ مَنظومته الفكريّة، التي يَستندُ إليها في فَهمِ الظَّواهرِ والأحداثِ وتَفسيرِها، وتُعتبرُ هذه المَباني أساسًا مُهمًّا لتَطويرِ الفَهمِ، والتَّفكيرِ النَّقديِّ في جميعِ جوانبِ الحياة، ليَتمكَّنَ من بناءِ حياته بناءً صَحيحًا، مُنسجمًا معَ النِّظامِ الوُجوديِّ التَّكوينيِّ، ويمُكِّنَ الإنسانَ أن يُسخِّرَ هذه القواعدَ في الكشفِ عن الأمورِ المُستقبليّةِ التي يُمكِنُ أن تَحدُثَ كالفِتنَِ وغيرِها.

فعَن (كميلِ بنِ زياد) عن (أميرِ المُؤمنينَ) عليه السلام، أنَّه قال في وصيّته له: «يا كميلُ ما من حركةٍ إلاّ وأنتَ مُحتاجٌ فيها إلى مَعرفة»[١]، لأنَّ العاملَ على غيرِ مَعرفةٍ لا يَعرفُ هذا الفعلَ إنْ كانَ فيه مَصلحةٌ أو مَفسدةٌ. ولأنَّ العقلَ يَحتلُّ مكانةً خاصّةً ومُميَّزةً في القرآن الكريم والسُّنة الشَّريفة، فقد وردَ عن (الإمامِ الكاظم) عليه السلام أنَّه خاطبَ (هشامًا) قائلاً: «يا هشامُ إنَّ لله حجّتَينِ، حجّةٌ ظاهرةٌ، وحجّةٌ باطنةٌ، فأمّا الظّاهرةُ فهي الرُّسلُ والأنبياءُ والأئمّةُ، وأمّا الباطنةُ فالعُقول»[٢].

إذْ إنَّ العقلَ هو أحَدُ أدلّة الاستنباطِ لَدى المُسلمينَ، ونَقصدُ به هنا: كونَه أحدَ الأدلّة الكاشفة عن الحكمِ الشَّرعيِّ، وهو: «كُلُّ حُكمٍ عَقليٍّ يُنهي إلى القَطعِ بالحُكمِ الشَّرعيّ»[٣]، أي: إدراكُ العَقلِ للأحكامِ الشَّرعيّةِ من غيرِ طريقِ النَّقل. أو هو: «كلُّ قضيّةٍ يُدركُها العقلُ ويمُكنُ أن يَستنبطَ منها حُكمًا شرعيًّا»[٤]، وهذا مثلَما لو أدركَ الإنسانُ أنَّ هذا الفعلَ واجبٌ عليه، وهذا الفعلَ لا يمُكِنُ

---

١ - الحسن بن علي، (ابن شعبة البحراني)، تحف العقول، ص١٧١. وحسين بن محمد النوري، مستدرك وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٢٦٧.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص ٦٢٥.

٣ - عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، ص ٨٨.

٤ - محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الحلقة الثانية، ص ١٩٥.

تحقُّقُه خارجًا إلاّ بالإتيانِ بمُقدِّمته، فيُدركُ بالبَداهةِ استلزامَ تحقيقِ هذا الفِعلِ، للإتيانِ بمُقدِّمته التي تَوقَّفَ عليها[1].

فمَثلاً: لو أمرَ صاحبُ المَزرعةِ عمّالَها بحَرثِها، وهم يُدركونَ أنَّ الحَرثَ يتطلَّبُ استعمالَ آلاته، فسوفَ يُحضِرونَها ويَستعملونَها، ولو لم يَأمُرْهُم صاحبُ المَزرعةِ بذلك. ومثلَما: لو حكمَ الشّارعُ المُقدَّسُ بوجوبِ امتثالِ شَيءٍ من الأشياءِ بآيةٍ قرآنيّةٍ أو حَديثٍ مُعتبرٍ، وكان امتثالُ ذلك الشَّيءِ مُتوقِّفًا على مُقدِّمةٍ مُعيَّنةٍ لا يَتحقَّقُ إلاّ بتَحقُّقِها، ولم يَرِدْ نصٌّ من الشّارعِ المُقدَّسِ يَحكم بوُجوبِها، فإنَّ العقلَ يَحكم بالمُلازمةِ بينَ وجوبِ الشَّيءِ شَرعًا، ووجوبِ مُقدِّمته حُكمًا يُفضي بطبيعته إلى القطعِ بحُكمِ الشّارعِ بوجوبِ المُقدِّمةِ، فالعقلُ هو القوّةُ الذِّهنيّةُ التي تُدركُ الاستلزامَ والمُلازَمةَ وبالبَداهةِ والرّأي من دونِ إعمالِ الفِكر.

ومُجمَلُ القَولِ: إنَّ الذي يَصلح أن يكونَ مُرادًا منه، مُقابلَ الكتابِ والسُّنةِ هو: كُلُّ قضيةٍ عقليةٍ يُتوَصَّلُ بها إلى العِلمِ القَطعيّ بالحُكمِ الشَّرعيّ[2]. وقد ذُكر في حجيّةِ الدَّليلِ العَقليِّ أنَّ جمهورَ العامّةِ قد بنَوا على حجيّتِه[3]، وقد ذهبَ المشهورُ من الإماميّةِ إلى حجيّتِه، وذهبَ الإخباريُّونَ إلى عدمِ حجيّتِه[4].

إنَّ حجيّةَ العقلِ في واقعِها من الأمورِ البَديهيّةِ التي لا تَفتقرُ إلى بُرهان؛ لأنَّ العقلَ هو الدَّليلُ الأساس للعَقيدةِ الإسلاميّةِ، التي منها يَنبثقُ التَّشريعُ الإسلاميُّ. فمن اعتبارِه دَليلاً رئيسًا للعَقيدة نَستطيعُ أن نُدركَ بسُهولةٍ وبَداهةٍ حجّيةَ اعتبارِه دَليلاً للتَّشريعِ؛ وذلك لأنَّ العَقيدةَ أهمُّ من التَّشريعِ؛ لأنَّها أصلُ الدِّينِ.

وإنَّ دليلَ العقلِ هو الذي يُفضي إلى القَطعِ بحُكمِ الشَّرعِ؛ وذلكَ لأنَّ القَطعَ حجّةٌ بالبَداهةِ، كما هو معلومٌ لدى علماءِ الأصولِ والشَّرعِ[5].

---

١ - عبد الهادي الفضلي، دروس في أصول فقه الإمامية، ج٢، ٤٣٠.

٢ - يوسف بن أحمد البحراني، الحدائق الناضرة، يوسف البحراني، ج١، ص. ص ٤٠-٤١، وجواد أحمد البهادلي، مختصر المفتاح في أصول الفقه المقارن، ص ٢٦٢.

٣ - محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأصول: تقريرات لبحث السيد محمد باقر الصدر، ج٤، ص ١١٩.

٤ - محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأصول، ص ١١٩.

٥ - عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، ص ٨٩. ويرى الشيخ الأنصاري في فرائد الأصول: «إن كون القطع حجة غير معقول، لأن الحجة ما يوجب القطع بالمطلوب، فلا يطلق على نفس القطع».

٢ - أقسام المَباني العقليّة:

تَنقسِمُ أحكامُ العقلِ إلى قسمَينِ هما: المُستقِلّاتُ العَقليّةُ، وغيرُ المُستقلّاتِ العَقليّةِ.

١. المُستقلّاتُ العَقليّةُ: وهي ما كانَت مُقدَّمةً للقياسِ الاستدلاليِّ أو: «هي الأحكامُ العَقليّةُ المَحضةُ، كالحُكم بأنَّ الكُلَّ أعظمُ من الجُزءِ، وأنَّ الواحدَ نصفُ الاثنَينِ، وكالحُكم ببُطلان الدَّورِ والتَّسلسُلِ واجتماعِ النَّقيضَينِ»[١]. وكحُكمِ العَقلِ بحُسنِ شيءٍ، ثم حُكمه بأنَّ كلَّ ما حَكم بهِ العقلُ حَكَمَ به الشَّرعُ.. مثل قولنا: العدلُ حسنٌ بحُكمِ العَقلِ. وكلُّ ما هو حسنٌ بحُكمِ العَقلِ حسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ. فالعَدلُ حسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ.

٢. المُستقلّاتُ غيرُ العَقليّةِ وهي: «التي يَعتمدُ الإدراكُ فيها على بيانٍ من الشّارع»[٢]، وهي ما كانَت إحدى مُقدِّمتَي القياسِ الاستدلاليِّ فيها غيرَ عقليّةٍ والأُخرى عقليّة. كحُكمِ العَقلِ بوجوبِ المُقدِّمةِ لحُكمِ الشَّرعِ بوجوبِ ذي المُقدِّمة، مثل قولنا: قطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ مُقدِّمةٌ لأداءِ الواجبِ الشَّرعيّ (الحجّ)، وكُلُّ مُقدِّمةٍ لأداءِ الواجبِ الشَّرعيِّ واجبةٌ بحُكمِ العَقلِ. فقطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ واجبٌ بحُكمِ العَقل. ثم نقولُ: قطعُ المسافةِ واجبٌ بحُكمِ العَقلِ. وكُلُّ ما هو واجبٌ بحُكمِ العَقلِ هو واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. فقطعُ المَسافةِ إلى مكّةَ واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. أو كإدراكِنا نَهيَ الشّارعِ المُقدَّسِ عن الضدِّ العامِّ بعدَ اطِّلاعِنا على إيجابِ ضدِّه.[٣]

المُلاحَظُ في المثالَينِ المُتقدِّمَين، أنَّ النَّتيجةَ مُتوقِّفةٌ على وجودِ المُلازَمةِ بينَ حُكمِ العَقلِ وحُكمِ الشَّرعِ، وهي في المثالِ الأوَّل: كلُّ ما هو حَسنٌ بحُكمِ العَقلِ حَسنٌ بحُكمِ الشَّرعِ، وفي المثالِ الثّاني: كلُّ ما هو واجبٌ بحُكمِ العَقلِ واجبٌ بحُكمِ الشَّرعِ. ونَعني بهذه المُلازَمةِ بينَ الحُكمِ الثّابتِ شَرعًا أو عَقلاً، وبينَ حُكمٍ شَرعيٍّ آخَرَ، كحُكمِه - يَعني العقلَ - بالمُلازمةِ في مسألةِ الإجزاءِ ومُقدِّمةِ الواجبِ ونَحوِهما.

---

١ - حسن الموسوي البجنوردي، منتهى الأصول، ج١ ص ٢٧٥.
٢ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص٢٦٧.
٣ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص ٢٦٧.

فإنَّ هذه المُلازمات وأمثالَها أمورٌ حَقيقيّةٌ واقعيّةٌ، يُدركُها العقلُ النَّظريُّ بالبَداهة أو بالكسبِ؛ لكونها من الأوَّليّاتِ والفِطريّاتِ التي قياساتُها معَها، أو لكونِها تَنتهي إليها، فيَعلم بها العقلُ على سبيلِ الجَزم.

ثالثًا: نماذجُ تطبيقيّةٌ للتَّحليلِ العَقليّ للفِتنِ النَّوعيّةِ في القرآن الكريم

بعدَما أثبَتْنا حجيّةَ العقلِ ودورَه في التَّشريعِ، وبيَّنا قدرةَ العقلِ على كيفيّةِ التَّحليلِ والتَّمييزِ للفِتنِ النَّوعيّةِ وغيرِها من الأمورِ، التي تَحتاجُ إلى معرفةٍ حسبَ تحليلِ العقلِ، والتّأكيدِ على ضرورةِ استعمالِه، وذلك يدلُّ على القيمةِ الكبيرةِ لهذه الأداةِ التي منحَها اللهُ تعالى للإنسانِ؛ ليُميِّزَه عن باقي المخلوقاتِ، ويتعرَّف بها على مَعالِمِ هذا العالَمِ.

وقد أشارَ القرآنُ الكريم إلى استعمالِ العقلِ، وحثَّ الإنسانَ على التفكُّرِ والتدبُّرِ، حتى يتعرَّفَ على قدراتِه الذّاتيّةِ التي يَستطيع بواسطتِها الوصولَ إلى حقيقةِ الأمورِ، لذا علينا الرُّجوعُ إلى هذه النِّعمةِ التي أنعمَ اللهُ تعالى بها عَلينا، حتى نَستطيعَ أن نُميِّزَ بينَ الحقِّ والباطلِ، ونتحقَّقَ من الشُّبهاتِ الواردةِ حتّى لا نَقع في مَصيدةِ الشَّيطانِ، فمِن هذا المُنطلَقِ نَستطيعُ أن نأتيَ بنَماذجَ تَطبيقيّةٍ لإثباتِ حجيّةِ العقلِ ودورِه في التَّحليلِ للفِتنِ النَّوعيّةِ.

وتَجدر الإشارةُ هنا إلى أنَّ الفِتنةَ تَنقسمُ على قِسمَينِ:

١ - الفِتنة الدِّينيّة:

وهي ابتلاءٌ من الله للمسلمِ خاصّةً دونَ الكافرِ، فيَختبرُه بحُلولِ المُصيبةِ عليه من تلقاءِ نفسه أو عن طريقِ العدوِّ، إنْ كانَ المسلمُ بقوله أو فعله مُوقنًا، فيَزيدُه إيمانًا وشَرفًا. قال -عزّ وجلّ-: ﴿**أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٦]. يقول (الشَّيخُ الطُّوسي) (ت٤٦٠هـ) في تفسير الآيةِ المُتقدِّمة: «عُنيَ بذلكَ الأمراضُ والأسقامُ التي شدَّدَ اللهُ بها التعبُّدَ على عِبادِه، فسَمَّى ذلكَ فتنةً من حيثُ يُشدِّدُ الصَّبرَ عليها»[1].

١ - محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج٤ ص٥٥٥.

وعمومُ الآيةِ يَسمحُ بدُخولِ غيرِ ما ذكرَه (العلاّمةُ الطُّوسيُّ) قُدِّسَ سِرُّه، فالصَّبرُ على طاعةِ الله واحدةٌ من الأمورِ التي يُفتنُ بها الإنسانُ ولازمُه الصَّبرُ عليها، وفَقدُ الأحبّةِ أيضًا يَلزم الإنسانَ الصَّبرُ عليه وعدمُ الجَزعِ، وضنكُ العَيشِ وعدمُ إمكانِ توفيرِ لُقمةٍ للعيالِ من الأمورِ الصَّعبةِ جدًّا على الآباءِ ويَلزمُها الصَّبرُ أيضًا. والخلاصةُ أنَّ الفِتنَ كثيرةٌ لا يُمكنُ حدُّها بالأمراضِ والأسقامِ فحسب.

ومثلُه قولُه -تعالى-: ﴿**أَلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ١-٣]. فالفتنةُ هنا: المُرادُ منها الاختبارُ أو الابتلاءُ، فمَن صبرَ على ذلك كان بمَفازةٍ من النّارِ، والعكسُ صَحيح.

فالإنسانُ هنا موجودٌ مختارٌ لأفعاله وبيده الاختيارُ؛ للفَوزِ والنَّجاحِ في الامتحانِ أو الخُسرانِ والفَشلِ، وما سوفَ يَختارُه يقعُ عليه عاقبتُه، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، قال -تعالى-: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال -سبحانه- في مَدحِ الصّابرِ على الابتلاء: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٥]، وهذه الآيةُ تُؤكِّدُ ما قدَّمناهُ من أنَّ الفِتنَ لا تَنحصرُ في الأمراضِ والأسقامِ. فتأمَّلْ!

ويعضد ذلك ما جاء في السُّنةِ المُطهَّرةِ عن (صُهيبٍ)، قال: قال (رسولُ الله) صلى الله عليه وآله وسلم: «عَجبًا لأمرِ المُؤمنِ، إنَّ أمرَه كلَّه لَه خَيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمنِ؛ إنْ أصابَتْه سَرّاءُ شكرَ، فكانَ خَيرًا له، وإنْ أصابتْه ضَرّاءُ صَبرَ، فكانَ خيرًا لَه»[1].

٢ - الفِتنةُ الدُّنيويّة:

وهي ابتلاءٌ يَحلُّ على الخلقِ، إمّا في أنفسهم، أو أهليهم، أو أموالِهم، أو بُلدانِهم؛ كالخَسفِ، أو الفَيضانات، أو الطّاعون، أو الحروب، أو الجنون. ولَعلَّ الآيةَ التي ذكرناها سابقًا من سورة البَقرة مصداقٌ للفتنِ الدُّنيويّة، قال -تعالى-: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٥].

---

١ - مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، باب النهي عن المدح، ج ٨، ص ٢٢٧.

وفي آيةٍ أُخرى، من آياتِ الذِّكرِ الحَكيم، يمُكنُ أن نَستلهمَ منها دورَ العقلِ وخطورةَ تَغييبه، يقول -تعالى-: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٩٧].

فما فائدةُ القلوبِ (العقول)، إذا لم تكنْ تَعقلُ الأشياءَ، وتُميِّزُ الغَثَّ من السَّمينِ؟ وما فائدةُ الأبصارِ إذا لم تكنْ على نحوِ رُؤيةِ البَصيرةِ، لا رُؤيةِ النَّظرِ الظّاهريِّ؟ وما فائدةُ وجودِ السَّمعِ ظاهرًا، والإنسانُ لا يَسمع النَّصيحةَ، ولا يَسمعُ نِداءَ اللهِ -سبحانَه- في ضرورة تَوحيدِه، وعدمِ الإشراكِ به، والتحلِّي بالفَضائلِ والتخلِّي عن الرَّذائل؟

يتجلَّى لنا ذلك، إذا نظرْنا إلى حالِ النّاسِ اليومَ في بقاعِ الأرضِ المُختلفة، إذ نَرى منهم حتى الآنَ مَنْ يَعتنقُ أديانًا ضروريّةَ البطلانِ ظاهرةَ البَشاعة، كعبادةِ الأوثان، ونسبةِ الإدراكِ والحَولِ والقوّةِ لَها، معَ أنَّها جماداتٌ حادثةٌ مَصنوعةٌ قطعًا، وتَرى هؤلاءِ يتمسَّكونَ بعَقائدِهم ويَجرونَ عليها، ويُدافعونَ عنها، ويتعصَّبونَ لها، غافلينَ أو مُتغافلينَ عن واقِعها المُزري الشَّنيع.

ومن الفتنِ أيضًا مُصيبةٌ تقعُ فيما بينَ الخَلقِ، قد تكونُ عن طريقِ القَتل، أو السِّحر، أو المرضِ، أو الغَصبِ، أو الحريقِ، أو النِّزاعِ واشتعالِ نيرانِ الحربِ بين شَخصينِ، أو بينَ الأهلِ أو الدُّول.

فالفتنُ التي تقعَ بينَ النّاسِ كثيرةٌ، منها الخُصوماتُ، أو الاعتداءُ والظُّلمُ، قال -تعالى-: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ**﴾ [الأنعام:٥٣]. وفي خطبةٍ لـ(أميرِ المؤمنينَ) عليه السلام أنَّه قال: «إنيّ سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقولُ: كيفَ أنتُم إذا لَبستُم فِتنةً يَربو فيها الصَّغيرُ، ويَهرمُ فيها الكبيرُ، يَجري النّاسُ عليها ويتَّخذونَها سُنّةً؟ فإذا غُيِّرَ منها شَيءٌ قيلَ: قد غُيِّرَت السُّنةُ، وقد أتى النّاسُ مُنكرًا، ثم تشتدُّ البَليّةُ وتُسبَى الذُّريّةُ، وتَدقُّهُم الفِتنةُ كما تَدقُّ النّارُ الحطبَ، وكما تَدقُّ الرَّحى بثِفالِها»[1].

ولعلَّ من أكبرِ الفِتنِ وأخطرِها فتنةَ الابتعادِ عن عقيدةِ التَّوحيدِ: أي إنكار وحدانيّةِ الله،

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج٨ ص ٥٩، حديث: ٢١.

أو الشِّرك بالله، فهذه الفتنةُ من أشدِّ أنواعِ الفتنِ؛ قال -تعالى-: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: ٣٩].

فلا بدَّ للعقلِ هنا أن يُدركَ فطريًّا - ومن خلال المُستقلّات العَقليّة - ضرورةَ وحدانيّة الخالق، ولا سيَّما حينَ يَقرأُ الدَّليلَ العَقليَّ في القرآن الكريم في قوله -تعالى-: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء:٢٢]، فالأمرُ هنا لا يتعلَّقُ بالمؤمنينَ، بل بكلِّ ذي عقلٍ حَصيفٍ يَحترمُ عقلَه.

ومن هنا نعرفُ سببَ عدمِ جَوازِ التَّقليدِ في أصول الدِّينِ، التي هي: التَّوحيد، العَدل، المَعاد، النبوّة، الإمامة.

ومن الفِتنَ التي ابتُليت بها الأمّةُ اليومَ فتنةُ الاعتداءِ على النّاسِ وإزهاقِ أرواحِهم، فيما سُمِّي بالإرهاب، والفِتنَ المَذهبيّة والطّائفيّة؛ حيثُ يتمُّ قتلُ الإنسان بسببِ الاختلاف في الدِّينِ أو المذهب، وقد وقعَت جرائمُ يَندى لها جبينُ الإنسانيّة، شوَّهَت الإسلامَ، وتسبَّبَت في إيذاء المسلمينَ وتَرويعهم ونهبِ أموالِهم وإتلافِها، وهذا ما لا يَرضاهُ الإسلامُ، قال -تعالى- ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**﴾ [الأحزاب:٥٨].

وقد جاء عن (الطبرسيِّ) في تفسيرِ قوله -تعالى-: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:٥٣]: «أي قاصدًا إلى قتلِه، عالمًا بإيمانه، وحُرمةِ قَتله، وعصمةِ دَمه. وقيل: مَعناهُ مُستحِلًّا لقَتلِه، عن عكرمة، وابن جريج، وجماعة. وقيل: معنى التعمُّدِ أن يَقتلَه على دينه..»[1].

فالعقلُ هنا لا بدَّ أن يأخذَ دورَه، ولا بدَّ للعُقلاءِ من تَفعيلِ هذا الدَّورِ والوقوفِ بحَزمٍ إزاءَ مثلِ هذه

١ - الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٣ ص ١٩٥.

الفتنَ، وهو الأمر الذي تحصَّلَ لَديهم من خلال استنكار هذا الأمرِ ونَعتِ أُولئكَ القَتلةِ بالظّالمينَ، وما مأوى الظّالمِ إلّا نارُ جهنَّمَ كما نصَّت الآيةُ المُباركة آنفًا.

ومن الفِتنَ النَّوعيّة أيضًا، التي أشار إليها الشَّرعُ في القرآن الحَكيم، وشخَّصَها العقلُ الحَصيفُ: فتنةُ المال، وتكون في جميع ما يَملكُه الإنسانُ من الأموال، سواءٌ من الذَّهب، أو الفضّة، أو الحَرث، أو البهائم؛ يقول الله -تعالى-: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وفتنةُ الوَلد: إذ قد يُبتلى المرءُ في وَلدِه، قال -تعالى-: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [التغابن:١٥].

ولعلَّ أهمَّ ما ابتُلينا به في الوقتِ الحاضرِ، كما ابتُلي به الأقوامُ من قَبلِنا: فتنةُ التعصُّبِ القوميّ، تلكَ التي تكونُ بينَ قبيلتَينِ، أو قريتَينِ، أو دَولتَينِ، وقد حدثَتْ حروبٌ داميةٌ بين الأَوْس والخَزْرج في الجاهليّة، استمرَّت قرابةَ مائةٍ وأربعينَ سنةً، ولم تَنتهِ إلّا بعدَ بُزوغِ نورِ الإسلامِ وهجرةِ النبيِّ ﷺ إلى يَثرب، فشرَحَ اللهُ صدورَهُم للإسلامِ، وهَداهُم إليه، وألَّفَ به بينَ قلوبِهم، بعدَ أن كانوا أعداءً.

وقد مَنَّ الله عليهم بهذا التأليف بينَ قلوبهم؛ فقال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والعقلُ يَحكم بأنَّ هذا الخطابَ لم يكنْ خاصًّا بأهلِ يَثرب فقط، بل هو جارٍ في حُكمه إلى وقتنا الحاضر، فلا بدَّ أن نَستلهمَ العبرَ بعدَم جَواز الاقتتال بينَ الإنسان وأخيه الاّ لضرورة الدِّفاعِ المَشروع. أمّا الاختلافُ المَذهبيُّ فلا يُبرِّرُ الاقتتالَ والحروبَ الدَّمويّةَ بينَ المسلمينَ. بل يَصبُّ في مصلحة المُستعمرينَ وأعداء الأمّة، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريم من ذلك أشدَّ التَّحذير قائلًا: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال:٤٦].

الخاتمة

لا يَصحُّ لأيِّ باحث عن المعرفة أن يدَّعي أنَّه توصَّلَ إلى نتائجَ نهائيّة من بحثه، وأنَّ جميعَها تتَّصفُ بالصِّحة، فذلكَ أمرٌ لا يتحصَّلُ إلاّ لِمَنْ عصمَه اللهُ تعالى، وعليه فإنَّ هذه النَّتائجَ، التي سوفَ أُدرجُها، إنَّما تمُثِّلُ ثمراتٍ اقتطفتُها من شجرةِ المَعرفة، وفيها الغَثُّ والسَّمين، فإنْ وُفِّقتُ في اجتناءِ السَّمينِ منها واليانعِ النّافعِ، فبفضلِ توفيقِه لي سبحانه وتعالى، وإن انحصرَ قِطافي على الغَثِّ فقط، فتلك من آثارِ ذُنوبي التي أثقلَت ظَهري ومَنعتْني النَّظرَ فيما هو نافعٌ للباحثينَ وطُلّابِ الحقيقةِ، وأنا أعوذُ بالله الرَّؤوفِ الرَّحيمِ من غضبِه وأسألُه المَغفرةَ، وهذه بعضُ قطوفي الدّانية:

إنَّ القرآنَ الكريمَ ركَّزَ في كثير من آياته المُباركاتِ على أهميّةِ العَقلِ، وكان الخطابُ فيها مُوجَّهٌ إلى العقلِ والعُقلاءِ، وتلكَ إشارةٌ مُهمّة إلى إمكانيّة تَغييرِ القَناعاتِ عن طريقِ تكرارِ مُخاطبةِ العُقولِ وتَحكيمِها في صالحِ الأمورِ، وذلك بما أودعَه -سبحانَه- فيه من الإمكاناتِ والقابليّاتِ في الانتقالِ من القُبحِ إلى الحَسَنِ من الأمور.

١. إنَّ للعقلِ دورًا محوريًّا في تَشخيصِ الفِتنِ والتَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، إذ يُعدُّ أداةَ الإنسانِ الأساسيّةَ للإدراكِ، من خلالِ تَحليلِ الفردِ للأحداثِ والمَواقفِ، وتقويمِ المَعلوماتِ، واتِّخاذِ القراراتِ الصّائبةِ، التي تُجنِّبُه الوقوعَ في الفِتنَ.

٢. إنَّ للعقلِ الأثرَ البالغَ في تغيير قناعاتِ الإنسانِ الخاطئةِ وإعادتِه إلى جادّةِ الصَّوابِ والحِكمة.

٣. إنَّ للعقلِ الدَّورَ البارزَ في تشخيصِ الفتنِ النَّوعيّة في كلِّ مُستوياتِها الفرديّةِ والجَمعية، الاجتماعيّةِ، والاقتصاديّةِ، والسِّياسيةِ والنَّفسيّةِ.. ونحوها.

٤. إنَّ العقلَ يُسهم في معالجةِ الفِتنَ وتَوجيهِ الإنسانِ إلى الصَّوابِ، ويَضمنُ له الفوزَ والنَّجاةَ في الدّارَين، وبعكسِ ذلك وردَ الذمُّ في الشَّرعِ المُقدَّسِ للذينَ يُغيِّبونَ العقلَ ولا يُعملونَه في فَهمِ ما يَدورُ حولَهم فيما يتعلَّقُ بالإنسانِ والكونِ، والإنسانِ وربِّ الكونِ، والإنسانِ وأخيهِ الإنسانِ.

٥. إنَّ فهمَ النُّصوصِ الشَّرعيّةِ فهمًا صَحيحًا، من خلالِ إعمالِ العقلِ، من شأنه أن يُجنِّبَ الإنسانَ التَّنطُّعَ في الدِّينِ، وإصدارَ الفتاوى المُغرِضةِ والمُفرِّقةِ بينَ أبناءِ المجتمعِ الواحدِ، والمُؤدِّيةِ إلى التَّهاونِ في أحكامِ الشَّريعةِ السَّمحاء.

٦. إنَّ الفكرَ الإسلاميَّ حذَّرَ من انتشارِ الخرافاتِ التي تُكبِّلُ دورَ العَقلِ في إدارةِ الحياةِ، مثل السِّحرِ والشَّعوذة، وهي بدَورِها تُؤدِّي إلى الانحرافِ العَقديِّ لدى المُكلَّفينَ والوقوعِ في الفِتنِ.

٧. إنَّ تنميةَ التَّفكيرِ النَّقديِّ والاعتمادِ على العقلِ في فهمِ الأمورِ الحياتيّةِ هو من الوسائلِ المُهمّةِ في مُحاربةِ دَسائسِ الماديِّينَ والمُلحدينَ.

٨. يَدعو الباحثُ الأمّةَ إلى تَحكيمِ العقلِ في كلِّ شيءٍ، والعودةِ إليه، واتِّباعِ الحِكمةِ الصّادرةِ عنه، إذ في ذلك حياةٌ لها، وعكسُه الموتُ في الدُّنيا والخسرانُ في الآخرة..

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، شرح محمد عبده، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى (د. ت).
- جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، ط ١-١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
- جعفر عباس حاجي، الأفكار والدوافع اللاشعورية وأثرها على تحريف الحقائق، الناشر: دار المحجة البيضاء - بيروت، ط- ١٤٣٤هـ / ٢٠١٢م.
- جعفر عباس حاجي، فقه وفلسفة المنهاجية التكاملية التوحيدية من منظور إسلامي، الناشر: دار المحجة البيضاء- بيروت، ط١- ١٤٣٤هـ / ٢٠١٢ م.
- جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، الأذكياء، الناشر: مكتبة الغزالي، ط١- ١٤٤٢هـ / ١٩٨٥م.
- جميل صيبا، علم النفس، الناشر: دار الكتاب اللبناني، ط ٢ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- حسن بن علي البجنوردي، منتهى الأصول إلى علم الأصول، مطبعة النجف- العراق، ط-١٩٦٠م.
- الحسن بن علي البحراني، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر غفاري، الناشر: مكتبة دار الكتب الإسلامية- طهران، ط١- ١٣٧٦هـ/١٩٧٥م.
- حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، ط- ١٤٠٨هـ.
- حميدة الأعرجي، فقه الأخلاق في الشرائع السماوية، الناشر: دار أمجد للنشر والتوزيع، عمَّان - الأردن، ط١- ١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م.
- الصدوق محمد بن علي بن بابويه (الصدوق)، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قُم – إيران (د. ت).

- عبد الهادي الفضلي، مبادئ أصول الفقه، الناشر: مركز الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط- ٢٠٠٧م.
- عمر بن محمد النسفي، العقائد النسفية، الناشر: دار الكتاب اللبناني، ط ٢ - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء والمحققين، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ط١- ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- الفضلي عبد الهادي، دروس في أصول فقه الإمامية، تحقيق ونشر: مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر، ط١- ١٤٢٠هـ.
- محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، الناشر: دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط٢- ١٤٠٦هـ.
- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الناشر: دار الوفاء - بيروت، ط٢- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- محمد باقر المجلسي، مرآة العقول، طبع: إيران (د. ت).
- محمد بن الحسن (الحر العاملي)، الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، منشورات مكتبة المفيد- قُم – إيران (د. ت).
- محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير، الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي، دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة الأولى (لا. ت).
- محمّد بن الحسن الطوسي، تهذيب الأحكام، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الأولى، (د. ت).
- محمد بن عبد الله (ابن عربي)، التجليات الإلهية، الناشر: مركز نشر دانشگاهي – طهران، ط- ١٩٨٨م.
- محمد بن علي (ابن بابويه القمي)، من لا يحضره الفقيه، أشرف على تصحيحه والتعليق عليه: العلامة حسين الأعلمي، الناشر: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١- ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- محمد بن علي الشوكاني، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، الناشر دار الجيل- بيروت، ط- ١٩٧٣م.
- محمد بن علي (ابن أبي جمهور الأحسائي)، عوالي اللآلي العزيزية في الأحاديث الدينية، تحقيق: السيد المرعشي ومجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء- قُم- إيران، ط١- ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- محمد بن محمد (صادق الصدر)، ما وراء الفقه، الناشر: المحبين للطباعة والنشر، قُم- إيران، ط٣- ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ط- ١٩٨٢م.
- محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، مطبعة دار احياء التراث العربي، الناشر أدب الحوزة، ط١- ١٤٠٥هـ.
- محمد بن يعقوب (الكليني)، الكافي، تحقيق: علي أكبر غفاري، مطبعة الحيدري، دار الكتب الاسلامية قُم- إيران، ط٤- ١٣٦٥هـ.
- محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، النجف الأشرف: العراق، ط٢- ١٩٧٩م.
- محمد تقي المدرسي، الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، الناشر: دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر - بيروت، ط ١- ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، صحّحه وأشرف على طباعته: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: منشورات مؤسسة الأعلمي: بيروت - لبنان، ط١-١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- محمود الهاشمي الشاهرودي، بحوث في علم الأُصول، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قُم - إيران، ط٢- ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، الناشر: دار الفكر – بيروت، (د. ت).
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ترجمة وتنقيح: محمد علي آذرشب، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية- قُم – إيران، ط- ١٤٠٩ه.

- يوسف بن أحمد البحراني، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، تحقيق: محمد تقي الأيرواني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين – قُم – إيران، (د. ت).

البحوث:

- فاضل مدب المسعودي، الشعور واللاشعور الإنساني وعلاقته بالإعجاز القرآني، بحث منشور في مجلة الذكر، العدد الأول، كربلاء- ٢٠٢٢م.
- محمد تقي الكرمي، العقل في الفقه الشِّيعي..الماهية والوظائف (القسم الثَّاني)، ترجمة: كمال السَّيد، مجلة المنهاج، مركز الغدير للدراسات الاسلامية، العدد: (٢٨)، السنة السابعة- ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

الإعلامُ ودورُه في تعزيز الأمان الفكريِّ من منظور قرآنيٍّ

◆ د. محمد محمود مرتضى[1]

■ **خلاصة**

يَتناول هذا البحثُ قضيّةً مركزيّةً في المشهد المعرفيِّ المعاصر، تتمثَّلُ في دور الإعلام في تعزيز الأمان الفكـريِّ من منظور قـرآنيٍّ، في ظلِّ عالمٍ تتقاذفُـه الخطاباتُ، وتتنازعُه التأثيراتُ المُتعـدِّدةُ. وقد انطلقَ البحثُ من تسـاؤلٍ جوهريٍّ عن الكيفيّة التي يمُكنُ للإعلام المسـتلهم من روح القرآن أن يُسهمَ في بناء وعي راسـخٍ، يَحمي العقولَ من التَّشويش، ويُحصِّنُ القلوبَ من الانجراف خلفَ الشُّبهات. وقد سَعى البحـثُ إلى اسـتنطاق المنهج القرآنيِّ في التَّعاملِ مع الخطاب والإبـلاغ والحوار ومواجهة الانحرافات الفكريّـةَ، مُبرزًا الخصائصَ التي تمَنحُ الإعلامَ رسـاليّتَه، كالتَّثبُّت والعَـدل والحكمة والبَصيرة، ومُحلِّلًا كيفيّـةَ تفعيلِ هـذه الخصائص في واقعٍ إعلاميٍّ معـاصر يُواجهُ تحدِّيات الهَشاشـة المَعرفيّة والانفجار المَعلوماتيِّ والتَّضليل الرَّمزيّ. كما أولى البحثُ الشَّـبابَ اهتمامًـا خاصًّا، بوصفهم الفئةَ الأكثرَ عُرضةً لتأثير الإعلام، والأشدَّ حاجةً إلى خطاب متوازن وعميق، قادر على الجمع بينَ الجاذبيّة والمَرجعيّة. وقد أبرزَت الدِّراسـةُ ضرورةَ التحوُّل من الفعل الإعلاميِّ التلقائيِّ إلى مشروع إعلاميٍّ قرآنيٍّ واعٍ، يُجسِّـدُ قِيَمَ الرِّسـالة في لغته وأدواته ومَقاصده، ويتجاوزُ ثنائيّةَ الدِّفـاع والتَّلقين إلى أفق التأثير والتَّنوير، انطلاقًا من توازُن قرآنيٍّ دقيق يَجمع بينَ الإنذار والتَّبشير، وبينَ النَّقد والبناء، وبينَ مخاطبة العقل وتَحريك الوجدان. وتُختَتَمُ الدِّراسةُ بجملة من المُقترحات التَّطبيقيّة التي تمُهِّدُ لبناء إعلام مُؤمن وحديث في آنٍ واحد، يُعيدُ للكلمة مَعناها، وللخطاب مَسؤوليّتَه، وللرِّسالة طريقَها إلى القلوب والعقول.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم - الإعلام - الأمان الفكريّ - البَصيرة - الانحرافات الفكريّة - الشباب.

1 - مدير مركز براثا للدراسات والبحوث، ورئيس تحرير مجلة "تبيين للدراسات القرآنية"- لبنان.

المقدِّمة

في زمنٍ تتسارعُ فيه موجاتُ المَعلوماتِ، وتتداخلُ فيه الأصواتُ والخطاباتُ، وتَختلطُ فيه الحقائقُ بالشُّبهات، يَغدو الأمانُ الفكريُّ ضرورةً لا غِنى عنها، من أجل البقاءِ الواعي في قلب هذا الإعصارِ المَعرفيِّ المُعولَمِ.

فالعقلُ البشريُّ المعاصرُ باتَ مُحاطًا بسَيلٍ مُتواصلٍ من الرَّسائلِ الإعلاميّة التي تتَّجهُ إلى تكوين وَعيه، وتَوجيه مَواقفه، وصياغة تَصوُّراته عن الدِّين، والإنسان، والكون، والحَياة. وفي خضمِّ هذا الواقعِ، تَظهر الحاجةُ إلى مَرجعيّة ثابتة لا تَذوبُ في تقلُّباتِ الثَّقافة، ولا تتأثَّرُ بإغراءات السُّوق الإعلاميِّ. وهذه المَرجعيّةُ لا تتحقَّقُ - في التصوُّرِ الإيمانيِّ - إلا عبرَ القرآن الكريم، بوَصفه المَصدرَ الأعلى للحقِّ، والمِعيارَ الأقومَ للتَّمييزِ، والحصنَ الأوثقَ للعقلِ من التِّيه والاضطرابِ.

إنَّ الأمانَ الفكريَّ في الرُّؤية القرآنيّة هو حالةٌ معرفيّةٌ مُتوازنةٌ تقومُ على الوضوح في الرُّؤية، والثَّبات في القيَم، والانفتاحِ الواعي على العالَم دونَ الوقوعِ في براثنِ الذَّوبان أو الانسلاخ. إنَّه أمانٌ نابعٌ من نور الهداية، ومن استقامة القلب والعقلِ على الصِّراط المُستقيم الذي يَصفُه الله -تعالى- بقوله: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. ومن هذا المُنطلَق، لا يُمكنُ فصلُ الحديث، عن الأمان الفكريِّ، عن الوظيفة الإعلاميّة في المُجتمع؛ إذ إنَّ الإعلامَ، بما له من قدرة على التَّوجيه والتأثير، قد يكون أداةَ بناءٍ أو أداةَ هدم، وسِلاحًا للوَعي أو وسيلةً للتَّضليل، بحسب المَرجعيّة التي يَستندُ إليها، والمقاصدِ التي يَخدمُها، والمنهجِ الذي يَسيرُ عليه.

ولأنَّ الإعلامَ بات اليومَ شريكًا أساسًا في تشكيل الثَّقافة العامّة، فإنَّ سُؤالَه من زاويةٍ قرآنيّةٍ يُعدُّ

ضرورةً حضاريّةً، تَفرضُها حاجةُ الأمّة إلى خطاب إعلاميٍّ يُنيرُ البَصائرَ، ولا يُثيرُ الغرائزَ، ويَزرعُ اليَقينَ لا الشكَّ، ويُعزِّزُ الثِّقةَ لا التوجُّسَ، ويُقوِّي التماسُكَ الدّاخليَّ بدلَ أن يُكرِّسَ التمزُّقَ والتَّنازعَ. وهنا يَطرح هذا البحثُ سؤالَه المركزيَّ: كيف يمُكن الإعلامَ، حينَ يَستلهمُ القيَمَ القرآنيّةَ، أن يتحوَّلَ إلى عامل فاعلٍ في ترسيخ الأمانِ الفكريِّ، ومُقاومةِ الانحرافاتِ الذِّهنيّةِ التي تَعصِفُ بالمُجتمعات؟

يَسعى هذا البحثُ إلى تقديم قراءة تحليليّة قرآنيّة لدَورِ الإعلام في حفظ التَّوازنِ العقليِّ والنَّفسيِّ والفكريِّ، من خلال استنطاق الآياتِ المباركة التي تُعالِجُ مَوضوعاتِ: البَلاغ، البَيان، البَصيرة، التثبُّت، الصِّدق، التَّمييز بينَ الحقِّ والباطل، وغيرَها من المفاهيم التي تتقاطعُ جوهريًّا مع فلسفة الإعلام. كما يُسلِّط الضَّوءَ على خصائص الخطابِ الإعلاميِّ القرآنيِّ، بما فيه من التَّوازنِ بينَ البشارةِ والإنذارِ، والحِكمةِ والمَوعظة، والتَّوضيحِ والتأنِّي، بما يَجعلُه نموذجًا مُلهِمًا في ظِلِّ الفَوضى الإعلاميّةِ المُعاصرةِ التي تتَّسِمُ بالاستعجالِ، والتَّضليلِ، والتأجيجِ العاطفيِّ.

ويَسعى البحثُ أيضًا إلى تقديم مُقترحاتٍ تَطبيقيّةٍ لإعلامٍ قرآنيٍّ مُعاصرٍ، يَستطيعُ أن يُواجهَ تحدِّياتِ العَصرِ بلغة رشيدة، وأن يُخاطِبَ الإنسانَ المعاصرَ بعُمقٍ، دونَ تَفريطٍ في الثَّوابتِ أو انسياقٍ وراءَ موضاتِ الطَّرحِ السَّطحيِّ. وهو في كلِّ ذلك يَستلهِمُ من القرآنِ الكريمِ نصوصَه، ورُوحَه، ومَنهجَه في التَّعاملِ مع العقلِ، والفِكرِ، والاختلافِ، والانحرافِ، والإصلاح.

بهذه الرُّؤية، يتَّخِذُ هذا البحثُ مسارَه ليُؤسِّسَ لفَهمٍ أعمقَ للدَّورِ الذي يمُكِنُ أن يُؤدِّيَهُ الإعلامُ في حماية الوَعي من التشوُّه، وتَرسيخِ الأمانِ في الفضاءاتِ الفكريّةِ المُتنازعة، مُستندًا في ذلك إلى الكتابِ الذي لا يأتيهِ الباطلُ من بين يدَيهِ ولا من خلفِه، تَنزيلٌ من حَكيمٍ حَميد.

أولًا: الإعلام في القرآن الكريم - الوظائف والأدوار

١- الإعلام بوصفه أداةَ تَبليغ وهِداية في القرآن الكريم

مِن أولى الوَظائفِ التي يتجلَّى فيها الخطابُ الإعلاميُّ في القرآن الكريمِ، هي وظيفةُ التَّبليغِ،

التي كانَت جوهرَ مُهمّة الأنبياءِ في تاريخِ الرِّسالات. فالرِّسالةُ لا تقومُ من دون بلاغٍ، والبَلاغُ لا يتحقَّقُ إلا عبرَ وسيطٍ بيانيٍّ قادرٍ على حمل المَعنى وتَوصيله، سواء بالكلمة أم بالفعلِ أم بالموقف. وقد أكَّدَ القرآنُ على هذه الوظيفة بقوله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة:٦٧]، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّبليغَ هو شرطُ وجودِ الرِّسالةِ نفسِها.

وفي ضوءِ هذه الآيةِ، يَظهر الإعلامُ - بمفهومِه القرآنيِّ - باعتباره أمانةً ومسؤوليّةً خُلُقيّةً، تُبنى على الصِّدقِ والنِّيةِ الصّافيةِ ووضوحِ المَقصد. وهذا ما يَجعل من وظيفةِ الإعلامِ هنا وظيفةَ هدايةٍ، وتبصُّر. فالقرآنُ يُحمِّلُ الإعلامَ مَضمونًا قِيَميًّا، ويَجعل من وظيفتِه التَّبليغيّةِ دعوةً إلى الحقِّ، لا مُجرَّدَ نقلٍ للمعلومة. وقد أُمرَ النبيُّ ﷺ أن يكون مُبشِّرًا ونَذيرًا، وهو ما يُحوِّلُ البَلاغَ إلى حركة وعيٍ مُستمرّة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [الفرقان:٥٦].

هذا النَّوعُ من التَّبليغِ القرآنيِّ يتطلَّبُ بلاغًا مُبينًا، لا غموضَ فيه ولا لَبْسَ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ**﴾ [إبراهيم:٥٢]، أي إنَّه خطابٌ مقصودٌ به التَّوعيةُ العامّةُ، يَخرجُ من حيِّزِ النُّخبةِ إلى فضاء العُمومِ، وهو مُنفتحٌ على كلِّ مَن يُريدُ السَّماعَ والتفكُّرَ، لكنَّه لا يَفرضُ نفسَه قَسرًا، ولا يُمارسُ القَهرَ الرَّمزيَّ كما تَفعلُ وسائلُ الإعلامِ المُعاصرةِ في كثيرٍ من الأحيانِ، حينَ تَستثمرُ قوّتَها التِّقنيّةَ لتَوجيهِ الرَّأي العامِّ ضمنَ قوالبَ جاهزةٍ.

٢- الإعلامُ باعتباره وسيلةً مقاومةً للتَّضليلِ والإفكِ

إنَّ وظيفةَ الإعلامِ القرآنيِّ تتعدَّى نقلَ الحقِّ فحسب، إلى مُقاومةِ الباطلِ والردِّ على حَملاتِ التَّضليلِ، وهو ما يَظهر بوضوحٍ في تعامُلِ القرآنِ مع ظاهرةِ الإفكِ، بوَصفِها واحدةً من أخطرِ صُوَرِ التَّزويرِ الإعلاميِّ. لقد قدَّمَ القرآنُ نموذجًا بليغًا في مُعالَجةِ هذه الظّاهرةِ في سورة النُّور، عندَما قال: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾ [النور:١١]، ففَضحَ آليّةَ صناعةِ الخبرِ الكاذبِ، وبيَّنَ كيفَ تتحوَّلُ الشّائعةُ إلى مَوجةٍ، ثمَّ إلى قناعةٍ اجتماعيّةٍ زائفةٍ إنْ لم تُواجَه بالتثبُّتِ.

هذا الوعيُ القرآنيُّ بخطورةِ الإعلامِ المُضلِّلِ يَجعلُ من وظيفةِ الإعلامِ الهادفِ وظيفةً تَصحيحيّةً،

تَسعى إلى إعادة التَّوازُن إلى الوَعي، وتَبديد الضَّباب الذي تُخلِّفُه الخطاباتُ الزّائفةُ، سواءٌ أكانَت باسم الدِّين أم باسم الحرِّية. وقد وردَت في القرآن إشاراتٌ عديدةٌ إلى هذا النَّوع من الخطاب، مثل قوله -تعالى-: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا**﴾ [الإسراء:٣٦]، وهو توجيهٌ إلى تحرِّي اليَقين، وتجنُّب القول بغير علم، وهذا يكوّن قاعدةً ذهبيّةً في كلِّ مُمارَسة إعلاميّة مَسؤولة.

بل إنَّ القرآنَ لم يَكتف بالتَّحذير من الكذب؛ حيث فضح بنيتَه ووظيفتَه، حينَ وصفَ الشَّيطانَ بأنَّه يَعدُهُم ويمُنِّيهم وما يَعدُهُم الشَّيطانُ إلا غُرورًا [النساء: ١٢٠]، وهو تَصويرٌ دقيقٌ لِما تَقومُ به وسائلُ التَّضليل من وعود كاذبة وتصوير زائف للواقع، وهذا ما يَدعو إلى ضرورة وجود خطاب إعلاميٍّ قرآنيٍّ يَنقضُ هذه البنيةَ من الدّاخل، ومن خلال كشف المُغالَطات وإعادة تَرتيب المَعاني في ضوء الحقِّ.

٣- الإعلام القرآنيُّ بوَصفِه صَوتًا للحقِّ في مُواجَهة الباطلِ

في ظلِّ هذا التصوُّر، يتحوَّلُ الإعلامُ إلى ساحة صراع بينَ الحقِّ والباطل، من مُنطلَق قُرآنيٍّ عميق يَرى أنَّ للباطلِ آليّةَ اشتغال، وأنَّ له إعلامَه، وأنَّ مقاومتَه لا تكونُ بالصَّمت، بل بإعلام يَقفُ في وجهه بثَبات وحجّة وهدًى. وقد أشار اللهُ -تعالى- إلى طبيعة هذا الصِّراع بقوله: ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [الأنبياء:١٨]، فالحقُّ يَقتحمُ ساحةَ الباطلِ بما فيه من نورٍ، ويُظهرُ زَيفَه ويُقوِّضُه، ولا يَكتفي بالدِّفاع.

هنا تَبرزُ الطَّبيعةُ الجهاديّةُ للإعلام القرآنيِّ، فهو ممارسةٌ رساليّةٌ، تقعُ في صلب المُواجهة بينَ القِيَم الإيمانيّة ومَنظومات الإفساد والانحراف. وهذا ما يَجعلُ الإعلامَ في القرآن من أشكال الجهاد بالكلمة، لا سيَّما حينَ يقولُ -تعالى-: ﴿**فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان:٥٢]، أي بالقرآن، لا بالسَّيف، وهذا الخطابُ مُوجَّهٌ في سياق إعلاميٍّ؛ حيثُ كانَت قريشٌ تمُارسُ حَربًا كلاميّةً ضدَّ النبيِّ ﷺ، فجاءَ الردُّ القرآنيُّ ليُؤكِّدَ أنَّ البيانَ والبلاغَ هما سلاحُ المُواجهة الأرقى.

وهكذا، فإنَّ الإعلامَ القرآنيَّ يتحدَّدُ بسياقِ مَضمونِ القَولِ، ومَقصده، وأثرِه في حفظِ الوَعي وحمايةِ المُجتمعِ من الفتنِ الفكريّةِ والمَعرفيّةِ. إنَّه رسالةٌ هادفةٌ تَبني وتُوقظُ وتُبَصِّرُ، وهو بذلك يَتجاوزُ كلَّ التَّنظيراتِ الحَديثةِ حولَ الإعلامِ؛ لأنَّه يَرى الإنسانَ عَقلاً وقلبًا ورُوحًا، ويُخاطِبُه بما يُناسِبُ كرامتَه الإنسانيّةَ وهدفَ وجودِه في هذا العالمِ.

هذا الإدراكُ الشّاملُ لوظائفِ الإعلامِ، في القرآنِ، يمُهِّدُ للانتقالِ إلى فهمِ أعمقَ لخصائصِ هذا الإعلامِ، والكيفيةِ التي يُسهِمُ بها في تَعزيزِ الأمانِ الفِكريِّ، وهي ما سيَتناولُه الفصلُ الآتي.

ثانيًا: خصائصُ الإعلامِ الهادفِ في ضوءِ القرآنِ الكريم

إذا كان ما تقدَّمَ قد أضاءَ على الوظائفِ الجَوهريّةِ للإعلامِ كما تجلَّتْ في الخطابِ القرآنيِّ، فإنَّنا هنا نَسعى إلى استخراجِ الخَصائصِ التي تُمَيِّزُ الإعلامَ القرآنيَّ، بوَصفه نَموذجًا هاديًا ومَنهجيًّا للإعلامِ الذي يَحترِمُ العقلَ، ويَحمي الوَعيَ، ويُعزِّزُ الأمانَ الفكريَّ. فليس كلُّ إعلامٍ هادفًا بالضَّرورةِ؛ إذ إنَّ الهادفيّةَ في منطقِ القرآنِ لا تتحدَّدُ بمجرَّدِ النيّةِ، بل تتجلَّى في المَنهجِ والمَضمونِ والأثَرِ. من هنا، تَبدو ضرورةُ الكشفِ عن السِّماتِ الأساسِ التي يُفترض أن يَحملَها الخطابُ الإعلاميُّ المأمونُ والواعي، إذا أرادَ أن يَستلهِمَ من القرآنِ قِيَمَه، ويَنخرطَ بفاعليّةٍ في مُواجهةِ التَّشويشِ الفِكريِّ والانحرافِ المَعرفيِّ.

١- الصِّدقُ والأمانةُ في نقلِ المَعلومة

من أبرَزِ الخَصائصِ التي يُؤكِّدُها القرآنُ، في أيِّ خطابٍ يَتعامَلُ معَ النّاسِ، الصِّدقُ، ليسَ فقطْ في اللَّفظِ، بل في القَصدِ والمَعنى والبنيةِ. فالصِّدقُ في الإعلامِ القرآنيِّ هو التزامٌ بالحَقيقةِ، وإخلاصٌ في نَقلِها، وتحفُّظٌ في التَّعامُلِ مع الجزئيّاتِ المَشكوكِ فيها. وقد جعلَ القرآنُ من التثبُّتِ شَرطًا أوليًّا قبلَ نشرِ أي خبرٍ، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات:٦]، هذه الآيةُ تُقيم ميزانًا خُلُقيّات حادًّا بينَ الإيمانِ والتسرُّعِ، وتَربطُ بينَ الصِّدقِ ومآلاتِ الفعلِ الإعلاميِّ، فكأنَّ الصِّدقَ لا يُقاس بمُجرَّدِ صدقِ النِّيةِ، بل بصِدقِ الأثَرِ، وتَفادي الظُّلمِ.

الصِّدقُ في الإعلام إذنْ هو حجرُ الأساس في بناء الثِّقة بينَ الخطاب الإعلاميِّ والمُتلقِّي، وهو ما نَفتقدُه في كثير من الوسائط المُعاصرة؛ حيثُ تُغلَّفُ الأكاذيبُ بثياب "الرَّأي الحرِّ" أو "وجهة النَّظر"، على حين أنَّ الخطابَ القرآنيَّ يَجعلُ من الصِّدق معيارًا وجوديًّا لا يُمكنُ التَّهاونُ فيه؛ لأنَّه يتعلَّقُ بالحقِّ، والحقُّ لا يَحتملُ التَّزييفَ. بل إنَّ الإفكَ، بوَصفه الكذبَ الذي يُلبَسُ ثوبَ الحَقيقة، اعتبرَه القرآنُ فاحشةً عظيمةً [النور: ١٦]، ممّا يَرفعُ سقفَ المَسؤوليّة الإعلاميّة إلى مُستوى قُدسيٍّ في ضوءِ الهَدي القرآنيِّ.

٢- العَدل والمَوضوعيّةُ في الطَّرح الإعلاميِّ

العدلُ في الإعلام يتجلَّى في تحقيق التَّوازن بينَ أطراف الحَقيقة، وتجنُّب الانزلاق إلى خطاب التَّشويه أو الإقصاء. والقرآنُ يَربطُ بينَ العَدل والتَّقوى، ففي قوله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة:٨]، تُقدِّمُ هذه الآيةُ مَنطقًا مُغايرًا للعَدالة الإعلاميّة: فهي تَنطلقُ من المَسؤوليّة الخُلُقيّة أمامَ الله، ومن تَقوى القلبِ الذي لا يَسمحُ للبَغضاء أن تَطمسَ البَصيرةَ.

الخطابُ الإعلاميُّ في القرآن هو خطابٌ مَوضوعيٌّ مُنضبطٌ، لا يَميلُ بحسب المزاج أو المَصلحة، ولا يَسمحُ للهوى أن يُملي عليه زاويةَ الرُّؤية. وفي هذا السِّياق، يكونُ الإعلامُ القرآنيُّ قادرًا على إنصاف حتّى المُخالف، وعلى تَبيين الحقِّ دونَ أن يَسقطَ في فخِّ التَّنميط أو التَّحامل. وبهذا المَعنى، فالعدلُ في الإعلام هو قيمةٌ إيمانيّةٌ تُصاغ بها الكلمةُ وتُوزن بها العِباراتُ.

٣- الحكمة والموعظة الحسنة كأسلوب قرآني في الإعلام

يَسعى الإعلامُ القرآنيُّ إلى توصيل الحقيقة بطريقة حكيمة تَحفظُ للمُخاطَب كرامتَه، وتُراعي ظَرفَه النَّفسيَّ والمَعرفيَّ، وتَفتحُ له بابَ الهداية دونَ أن تُحرجَه أو تُقصيه. يقولُ الله -تعالى- ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل:١٢٥]. هذه الآيةُ ترسمُ مَلامحَ الخطاب الإعلاميِّ المأمون: الحكمةُ في اختيار الوَقت والأسلوبُ، والمَوعظةُ الحسنةُ التي تُخاطبُ القلبَ قبلَ العَقل، والمُجادَلةُ بالتي هي أحسَنُ التي تَرفعُ مُستوى النِّقاشِ وتُطهِّرُه من التهجُّم والازدراء.

الحكمةُ في هذا السِّياق لا تَعني المُراوَغةَ أو المُسايَرةَ، بل تَعني تقديمَ الحَقيقة بأحسنَ صورة، واختيارَ التَّعبيرِ الأقوَم، وعدمَ السُّقوطِ في استفزاز المُتلقِّي، أو تَشتيت ذهنه بالمُواجهات العَقيمة. والمَوعظةُ الحسنةُ هي أسلوبٌ في التَّوجيهِ يَحترِمُ مَشاعِرَ الآخَرِ ويَزرعُ الإيمانَ في قلبِه عبرَ الرِّفقِ واللِّينِ، لا عبرَ الصُّراخِ والوِصاية.

٤- احترام العقل وتفعيل مَلَكةِ التدبُّرِ لدى المُتلقِّي

القرآنُ يخاطبُ الإنسانَ بوَصفه كائنًا عاقلاً، ويَجعلُ من التَّفكيرِ والتدبُّرِ مسؤوليّةً شخصيّةً وخُلُقيّةً، كما في قوله -تعالى-: «أفلا تَعقلُونَ»، و«أفلا تَتفكَّرونَ»، و«أفلا يَتدبَّرونَ القرآنَ»، وهذه الصِّيَغُ الاستفهاميّةُ المُتكرِّرةُ هي دَعوةٌ حازمةٌ إلى تَفعيل مَلَكةِ الوَعي والنَّقدِ والتَّحليلِ، وعدمِ التَّسليمِ الأعمى لكلِّ ما يُقال أو يُبَثُّ. وهنا يَظهرُ الفرقُ الجَوهريُّ بينَ الإعلامِ الهادفِ والإعلامِ المُوجَّهِ للسَّيطرةِ: فالأوَّلُ يَدفعُ المُتلقِّي نحوَ التَّفكيرِ الحرِّ، والثّاني يُحاصِرُه ضمنَ قوالَبَ ذِهنيّةٍ جاهزة.

احترامُ العقلِ في الخطاب الإعلاميِّ القرآنيِّ يَعني أيضًا تجنُّبَ الخِداعِ، وتَقديمَ المَعلومةِ في سياقِها، وعدمَ التَّلاعُبِ بالعَواطف أو استغلالِ الجَهلِ. فالعقلُ في القرآن ليسَ ضدَّ الإيمان، بل هو حليفُه، ووَسيلتُه في فَهمِ الحقِّ. والإعلامُ الذي يُعلي من قيمةِ العَقلِ، هو الذي يُسهِمُ في بناءِ الأمانِ الفِكريِّ؛ لأنَّه يَمنحُ المُتلقِّي أدواتِ التَّمييزِ ويُحرِّرُه من التَّبعيّةِ الذِّهنيّة.

إنَّ هذه الخصائصَ الأربعَ: الصِّدق، والعَدل، والحِكمة، واحترام العَقل، تُمثِّلُ الأعمدةَ الأساس لأيِّ مشروعٍ إعلاميٍّ قرآنيٍّ، يُراد له أن يكون منارةً في زمن التِّيه، ومَلاذًا للعقلِ الباحث عن الثَّبات في وجهِ العَواصفِ الفِكريّةِ التي تُهدِّدُ المَعنى، واليَقينَ، والإنسانَ. وهي تُمهِّدُ الطَّريقَ لفَهمِ كيفَ يُسهِمُ هذا الإعلامُ الهادفُ في بناء البَصيرةِ، وهو ما سنُعالِجُه فيما سيأتي.

ثالثًا: الإعلام في بناء البَصيرة الفكريّة - قراءة قرآنيّة

إذا كانَت الوظيفةُ الأولى للإعلامِ القرآنيِّ هي التَّبليغُ والهِدايةُ، وكانَت خصائصُه تتمثَّلُ في الصِّدقِ

والعَدل والحكمة واحترام العَقل، فإنَّ ثمرةَ هذه الوظيفة وتلكَ الخصائص تتجسَّدَ في بناء البَصيرة، التي تُعَدُّ جوهرَ الأمان الفكريِّ ولُبَّ الوعي الإيمانيِّ. فالبَصيرةُ في القرآن هي نظامٌ نورانيٌّ داخليٌّ يُمكِّنُ الإنسانَ من تمييز الحقِّ من الباطلِ، والتثبُّت عندَ الفتنِ، والثَّباتِ أمامَ الشُّبهاتِ. وهي تمُثِّلُ الدَّرجةَ الأعلى من الوَعي؛ لأنَّها تقومُ على تلاقي العقلِ والقلبِ في نور الهداية.

في هذا القسم، نُحاولُ استجلاءَ دورِ الإعلام القرآنيِّ في صناعة البَصيرة باعتباره غايةً عُليا تتجاوزُ مُجرَّدَ إيصالِ المَعلومة أو مُواجهةِ التَّضليلِ، لتَصِلَ إلى بناء الإنسانِ الواعي، القادرِ على إدراكِ مَوقعِه في معركةِ القِيَمِ والمَعاني.

١- مفهومُ البَصيرة في القرآن وأثرُها في الأمان الفكريِّ

البَصيرةُ، كما وردَت في القرآن، هي نوعٌ من الرُّؤية الدّاخليّة العَميقة التي تَعبر القلبَ قبلَ أن تمرَّ بالعقلِ. يَقول الله -تعالى-: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨]، وهذه الآيةُ تَختزلُ طبيعةَ العملِ الدَّعويِّ والإعلاميِّ الذي يَقوم على نورٍ داخليٍّ. فالبَصيرةُ هي الرَّكيزةُ الأولى لأيِّ دعوةٍ راشدةٍ، وهي ما يَجعل الكلمةَ صادقةً، والموقفَ مُستقيمًا، والخطابَ نابعًا من وَعي لا من ردّةِ فِعلٍ.

البَصيرةُ في التصوُّرِ القرآنيِّ هي النَّقيضُ الجَوهريُّ للعَمى، لا العَمى الحسيّ فقط، بل العَمى الباطنيّ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]. وهذا العَمى القلبيُّ هو أساسُ الانحراف الفكريِّ، لأنَّه يَجعلُ الإنسانَ يَرى الباطلَ كأنَّه حقٌّ، أو يتشكَّكُ في الحقِّ بسبب غيابِ النُّورِ الدّاخليِّ. من هنا، فإنَّ بناءَ البَصيرةِ هو الطَّريقُ الأهمُّ نحوَ الأمان الفكريِّ، والإعلامُ حينَ يكونُ قائمًا على منهجٍ قرآنيّ، يُصبحُ من أدوات إشعالِ هذا النُّورِ في وَعي النّاس.

٢- البَصائرُ كقوّةٍ داخليّةٍ في مواجهة الشُّبهات

في أكثرَ من موضعٍ، يُشيرُ القرآنُ إلى البصائرِ بصيغةِ الجَمع، كما في قوله -تعالى-: ﴿**قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ**﴾ [الأنعام:١٠٤]، وفي ذلك دلالةٌ إلى أنَّ البَصيرةَ مَنظومةٌ

من الآيات والدَّلائلِ والمَعاني التي تَنبثقُ من الوَحي وتُعرَض على القلوبِ والعُقول، فمَن تفاعَلَ معَها بنقاءِ أبصرَ، ومَن أعرضَ عنها تاهَ. وهذا يَعني أنَّ القرآنَ ذاتَه هو المصدرُ الأوَّلُ لهذه البصائر، وأنَّ الإعلامَ المُستنيرَ بالقرآنِ لا يَنقل أفكارًا مجرَّدةً، بل يُوقِظُ في الإنسانِ تلكَ البَصائرَ التي تُعينُه على الفَهمِ والتَّمييزِ.

الشُّبهاتُ الفكريّةُ، وهي أخطرُ أدوات تشويشِ الوَعي في عصرنا، لا تُهزَمُ بالشِّعاراتِ، بل بالبَصيرةِ، لأنَّ الشُّبهةَ تُتقنُ التَّزييفَ، وتُشبهُ الحقَّ، كما أنَّ المَعلومةَ وحدَها قد لا تكفي لدَحضِها ما لم تكنْ مَقرونةً بنورِ البَصيرةِ. ومن هنا تأتي أهميّةُ الإعلامِ القرآنيِّ الذي يُخاطب الباطنَ، ويُربيِّ على العُمقِ، ويَصوغُ عَقلاً نقديًّا مُستنيراً، يَرى ما وراءَ الكلامِ، ويتحقَّقُ من المَضامينِ لا من العَناوينِ.

فالإعلامُ الذي يَقتصرُ على الرُّدودِ الظّاهرةِ، ويَكتفي بعَرضِ المَعلوماتِ، قد يُخلي السّاحةَ للشُّبهةِ لتَنتشرَ مُجدَّدًا بطريقةٍ أُخرى. أمّا الإعلامُ الذي يُنشئُ البَصيرةَ في الوَعي، فإنَّه يُكوِّنُ داخلَ المُتلقِّي مناعةً ذاتيّةً، تَنبعُ من يَقينٍ داخليٍّ صلبٍ، وهذه هي إحدى علاماتِ الأمانِ الفكريِّ القرآنيِّ.

٣- الخطاب الإعلاميُّ القرآنيُّ بوصفه صانعًا للوَعي

من أبرزِ انحرافاتِ الإعلامِ المُعاصرِ أنَّه غالبًا ما يكونُ تابعًا لا صانعًا، يتأثَّرُ بالأحداثِ أكثرَ ممّا يُؤثِّرُ فيها، ويَركضُ وراءَ العَناوينِ دونَ أن يَضبطَ إيقاعَها بمعاييرِ الحقِّ. أمّا الإعلامُ في القرآن فهو خطابٌ يَبدأُ من الوَعي وينتهي إليه، لا يَلهثُ خلفَ الرائج (Trend) ، بل يَصوغُ البوصلةَ الخُلُقيّة للحَدث. فالخطابُ القرآنيُّ لا يَستجيبُ للشُّبهات بانفعال، بل يَردُّ عليها بثَبات وعُمق، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**﴾ [القصص:٥٥]. وهذا الإعراضُ ليسَ تجاهُلاً سَلبيًّا، بل هو تعبيرٌ عن توازنٍ داخليٍّ مبنيٍّ على بَصيرة، تَجعل الإنسانَ غيرَ قابلٍ للاهتزاز بكلِّ صيحةٍ فكريّةٍ أو مَوجةٍ إعلاميّةٍ.

الوَعيُ الذي يُنتجهُ الإعلامُ القرآنيُّ هو وَعيٌ تحرُّريٌّ، يَمنحُ المُتلقِّي أدواتِ الفَهمِ والنَّقد، ويُعزِّزُ ثقتَه بعَقلِه وإيمانه، ويُحرِّرُه من سلطة الصُّورةِ والضَّجيجِ. إنَّه إعلامٌ يُربيِّ على التَّبصُّرِ، ويُعلِّمُ كيفَ نَنظرُ لا فقط أينَ نَنظرُ، وكيف نَحكُمُ لا فقط ماذا نَقرأُ.

ومن هنا فإنَّ كلَّ مَشروعٍ إعلاميٍّ يَستلهمُ القرآنَ يَجبُ أن يكونَ مَشروعًا لإعادة بناءِ الوَعي العامِّ، وورشةً لبناء العقولِ الحرّةِ التي لا تَستسلِمُ للظنِّ، ولا تُخدَعُ بالأسلوبِ، ولا تُفتَنُ بالمَظاهر.

إنَّ البصيرةَ، في منطقِ القرآنِ، هي مفتاحُ الهِدايةِ، ومركزُ الحصانةِ الفكريّةِ، والإعلامُ الذي يُغفِلُ هذا البُعدَ يَبقى عاجزًا عن تحقيق رسالته في حفظ العقلِ الجَمعيِّ من التَّشويهِ والانحراف. أمّا حينَ يَتبنَّى البَصيرةَ هَدفًا، ويَنهلُ من القرآنِ مَنهجًا، فإنَّه يكونُ مُؤسَّسةً تَربويّةً ومَصنعًا للطمأنينةِ الفكريّة. وهذا هو الدَّورُ الذي يَجب أن ننتقلَ إليه، ونحنُ نبحثُ عن إعلامٍ يُعزِّزُ الأمانَ الفكريَّ في زمن الخوفِ والتَّشويش.

رابعًا: الإعلام القرآني في مواجهة الانحرافات الفكرية

لا يُبنى الأمانُ الفكريُّ في القرآن الكريم على التجنُّبِ السَّلبيِّ للشُّبهاتِ والانحرافات، بل على المُواجهةِ الواعيةِ التي تَستندُ إلى الحجّةِ والبرُهان، وتَنطلقُ من نورِ البَصيرة. ولأنَّ الانحرافَ الفكريَّ هو خطرٌ مُلازمٌ لكلِّ عَصرٍ ومُجتمعٍ، فقد تعاملَ معَه القرآنُ بوصفه تحدِّيًا دائمًا يَستهدفُ العقلَ والقلبَ معًا، ويَحتاج إلى إعلامٍ يُواجِهُه لا يَكتفي برَصدِه. في هذا السِّياقِ، يتَّخذُ الإعلامُ القرآنيُّ دورًا وظيفيًّا يَتجاوزُ النَّقلَ والإخبارَ إلى التَّمييزِ والتَّفكيكِ والتَّصحيح، وهو ما يَجعل من حضورِه ضَرورةً في زمن التَّداخُلِ بينَ الحقائقِ والأوهامِ، وبينَ الدِّينِ المُوحى والدِّينِ المُصطنَعِ، وبينَ البَيانِ الإلهيِّ والافتراءِ الإنسانيِّ.

هنا سنتناولُ كيفَ يَتعاملُ الإعلامُ القرآنيُّ معَ الانحرافِ الفكريِّ، من خلال ثلاثِ مهمّاتٍ مُترابطة: دحضِ الشُّبهاتِ، وتَفنيدِ الزَّيفِ، وترَسيخِ ميزانِ الحقِّ. وهي مهمّاتٌ تَتكامَلُ في مشروعٍ معرفيٍّ-إعلاميٍّ، هدفُه حمايةُ العقلِ الإيمانيِّ من الاختراق.

١- دَحضُ الشُّبهاتِ وتَفنيدُ الزَّيفِ العَقائديّ

من أبرَزِ أدوارِ الإعلامِ القرآنيِّ التَّصدِّي لِما يُطرَحُ من شُبهاتٍ فكريّةٍ وعقديّة، سواءٌ تلك التي تتعلَّقُ باللهِ، أم بالوَحي، أم بالنبيِّ، أم بالتَّشريع. وقد تعرَّضَ القرآنُ نفسُه لسلسلةٍ من الحَملاتِ

المُشكِّكة، فواجهَها ببَيان جَليٍّ ومُباشر، يُحاكي العقلَ، ويَقلبُ الشُّبهةَ إلى فُرصة تَعميق للفَهم. فعندما قال المشركون: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ**﴾ [الفرقان:٤]، جاءَ الردُّ الرَّبانيُّ حازمًا، يُبيِّنُ كَذِبَهم، ويُفكِّكُ مَنطِقَهم، ويُعيدُ تَرتيبَ المَعاني في ضَوءِ الحَقيقة.

الشُّبهةُ لا تُهزم بالعاطفة، بل بالفَهم. ولذلك عمدَ القرآنُ إلى كشف بنيتها الدّاخلية، كما في قوله -تعالى-: ﴿**بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ**﴾ [الأنبياء:٥]. هذه الآيةُ لا تَنقُلُ الشُّبهةَ فقط، بل تُظهرُ اضطرابَ أصحابها، وتَعدُّدَ تأويلاتهم المُتناقضة، مما يُسقطُ مَنطقَهم دونَ الحاجة إلى ردٍّ انفعاليٍّ. وهنا تتجلَّى الوظيفةُ الإعلاميّةُ التَّفكيكيّةُ للخطابِ القرآنيِّ: إنَّه يكشفُ تهافُتَ الشُّبهةِ الدّاخليَّ، ويَجعل القارئَ يكتشفُ بنفسِه ضعفَها من خلال تَعريةِ أُسُسِها.

وحينَ يُشكِّكُ البعضُ في البعثِ أو الجَزاءِ أو الوَحي، يُقدِّمُ القرآنُ بنيةً حجاجيّةً مُتماسكةً، تُلزِمُ العقلَ وتُخاطبُ الفطرةَ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس:٧٨-٧٩]. وهذه الطَّريقةُ الإعلاميّةُ تَفتحُ أفُقًا فكريًّا جَديدًا يُعزِّزُ الإيمانَ من داخلِه، ويَمنحُ المُتلقِّي قدرةً ذاتيّةً على مُواجهةِ أسئلةِ التَّشكيك.

٢- مقاومة الإفكِ والتَّضليلِ عبرَ خطابٍ واعٍ

الإفكُ في القرآن هو تَزييفٌ مُمنهجٌ للواقعِ أكثرَ من مُجرَّدِ كذبٍ، فهو يُلبسُ الباطلَ ثوبَ الحقِّ، ويَسوقُ الباطلَ بأسلوبٍ يُقنعُ السّامعَ. وقد قدَّمَ القرآنُ في حادثة الإفك (سورة النور) نَموذجًا مُتكاملاً لكيفيّة مُواجهةِ هذا النَّوعِ من الإعلامِ الزّائف. فحينَ اتُّهِمَتْ مَن اتُّهِمَت[1] بأكذوبة كبيرة، لم يَتعامَلِ القرآنُ معَ المسألة بصيغة الدِّفاعِ العاطفيِّ، بل أقام خطابًا نقديًّا وتحليليًّا متكاملاً، يُربِّي الوَعيَ الجماعيَّ على التَّحرِّي والتَّريُّث، ويُعيد ضبطَ مَنطقِ التَّعامُلِ مع الشّائعات.

١ - لم نَذكر اسمَ التي اتُّهمت بسبب وجود خلافٍ حولَه؛ فمنهم من قال إنَّ الاتِّهامَ توجَّهَ نحوَ السيِّدة عائشة، ومنهم من قال نحو ماريا القبطية.

يقول -تعالى-: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ [النور:١٥]، وهو توصيفٌ دَقيقٌ لكيفيّة انتشار الأخبار الزّائفة، حينَ تتحوَّلُ إلى مادّة مُتداوَلة بلا تحقُّق، ويَتعامَلُ معَها النّاسُ بلا وَعي بخُطورتها. الإعلامُ القرآنيُّ هنا لا يَكتفي بإدانة الفعلِ، بل يُدرِّبُ المُجتمعَ على مقاومة آليّته، ويُعلِّمُه أنَّ التَّضليلَ لا يَنتصِرُ إلا إذا وُجِدَ مَن يَتداولُه بجَهالةٍ.

ومن هنا، فإنَّ الإعلامَ الهادفَ في ضوء القرآن يُواجهُ الإفكَ ببناء ثقافة التثبُّت، وبخَلق وَعي جَماعيٍّ يُدركُ أنَّ التَّضليلَ لا يَعيشُ في بيئة يَقظة. وهذا ما يُوجبُ على الإعلام أن يكونَ مصدرَ مُقاومةٍ لا مُجرَّدَ ناقلٍ، وأن يمُارسَ دورَه في تربيةِ الذّائقةِ الفكريّةِ، لا في مُضاعفةِ الضَّجيجِ.

٣- ترسيخ المَعاييرِ القرآنيّةِ للتَّمييزِ بين الحقِّ والباطل

الردُّ على الشُّبهة، وتَفنيدُ الزَّيف، لا يَكتملُ إلا حينَ يُستبدل الضَّياعُ بمعيار، والبَلبلةُ بميزان. وهنا يتجلَّى الدَّورُ العَميقُ للإعلام القرآنيِّ في تَثبيتِ المَعاييرِ الفكريّة، التي تَسمحُ للإنسان بأن يُميِّزَ بنفسه بينَ النُّور والظُّلمة، بينَ المَنهج الصَّحيح والدّعاوى الباطلة. يقول -تعالى-: ﴿**وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٤٢]، وهو تحذيرٌ من أخطرِ ما يُفسدُ العقولَ: خلط الحقِّ بالباطل، وتقديم الباطل بقالب حَقٍّ، وهو ما يُمارَس بكثرة في الإعلام المُعاصر تحتَ عناوينَ برّاقة مثل «الحِياد»، و«حرّية الرأي»، و«التَّعدُّدية»، لكنَّها تُستخدم أحيانًا لشَرعنة الباطلِ أو تَمييعه.

في مواجهة هذا الواقع لا يَكفي أن يُقالَ للنّاس: "هذه شُبهةٌ"، أو "هذا انحراف"، بل لا بدَّ من تأسيس الوَعي على مَرجعيّة قرآنيّة واضحة، تَجعلُ للحقِّ علامات، وللباطلِ حُدودًا. فكما أنَّ البوصلةَ لا تكونُ مُفيدةً إلا إذا عُرف بها الشَّمالُ، كذلكَ الوَعي لا يَطمئنُّ إلا إذا وجدَ معيارًا لا يَتبدَّلُ. والإعلامُ القرآنيُّ هو المَسؤولُ عن إعادة النّاسِ إلى هذا الميزانِ، وتَذكيرِهم بأنَّ المَعاييرَ تُستمدُّ من قول الله الذي لا يتغيَّرُ.

وهكذا، فإنَّ الإعلامَ القرآنيَّ في تعامُلِه مع الانحرافاتِ الفكريّةِ يُربيّ، ويُؤسِّسُ. إنَّه إعلامٌ يَغوصُ

إلى الجُذورِ المَعرفيّةِ التي تُنتِجُ الشُّبهةَ، ويُعيد بناءَ الوَعي من هناك. وبذلك، يكونُ حاميًا للأمان الفكريِّ بإضاءة الدّاخلِ، وإحياءِ نورِ البَصيرةِ في القلبِ والعقلِ معًا.

خامسًا: الإعلام القرآني وحماية الهويّة الإيمانيّة

الهويّةُ الإيمانيّةُ هي كينونةٌ حيّةٌ تَنمو وتتفاعلُ وتُواجهُ تحدِّياتٍ مُستمرّةً تُهدِّدُ صفاءَها وبقاءَها، بَدءًا من الغَزوِ الثَّقافيِّ الناعمِ، ومُرورًا بالإعلامِ المُوجَّه، وانتهاءً بإعادة تعريفِ الإنسانِ والدِّينِ والأخلاق ضمنَ منظوماتٍ فكريّةٍ بَديلة. وفي هذا السِّياق، يَغدو الإعلامُ القرآنيُّ ضرورةً استراتيجيّةً لحمايةِ هذه الهويّة، لأنَّه يَضطلعُ بمُهمّةِ تَثبيتِ الإيمانِ في النَّفسِ، وترسيخِ الانتماءِ العَميق إلى الله، والرِّسالة، والمَنهج. فالإعلامُ في الرُّؤيةِ القرآنيّة ليس قناةَ عَرضٍ، بل قناةَ غَرسٍ وتَحصينٍ، ووَسيلةً لربطِ الإنسانِ بمَركزِه التَّوحيديِّ في عالَمٍ تتنازعُه مراكزُ كثيرةٌ.

١- دور الإعلام في تعزيز ثوابت العَقيدة

القرآنُ الكريم يتعاملُ مع العَقيدةِ بوصفها حضورًا وجوديًّا في القلب والعقلِ والسُّلوك. وكلُّ خطابٍ إعلاميٍّ قرآنيٍّ لا بدَّ أن يَستبطِنَ هذه العَقيدةَ ليَبنيَ منها سياقَه العامَّ، فلا يكون مَفصولاً عنها، بل مُنطلقًا منها. يقول الله -تعالى-: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة:٢٥٧]، وهذه الآيةُ تُؤسِّسُ لخطابٍ يُخرِجُ الإنسانَ من ظلمة الجَهلِ والتَّشويشِ إلى نور الوَعي واليَقين. والإعلامُ حين يَستمدُّ من هذا النُّور، فإنَّه يُعيد ربطَ الإنسانِ بمرجعيّته الإيمانيّة، ويَجعلُه يَشعر بأنَّ الانتماءَ إلى العَقيدة منظومةٌ تُفسِّر له العالمَ، وتمَنحُه المَعنى والبوصلةَ.

إنَّ ثوابتَ العقيدة، كالتَّوحيد، والنبوّة، والمَعاد، والعَدل، والإمامة، تَحتاجُ إلى خطابٍ حيٍّ وناطق يَدخلُ في عُمقِ الوَعي، ويُحاكي التحدِّياتِ اليوميّةَ، ويُظهرُ كيف أنَّ هذه الثَّوابتَ هي شبكةٌ حيويّةٌ لحمايةِ النَّفسِ من الانزلاق في المفاهيمِ المُستورَدةِ التي تُفرِّغُ الدِّينَ من مَضمونِه.

٢- الإعلام باعتباره أداةَ تحصين من الذَّوبان الثَّقافيِّ والدِّيني

في عالم يُعاد فيه تعريفُ الإنسان وفقَ رؤية ماديّة، ويُعاد فيه تكوين المفاهيم الدِّينيّة بما يتوافقُ مع أهواء الحَداثة الغربيّة، يُصبحُ الإعلامُ القرآنيُّ ضرورةً لتَحصين الهويّة من الذَّوبان التَّدريجيِّ، الذي يَبدأُ من التَّساهُل في المُفردات، ويَمتدُّ إلى التَّنازل عن المَعاني. لقد نبَّهَ القرآنُ إلى هذا الخطر حينَ قال: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة:١٢٠]، فهو يَفضحُ البنيةَ العَميقةَ للهَيمنة الفكريّة، ويُظهرُ أنَّ محاولاتِ التَّوفيق بينَ الإيمان والرِّضا الخارجيِّ ليسَت إلا مُقدِّمات لذَوبان المَعنى الأصيل.

الإعلامُ المأخوذُ عن المنهج القرآنيِّ يُعيد تعريفَ المَفاهيم وفقَ منطق الرِّسالة، ويُفكِّكُ المُصطلحاتِ التي يتمُّ تَمريرُها تحتَ غطاء التَّنوير أو التَّسامُح أو العقلانيّة، وهو بذلك يُحصِّنُ الهويّةَ بالهجوم الإيجابيِّ، أي بطرح خطاب بديلٍ قويٍّ، مُقنعٍ، وذي جاذبيّةٍ روحيّةٍ وعقليّةٍ في آنٍ معًا.

هذا الإعلامُ يَجعل المسلمَ يتفاعلُ مع العالم من موقع القوّة، والتَّفوّق المَعنويِّ، والوضوح الدّاخليِّ، لا من موقع الانبهار أو الانسحاق. فحمايةُ الهويّة تَعني بناءَ وعيٍ مُحصَّنٍ قادرٍ على النَّقد والاختيار، وقادرٍ على رفض ما يُناقِضُ الإيمانَ دونَ أن يَنكفِئَ على ذاته أو يَهربَ من التحدِّي.

٣- معالم الخطاب الإعلاميِّ القرآنيِّ في الدِّفاع عن الهويّة

القرآنُ يَضع معالمَ كليّةً لأيِّ خطابٍ يَسعى إلى حماية الإيمان في قلب الإنسان، ويُمكِنُ اختزالُ هذه المَعالم في النّقاط الآتية:

أ- الرَّبط المُستمرُّ بالله والآخرة

فالإعلامُ الذي يَربطُ الرِّسالةَ بالله، ويَستحضرُ البُعدَ الأُخرويَّ، يَمنحُ المُتلقِّي بُعدًا روحيًّا عميقًا يُحرِّرُه من أسْر اللَّحظة، ويُعيد ترتيبَ الأولويّات في وَعيه. كما في قوله -تعالى-: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف:١١٠].

ب - التَّذكيرُ بالحق وتَثبيتُه في النُّفوس

التَّكرارُ القرآنيُّ لبعض المَفاهيم، كالتَّقوى، والصَّبر، والميزان، والجَزاء، هو تَرسيخٌ رمزيٌّ للمَعاني الأساس في الوعي العامِّ، وعلى الإعلامِ أن يَتبنَّى هذا النَّفَسَ التَّربويَّ، فيُعيد تَثبيتَ المَعنى عبرَ التَّكرارِ الواعي والمَقاصديِّ.

ت - الخطاب بهوية لغويّةٍ وروحيّةٍ مُستقلّة

القرآنُ يَصنعُ لغتَه الخاصّةَ، المُتجذِّرةَ في الوَحي والفِطرة. والإعلامُ المأمونُ يجبُ أن يتحرَّرَ من استعارة المَفاهيمِ المَسمومةِ، وأن يُعيد بناءَ مُعجمِه وفقَ معاني الإيمانِ، لا وفقَ ما يُملَى عليه من الخارج.

ث - الاستناد إلى التّاريخِ القرآنيِّ بصفته نموذجًا تربويًّا

القرآنُ لا يُقدِّمُ التاريخَ للمَعرفةِ فقط، بل للتَّربيةِ والتَّثبيتِ، كما في قصص الأنبياءِ، و(أصحابِ الكَهف)، و(مُوسى) معَ (فرعونَ)، وغيرِها. وهذه القِصصُ يُمكِنُ استثمارُها إعلاميًّا لبناءِ خطابٍ حيٍّ، يُجسِّدُ الهويّةَ في نماذجَ، ويُعلِّمُ النّاسَ كيفَ يَنتمونَ إلى مسيرةٍ إيمانيّةٍ ممتدّة.

ج - الحفاظ على وضوح المَركز الخُلُقيّ والرَّمزي:

في زمن التَّمييعِ الخُلُقيّ، يُصبح من واجب الإعلامِ القرآنيِّ أن يُعيد الاعتبارَ للمفاهيمِ المركزيّةِ كالعفّة، والحياء، والصَّدق، والشَّهادة، والأمرِ بالمعروف، لتَبقى بوصلةُ الهويّةِ حاضرةً في وَعي الفردِ والمجتمع. وهكذا، يتبيَّنُ أنَّ الإعلامَ القرآنيَّ يَحمي الهويّةَ عبرَ بناءٍ معرفيٍّ رمزيٍّ طويلِ النَّفَس، يُعيد صياغةَ الانتماءِ من الدّاخلِ، ويَصونُ الإيمانَ عبرَ التَّثبيتِ وعبرَ البَصيرةِ، وعبرَ الوَعي النَّقديّ.

سادسًا: الإعلام المُوجَّهُ للشَّبابِ من منظورٍ قرآنيٍّ

في زمن التحوُّلاتِ الكُبرى، والانفجاراتِ المَعرفيّةِ المُتلاحِقةِ، يتقدَّمُ الشَّبابُ إلى الواجهة

باعتبارهم الفئةَ الأكثرَ تأثُّرًا بالإعلام، والأشدَّ انفتاحًا على العوالم الرَّقميّة، والأكثرَ عُرضةً للانجذاب إلى ما يُعرَض من أفكار، وشُبهات، وهويّات بَديلة. لم يَعد الشَّابُ يَنتظرُ المَعلومةَ، بل تُهاجمُه آلافُ الرَّسائلِ الإعلاميّةِ في اليَوم الواحد، بعضُها ظاهرٌ وصريح، وبعضُها خفيٌّ ونفّاذٌ، وكلُّها تُسهم، بطريقة ما، في إعادة تكوين وَعيه، وتحديدِ بوصلتِه في الحياة، إن لم يكن مُحصَّنًا بنظامٍ داخليٍّ قويّ.

وفي ضوء هذه الحقيقة، يَغدو الإعلامُ المُوجَّهُ إلى الشَّباب أحدَ أهمِّ مَفاتيح بناءِ الأمانِ الفكريِّ، خصوصًا إذا ما استندَ إلى القرآن الكريم، الذي يَحضر فيه خطابُ الشَّباب بقوّة ووَعي، في قصصِ الأنبياء، وأحاديثِ الدَّعوة، ونماذجِ المجاهدينَ والصّالحينَ. فالقرآنُ يُعامِلُ الشَّبابَ بوَصفهم "طليعةً مُتقدِّمةً" في مشروع الإيمان. والإعلامُ المُستلهمُ من القرآن، حينَ يُوجَّه إليهم، يَجب أن يَعكسَ هذا المَعنى العميقَ، لا أن يَسقُطَ في التَّبسيطِ أو التَّهويلِ أو الخطابِ المُعلَّب.

١ - خصائص الخطاب الإعلاميِّ الفاعل لدى الشَّباب

ليكونَ الخطابُ الإعلاميُّ مُؤثِّرًا في الشَّباب، من منظور قرآنيٍّ، لا بدَّ أن يتَّسمَ بخصائصَ تتجاوزُ الشَّكلَ إلى الجوهر، وتَستوعبُ خصائصَ المَرحلة العُمريّة التي تَجمع بين الاندفاعِ العاطفيِّ، وحبِّ الاستقلال، وشغفِ التَّجربة، مع قابليّة التأثُّرِ العاليةِ بالمثالِ والرَّمز.

أ - الخطاب التَّفاعلي لا التَّلقيني

القرآنُ حين يخاطبُ الإنسانَ، كثيرًا ما يُشركُه في السُّؤال، كما في قوله: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر٩]، أو يَعرضُ قضيّةً تُحرِّكُ ذهنَهُ وتستفزُّ تفكيرَه، كما في قصّةِ (إبراهيمَ) عليه السلام: ﴿**قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ**﴾ [الأنبياء:٦١].

وهذا النَّوعُ من الخطاب يُناسب النَّفسَ الشّابّةَ التي تَرفضُ الخُضوعَ الأعمى، وتبحثُ عن دورِها في الفَهم والقرار. من هنا، فالإعلامُ النّاجحُ معَ الشَّبابِ يَجب أن يكونَ تشاركيًّا، مُحفِّزًا للعَقلِ، ودافعًا للتَّساؤل، لا خطابةً منبريّةً مُغلَقة.

ب - الصِّدقُ العاطفيُّ والرُّوحيّ

الشّابُّ لا يَنجذبُ فقط إلى مَن يُقنعُه عقليًّا، بل إلى مَن يُصدِّقُه وجدانيًّا. والقرآنُ مَليءٌ بالمواقف التي تُخاطبُ العاطفةَ الرّاقيةَ دونَ ابتذال، كما في حديث (يعقوبَ) عليه السلام عن حُزنه على يوسف: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٨٦]، أو في بكاءِ (يوسفَ) وهو يَستقبلُ والدَيه على العَرشِ. هذا الصِّدقُ الوجدانيُّ يَجب أن يكون حاضرًا في الخطاب الإعلاميِّ المُوجَّهِ للشَّبابِ، حتى يَشعروا أنَّ الرِّسالةَ تَنبعُ من قلبٍ حيٍّ، لا مِن جهازٍ دعائيٍّ آليٍّ.

ت - اللُّغة القريبةُ دون ابتذال

ليسَ المطلوبُ من الإعلام القرآنيِّ أن يتحدَّثَ بلغةٍ تقليديّةٍ جامدة، ولا أن يُحاكي لغةَ الشّارعِ بطريقةٍ مُصطنعة، بل أن يُطوِّرَ لغةً وسيطةً، تَجمع بين الجاذبيّةِ والرَّصانة، بينَ العُمقِ والوُضوحِ، تمامًا كما يَفعل القرآنُ حين يَستخدمُ كلماتٍ مألوفةً لكنَّها مَشحونةٌ بمَعانٍ هائلة، مثل: «نور»، «ظُلمات»، «فِطرة»، «قلب»، «بَصيرة»، وكلُّها مُصطلحاتٌ تُخاطبُ الشّابَّ في رُوحِه، لا في سَطحِه.

٢ - استثمار القِيَمِ القرآنيّةِ في مخاطبةِ تحدِّياتهم الفكريّة

الشَّبابُ اليومَ يَعيشونَ أسئلةً وُجوديّةً وفكريّةً حقيقيّةً: ما مَعنى الإيمان؟ لماذا نُصلّي؟ من أينَ نَبدأُ طريقَ الهداية؟ هل يُمكن أن نجمعَ بينَ الإيمان والانفتاح؟ ما الفرقُ بينَ العقلِ والإيمان؟ هذه الأسئلةُ لا يَكفي فيها الخطابُ الخُلُقيّ أو العاطفيُّ، بل تَحتاجُ إلى إعلامٍ يَقوم على القِيَمِ القرآنيّةِ الكُبرى، ويُعيد طرحَها بلغةِ العَصر.

أ - الحريّةُ في القرآن تَعني التحرُّرَ من القَيدِ الباطلِ

قال -تعالى-: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص:٢٦]. فالخطابُ القرآنيُّ يُؤسِّسُ لحريّةٍ حقيقيّةٍ قائمةٍ على الوَعي والاختيار، وليسَ على الغَريزةِ والانفعالِ، وهذا ما يَجب أن يُترجَم إعلاميًّا.

ب - العَقل في القرآن شريكُ الإيمان

الإعلامُ الغربيُّ كثيراً ما يُقدِّمُ العقلَ كضدٍّ للإيمان، على حين أنَّ القرآنَ يَدعو إلى التعقُّلِ والتفكُّرِ والتدبُّرِ، ويُدينُ الذينَ لا يُعمِلُونَ عقولَهم: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد:٢٤].

من هنا، يَجبُ أن يُوجَّهَ الإعلامُ القرآنيُّ إلى الشَّبابِ بطريقةٍ تُبيِّنُ أنَّ التَّفكيرَ لا يُضعِفُ الإيمانَ، بل يُقوِّيه، وأنَّ التَّساؤلَ ليسَ كفرًا، بل بداية الهِداية.

ت - القوّة في القرآن إيمانيّة ورُوحيّة

قال الله عن (أصحاب الكهف): ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ [الكهف:١٣]. هؤلاءِ لم يمَلكوا سِلاحًا ولا مالاً، لكنَّهم صَنعوا ثورةً روحيّةً في وجهِ الطُّغيان. الشّابُّ حينَ يَرى نفسَه مشروعَ مُقاومة، وصاحبَ رسالة، يتحوَّلُ إلى طاقةٍ هائلة، وهذا ما يَجب أن يُستثمَرَ إعلاميًّا بإحياء الرُّموزِ القرآنيّةِ الشّابّةِ، وتَفعيلِ سِيَرِهم لا لاعتبارهم قصّةً بل نموذجًا.

٣- الإعلام القرآنيُّ باعتباره أداةَ استنهاضٍ وبناءٍ للشَّخصية المُؤمنة

الغايةُ من الإعلام- في منطق القرآن - هي التَّحريكُ والاستنهاضُ، أي إيقاظُ الإنسان من غفلته، وجعلُه يتحرَّكُ في اتِّجاه النُّور، قال -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال:٢٤]، وهي دعوةٌ لإعلامٍ يُحرِّكُ الحياةَ في داخل الإنسانِ، ولا يَكتفي بتَجميلِ الغلافِ.

الشّابُّ بحاجةٍ إلى مَن يقول له:

- أنتَ قادرٌ أن تكون مثلَ (يوسفَ) في العِفّة، ومثلَ (موسى) في الشَّجاعة، ومثلَ (إبراهيمَ) في التَّفكيرِ الحرِّ، ومثلَ (أصحابِ الكهفِ) في التمرُّدِ الإيمانيِّ.
- ليس مَطلوبًا أن يُقالَ له فقط "كنْ صالحًا"، بل أن يُرَى في عَينِه الصّالحونَ وهم يُشبهونَه.

- ولذلك يَجب أن يعملَ الإعلامُ القرآنيُّ على:
- بناء القدوةِ الحقيقيّةِ في صورةٍ شبابيّةٍ معاصِرة، لا أن تَبقى رموزُ القرآنِ في الماضي المَعزولِ عن الواقع.
- مُواجهةِ الصُّورِ النَّمطيّةِ عن التديُّنِ، التي تُصوِّرُ الشّابَّ المُتديِّنَ ضَعيفًا أو مُعقَّدًا.
- تقديمِ الإيمانِ بوصفه طريقًا للكرامةِ والتميُّزِ والتحقُّقِ الذّاتيِّ، لا مجرّدَ واجبٍ ثقيلٍ أو عِبْءٍ اجتماعيٍّ.

إنَّ الشَّبابَ، بما يَحملونَه من طاقةٍ روحيّةٍ، وعطشٍ للمَعنى، واستعدادٍ فِطريٍّ للانتماء، هم القاعدةُ الصُّلبةُ لأيِّ مشروعِ نهضةٍ فكريّةٍ ورُوحيّةٍ. وإذا كانَ الأمانُ الفكريُّ هو الغايةَ، فإنَّ الشَّبابَ هم الرِّهانُ، والإعلامَ القرآنيَّ هو الوسيلةُ.

سابعًا: معايير الخطاب الإعلامي المأمون وفق القرآن الكريم

ليسَت كلُّ معلومةٍ تُقال إعلامًا، ولا كلُّ خطابٍ يُبثُّ يَحمل مَشروعيّةَ التأثيرِ في الوَعي الجَمعيّ. فالإعلامُ هو سلطةٌ رمزيّةٌ تُمارِسُ وظيفتَها في التَّوجيهِ والبناء والتَّهيئة، وقد تكون هذه السُّلطةُ مُصلحةً أو مُفسِدةً، هاديةً أو مُضِلّةً، بحسب المنهج الذي تتَّبعُه، والقيَمِ التي تَنطلقُ منها، والمَقاصدِ التي تَخدمُها. ومن هنا، تظهرُ الحاجةُ المُلحّةُ إلى ضبط معاييرِ الخطابِ الإعلاميِّ المأمون، أي الخطابِ الذي يُمكِنُ الوثوقُ به بوَصفِه حارسًا للأمانِ الفكريّ، وحافظًا لسلامةِ الوَعي، ومَصدرًا لبناء الإنسانِ لا تَهشيمِه.

القرآنُ الكريمُ، بوَصفِه الكتابَ الذي أنزلَه اللهُ "هدًى للنّاس"، رسمَ مَنهجًا في الخطاب، حدَّدَ فيه الملامحَ الكُبرى للكلمةِ المَسؤولةِ، والرُّؤيةَ المُتوازنةَ، والأسلوبَ النَّظيفَ، والمقاصدَ الرّاشدة.

١- التثبُّت وعدم التسرُّع في النَّقل

أوَّلُ معيارٍ قرآنيٍّ لحماية المجتمع، من الانفلاتِ الإعلاميِّ، هو التثبُّتُ، الذي يُعتبر أساسًا خُلُقيًّا

وعَقليًّا في التَّعامُلِ مع أيِّ معلومة، خصوصًا حين تكونُ ذاتَ أثرٍ اجتماعيٍّ أو فكريٍّ. يقولُ الله -تعالى-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**﴾ [الحجرات:٦]، وهي آيةٌ تُؤسِّسُ لقاعدةٍ ذهبيّةٍ في الإعلام: لا تَبنِ وَعيَكَ على نَبأٍ لم يُمحَّصْ، ولا تُبادِرْ بالنَّقلِ إلا إذا كنتَ واثقًا من صحّتِه، ولا تُسهِمْ في صناعةِ وعيٍ جماهيريٍّ هشٍّ يقومُ على الظنِّ والاحتمالِ.

وهذا التثبُّت يَشملُ المَقولاتِ الفكريّةَ والدِّينيّةَ، التي تَنتشر أحيانًا بلا تَحقيق، وتُنسَبُ إلى الدِّينِ أو العُلماءِ أو القرآن، فتُحدثُ ارتباكًا في العُقول، وتُشوِّشُ على الإيمان. من هنا، فالمعيار الأول في الخطابِ الإعلاميِّ المأمونِ هو أن يكون مبنيًّا على تحقُّقٍ علميٍّ، وتَحرٍّ مَعرفيٍّ، وتأنٍّ مَسؤول.

٢ - تجنُّب الإثارة والانفعال في الطَّرح

القرآنُ يُؤسِّسُ لنَمطٍ من الخطاب قائمٍ على السَّكينة، والوَقار، والهدوءِ الدّاخليِّ. وقد وردَ هذا المَعنى في قوله -تعالى-: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان:٦٣]، وهي ليسَت آيةً في وصف السُّلوك فقط، بل في توصيف مَنطقِ الخِطابِ وأسلوبِ التَّفاعلِ. فالإعلامُ المأمونُ يُحاورُ بالحكمةِ، ويُعالِجُ القَضايا بعُمقٍ واتِّزان.

في زمن الإعلامِ التِّجاريِّ، أصبحَت الإثارةُ أداةً تَسويقيّةً، يُستدرَجُ بها المُتلقِّي إلى العُنوان، ثم يُلقى في بحرِ الانفعالاتِ والتَّهييجِ والتَّهويلِ، وهذا الأمرُ يُربِكُ وعيَه، ويَستهلِكُ طاقتَه، دونَ أن يَمنحَهُ شيئًا يُبنى عليه. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ، فيَقيسُ أثرَ الكلمةِ بمَدى هدايتِها وصدقِها ونَفعِها بمَعزلٍ عن مَدى انتشارِها. وهو ما يُعبِّرُ عنه القرآنُ بقوله: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة:٨٣]، فالمعيارُ هنا ليس فقط «ماذا يُقال»، بل «كيف يُقال»، وبأيِّ نبرةٍ، وبأيِّ نيّةٍ.

٣- المُوازنةُ بين النَّقدِ والبناءِ، وبينَ التَّحذيرِ والتَّبشير

الخطابُ الإعلاميُّ المأمونُ هو خطابٌ مُتوازنٌ، يَعرفُ متى يُحذِّرُ ومتى يُبشِّرُ، مَتى يُقاومُ ومَتى يُرشِدُ، متى يُنكِرُ ومَتى يَحتوي. والقرآنُ الكريمُ هو النَّموذجُ الأسمى لهذا التَّوازن؛ حيثُ نجدُ في آياتِه الجمعَ بينَ النّذارةِ والبشارةِ، كما في قوله -تعالى-: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾

[البقرة:١١٩]، فالرِّسالةُ لا تكتملُ بدون التَّحذيرِ من الباطل، لكنَّها أيضًا تفقدُ روحَها إن لم تَفتحْ للنّاسِ أبوابَ الرَّجاءِ والأملِ والنُّور.

الإعلامُ الذي يُبالِغُ في التَّبشيرِ دونَ وعي يُسهم في تَخدير العُقول، والإعلامُ الذي يُغرِقُ في النَّقدِ دونَ أفقٍ يَسقطُ في السَّوداويّة والعَجز. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ، فهو يُعالِجُ المَرضَ ويُقدِّمُ العلاجَ، يُشخِّصُ الانحرافَ ويَطرحُ البَديلَ، يُعرِّي الزَّيفَ لكنَّه يُبشِّرُ بالحَقيقة. وهذا هو الإعلامُ الذي يُعزِّزُ الأمانَ الفِكريَّ: إعلامٌ لا يُخيفُ بلا مُبرِّرٍ، ولا يُطمْئِنُ بلا دَليلٍ، بل يُبنى على وضوحٍ في الرُّؤيةِ، وإنصافٍ في الطَّرحِ، ورحمةٍ في المَقصد.

٤- مخاطبة العقلِ والوجدان معًا

ميزةُ القرآن الكبرى أنَّه يُخاطبُ الإنسانَ بكلِّ أبعاده: بعَقله، وقلبه، ورُوحه، ووجدانه. ومن هنا، فإنَّ الخطابَ الإعلاميَّ المأمونَ هو الذي يُخاطبُ العقلَ ويُحرِّكُ القلبَ، ويُرفِقُ المَعلومةَ بالمَعنى، ويَزِنُ الكلامَ بميزان الرَّحمة والعَدل. قال -تعالى-: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران:١٥٩]، وهي آيةٌ في القيادة، لكنَّها أيضًا قاعدةٌ في الإعلام: فالغلظةُ لا تَبني، والعنفُ في التَّعبير يُنفِّرُ، وإن كانَ الحقُّ معَكَ. والقرآنُ يُعلِّمُنا أنَّ الإقناعَ يكون بالمحبّة، والرَّحمة، واللُّطف، والصِّدق، وكلُّها أدواتٌ لا تَغيبُ عن الخطاب الإعلاميِّ الذي يُريدُ أن يكونَ مأمونًا بحقٍّ.

٥- وضوح المَرجعيّة والهويّة في الخطاب

الخطابُ الإعلاميُّ الذي لا يَظهَرُ من أينَ يَنطلِقُ، ولا إلى أين يَنتهي، يُربكُ المُتلقِّي ويُضعفُ رسالتَه؛ لأنَّه يُعاني من غموضِ المَرجعيّة. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ فهو واضحُ الانتماء، وصَريحُ المَرجعيّة، وثابتُ الهويّة، يَبدأُ من التَّوحيد، ويمَرُّ عبرَ النبوّة، ويَستقرُّ على العَدل، ويَهدفُ إلى تزكيةِ النَّفسِ وبناءِ المُجتمعِ الصّالح.

هذا الوضوحُ يَعني الرُّسوخَ، أي أنَّ الخطابَ يمَلكُ عَمودًا فقريًّا من المبادئ لا يَتخلَّى عنها. وهذا ما يَحتاجُه الإعلامُ في زمن "الحيادِ القاتِل"؛ حيثُ تُعرَضُ كلُّ الأفكارِ كأنَّها سَواسيةٌ، وتُعطى كلُّ

المَقولاتِ الشَّرعيّةِ نفسِها التي تمُنَحُ للباطلِ. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ فهو مُنحازٌ للحقِّ، لا بطريقةٍ عَنيفةٍ، بل بطريقةٍ نورانيّةٍ واثقةٍ، تُظهِرُ الحقَّ كما هو، وتَترُكُ للقلوبِ أن تُبصِرَه.

وهكذا، نَخلصُ إلى أنَّ الخطابَ الإعلاميَّ المأمونَ، في ضَوءِ القرآنِ، هو بنيةٌ حيّةٌ تقومُ على التثبُّتِ، والتَّوازنِ، والصِّدقِ، والتأنِّي، واحترامِ العَقلِ، والمَرجعيّةِ الواضحةِ. وهو خطابٌ يُعيد للإنسانِ ثقتَه في الكلمةِ، ويَمنحُه الطّمأنينةَ في زمنِ الضَّجيجِ، ويُرشِدُه إلى طريقِ الوَعي في وسطِ التَّشويشِ.

ثامنًا: الإعلامُ في القرآنِ بينَ الإنذارِ والتَّبشيرِ

حينَ نتأمَّلُ الخطابَ القرآنيَّ في بنائِه العامِّ، وتَوزيعِه الدّاخليِّ، نكتشفُ أنَّه يقومُ على قطبَينِ مُتكاملَينِ، لا يتصادَمانِ، بل يَتعاضَدانِ: الإنذارِ والتَّبشيرِ. كلاهُما وَسيلتانِ في التَّربيةِ والتَّوجيهِ، لكنْ كلُّ واحدةٍ منهما تعملُ من زاويةٍ مُختلفةٍ: الإنذارُ يُخاطبُ مَوطنَ الخَوفِ والتَّحذيرِ والتَّنبيهِ إلى العَواقبِ، على حينِ أنَّ التَّبشيرَ يُخاطبُ مَوطنَ الرَّجاءِ والأملِ والطُّموحِ إلى الخَيرِ. وفي الجمعِ بينَهما تنضجُ الرِّسالةُ، ويَتوازنُ الإنسانُ، ويَستقيمُ الوَعيُ على حدِّ الاعتدالِ، فيَتحرَّكُ بينَ الخَشيةِ والرَّجاءِ، وبينَ المُحاسبةِ والطُّموحِ، وبينَ التَّحذيرِ من الانحرافِ والدَّعوةِ إلى الصَّلاحِ.

وهذا التَّوازنُ هو جزءٌ أصيلٌ من المَنهجِ القرآنيِّ في صناعةِ الوَعيِ وبناءِ الأمانِ الفكريِّ. فالخطابُ الأحاديُّ – الذي يُركِّزُ على الخوفِ وحدَه أو الأملِ وحدَه – يَفقدُ التَّوازنَ، وقد يُنشِئُ شخصيّةً مُشوَّشةً، إمّا قلقةً ومَذعورةً، أو مُطمئنّةً حدَّ الغَفلةِ. من هنا، فإنَّ الإعلامَ القرآنيَّ يُقدِّمُ نَموذجًا بالغَ الرُّقيِّ، في كيفيّةِ استخدامِ التَّحذيرِ والتَّبشيرِ كأدواتِ تواصُلٍ وإصلاحٍ وتَنويرٍ، تَتجاوزُ التأثيرَ الآنيَّ لتُعيدَ تَشكيلَ وعيِ الإنسانِ على المَدى البَعيدِ.

١- الإنذارُ القرآنيُّ كخطابٍ تَوعويٍّ لا تَخويفيٍّ

الإنذارُ في القرآنِ يُرادُ به إيقاظُ الغَفلةِ وتَنبيهُ الضَّميرِ إلى المَصيرِ، وإعادةُ الإنسانِ إلى وَعيِه الوُجوديِّ. الإنذارُ ليس تَرهيبًا، بل دعوةً إلى اليَقظةِ، كما في قولِ الله -تعالى-: ﴿**إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ**

﴿اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:١١]، فالمُنذِرُ الحَقيقيُّ هو مَن يمتلكُ قلبًا حيًّا وعقلاً مُتأمِّلاً، وليس مَن ينهارُ أمامَ الوَعيد. والغايةُ من الإنذار، كما يُبيِّنُها القرآنُ، هي إرشادُهُم إلى مآلاتِ أفعالِهم، ومَنحُهُم فرصةً للتَّراجُعِ قبلَ أن يَفوتَ الأَوانُ.

ولأنَّ الخطابَ الإعلاميَّ كثيراً ما يَنزلقُ إلى التَّهويلِ والتَّحذيرِ المُبالَغِ فيه، بدَعوى المَسؤوليّةِ أو الغيرةِ على الدِّين، فقد يَنتج عن ذلك أثرٌ عكسيٌّ، يَجعل الإنسانَ يَنغلقُ على ذاته، أو يَفقد ثقتَه بنفسه، أو يُصابُ بالوسواسِ والتَّشويش. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ، فحينَ يُنذرُ، فإنَّه يُنذرُ بعلمٍ، ويُوضِّحُ الغايةَ من كلِّ تَحذيرٍ، ويَضع خريطةً للنَّجاةِ إلى جانب التَّحذيرِ من السُّقوط.

الآياتُ التي تتحدَّثُ عن النّار، أو العذاب، أو الحساب تُقرَنُ غالبًا بذكرِ التَّوبة، والمَغفرة، والرُّجوعِ، كما في قوله -تعالى-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]. هذا الاقترانُ يُعلِّمُ الإعلامَ كيف يكونُ الإنذارُ وسيلةً لتحريكِ الإرادة نحوَ الإصلاحِ، لا وسيلةً للضَّغطِ النَّفسيِّ أو تَسويقِ الذُّعرِ؛ لأنَّ الأمانَ الفكريَّ يَقوم على المَعرفةِ المَقرونةِ بالبَصيرةِ والمَسؤولية.

٢- البشارة القرآنيّة كخطابٍ يَزرعُ الأملَ والإيمان

البشارةُ في القرآن هي مفردةٌ شاملةٌ لكلِّ ما يُفرِحُ القلبَ، ويُقوِّي النَّفسَ، ويُثبِّتُ الإيمانَ. وهي تأتي في مقابل مشاعرِ اليأسِ، والانكسار، والإحباط، التي قد تُصاب بها النَّفسُ أمامَ كثافة الفتنِ أو عُسر الطَّريق أو كثرة الأعداء. فالله -تعالى- يقول: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ [الزمر:١٧-١٨]، وهذه البشارةُ لا تُمنَح إلا لمَن يُحسنُ الإصغاءَ والتفكُّرَ، ممّا يَعني أنَّ البشارةَ القرآنيّةَ هي تَتويجٌ لرحلةِ وعيٍ ونُضجٍ، لا مُجرَّدُ مكافأةٍ عشوائيّة.

البشارةُ في الإعلام تعزيزٌ للرَّجاءِ في قلوبِ النّاسِ، وإحياءٌ لمعاني الأملِ، والثِّقة، والثَّبات. والإعلامُ القرآنيُّ حينَ يُبشِّرُ لا يَفعلُ ذلك بطريقةٍ ساذجةٍ أو دعائيّة، بل يُظهرُ الطَّريقَ إلى الخيرِ، ويُبيِّنُ أنَّ أبوابَ الرَّحمةِ لا تُغلَقُ، وأنَّ اللهَ يحبُّ التَّوابينَ، ويُقرِّبُ المُنكسرينَ، ويَرفعُ من شأنِ الصّادقينَ.

وقد وردَت كلمةُ "بُشرى" ومُشتقّاتُها في مواضعَ مُتعدِّدةٍ من القرآن، منها: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ

لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ* لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [٦٢-٦٣-٦٤]، فالبشارةُ هنا حاضرةٌ في الدُّنيا أيضًا، في صورةِ طمأنينة، ورضًا، وثقةٍ بالله، وسكينةٍ داخليّة. والإعلامُ القرآنيُّ يُجيد استخدامَ هذه اللُّغةِ المُفعَمةِ بالرَّجاءِ، فيَحمي النَّفسَ من الانهيارِ، ويُعيد للمجتمعِ إيمانَه بنفسِه، وبقُدرتِه على العودةِ والنَّجاح.

٣- تحقيق الأمانِ النَّفسيّ والفِكريّ عبرَ التَّوازنِ في الخطاب

إنَّ أخطرَ ما يُصيبُ الإنسانَ اليومَ هو التمزُّقُ الدّاخليُّ بينَ الخوفِ غيرِ المُنتِجِ، والرَّجاءِ غيرِ المُنضبِط، بينَ خطابٍ يُفَجِّعُه بمَصيرِه، وخطابٍ يُخدِّرُه بالأماني. والقرآنُ يُقدِّمُ المَخرجَ من هذه الازدواجيّةَ، عبرَ توازنٍ دقيقٍ بينَ الإنذارِ والتَّبشير، لا يُخِلُّ بأحدِ الطَّرفَينِ، بل يَمنحُهُما مَعًا مَوقعًا وظيفيًّا مُتكاملاً في صناعةِ الوَعي.

ففي مُقابلِ الآياتِ التي تتحدَّثُ عن عذابِ الآخرةِ، هناكَ آياتٌ تصفُ الجنّةَ وَصفًا حيًّا، مُحفِّزًا، يُشعلُ التَّوقَ إلى الله لا الهُروبَ منه. وفي مقابلِ التَّحذيرِ من النِّفاقِ والذُّنوب، هناكَ آياتٌ تَفتحُ الطَّريقَ إلى التَّوبةِ والغُفران، كما في قوله -تعالى-: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾** [الزمر:٥٣]، وهي من أعظمِ آياتِ الرَّجاءِ، لكنَّها لا تُغفِلُ مَسؤوليّةَ الإنسانِ، بل تُشجِّعُه على النُّهوضِ بعدَ السُّقوطِ، وعلى البناءِ بعدَ الانكسار.

إنَّ الخطابَ الإعلاميَّ حينَ يَفقدُ هذا التَّوازنَ، يتحوَّلُ إلى أداةِ تَدميرٍ لا بناء، ويُسهمُ في إنتاجِ نماذجَ مُشوَّشةٍ دينيًّا: إمّا قاسيةٍ مُغرِقةٍ في التَّهديد، أو رخوةٍ مائعةٍ لا تَرى في الدِّينِ إلا العَزاءَ العاطفيَّ. أمّا الإعلامُ القرآنيُّ، فيَعمل على ترسيخِ أمانٍ نَفسيٍّ وفكريٍّ عَميقٍ، يُخرِجُ الإنسانَ من الاضطرابِ إلى الثَّباتِ، ومن القلقِ إلى الثِّقةِ، ومن التردُّدِ إلى الإرادة.

إنَّ القرآنَ الكريمَ لا يُخاطبُ الإنسانَ ليُخيفَهُ أو يُرضيَه، بل ليُحييَهُ. قال -تعالى-: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال:٢٤]. وهذا «الإحياءُ» لا يتحقَّقُ إلا بخطابٍ متكاملٍ يَجمعُ بينَ التَّخويفِ البَنّاءِ، والتَّبشيرِ المُحفِّزِ، ويَجعلُ من الإعلام وسيلةً لإعادةِ الرُّوحِ إلى الفِكرِ، والنُّورِ إلى القلبِ.

تاسعًا: مقترحات تطبيقيّة لإعلامٍ قرآنيٍّ يُعزِّزُ الأمانَ الفكريَّ

بعدَ أن اتَّضحَت في الصَّفحات السّابقة المَلامحُ النَّظريّةُ والمَنهجيّةُ للإعلام القرآنيِّ، وتجلَّت وظائفُه في التَّبليغ والهداية، وخصائصُه في الصِّدق والعَدل والحِكمة، وأدوارُه في بناء البَصيرة ومُواجَهة الانحراف وحماية الهويّة، ثم مُوازنة خطابه بينَ الإنذار والتَّبشير، بات من الضَّروريِّ أن نُلامسَ الواقعَ المُعاصرَ بطَرح مُقترحات عَمليّة تُعينُ على تَجسيد هذا الإعلام في الحياة اليَوميّة، في بيئةٍ تَغمرُها وسائطُ الاتِّصال، وتَتصارَعُ فيها الخطاباتُ، وتتغيَّرُ فيها أنماطُ التَّلقِّي والتأثُّر باستمرار.

إنَّ الأمانَ الفكريَّ، الذي يُعَدُّ من أهمِّ حاجات الفرد والمُجتمع اليومَ يَحتاجُ إلى بنية إعلاميّة واعية ومُتماسكة، تمتلكُ أدوات العَصر، لكنَّها لا تَنفصلُ عن روح القرآن، وتَعمل على ترجمة القِيَم القُرآنيّة إلى خطابٍ حيٍّ، قابلٍ للتَّداوُل، وقادرٍ على التأثير.

١- إعداد كوادرَ إعلاميّة تربويّة ذات رُؤية قرآنيّة

أوَّلُ خطوة لبناء إعلام قرآنيٍّ هي إعدادُ الإنسان الإعلاميِّ ذاته؛ لأنَّ الكلمةَ لا تَنفصلُ عن صاحبها، والرُّؤيةَ لا تتكوَّنُ في الفراغ، بل تُصنَعُ في وَعي المُتكلِّم قبلَ أن تَصل إلى أذن السّامع. ومن هنا فإنَّ تكوينَ جيلٍ من الإعلاميِّينَ المُؤمنينَ بالقرآن، لا باعتباره شعارًا بل مرجعيّةً معرفيّةً وخُلُقيّةً، يُعدُّ ضرورةً استراتيجيّةً.

ولأجل ذلك، يَنبغي العملُ على:

- إدماج علوم القرآن في المناهج التأسيسيّة لطلبة الإعلام؛ بحيثُ تكونُ الثَّقافةُ القرآنيّةُ عدسةً لفَهم الإنسان والعالَم.
- إقامة وَرشات تَدريبيّة للإعلاميِّينَ عن القِيَم الخِطابيّة القُرآنيّة، مثل: التثبُّت، والتَّوازن، واحترام العَقل، ولغة الحِكمة، ومُقاومة الشُّبهات، وغيرها.
- إنشاء شبكات مهنيّة من الإعلاميِّينَ المُتخصصِّينَ في الشّأن القرآنيِّ، لتَبادُل التَّجارب، وتَطوير الأدوات، والتَّنسيق في المَشاريع الإعلاميّة المُشتركة.

بهذا التكوينِ الدّاخليِّ، يُصبحُ الإعلاميُّ حاملاً لرُؤيةٍ، لا ناقلاً لخبرٍ فقط، وتتحوَّلُ وسيلتُه الإعلاميّةُ إلى منصّةِ بناءٍ، لا مُجرَّد أداةٍ للبثِّ والتَّرويج.

٢- تطوير مُحتوًى إعلاميٍّ معاصر مُستلهَم من القِيَم القُرآنيّة

الخطابُ لا قيمةَ له من دون مَضمونٍ، والمُحتوى هو جوهرُ الإعلامِ ووسيلتُه إلى التأثير. والإعلامُ القرآنيُّ يَعني إنتاجَ خطابٍ معاصرٍ تُستقى روحُه من القرآنِ، ويتوجَّهُ إلى الإنسانِ كما هو، بتَعقيداتِه النَّفسيّةِ، وأسئلتِه الوُجوديّةِ، وهُمومِه اليَوميّةِ.

ولتَحقيقِ ذلك، يُمكِنُ اقتراحُ:

- إنتاجِ سلاسلَ مَرئيّةٍ قصيرةٍ تَشرح القِيَمَ القرآنيّةَ بلُغةٍ حياتيّةٍ، مثلِ: الصِّدقِ، والشُّكرِ، والصَّبرِ، والبَصيرةِ، والاستقامةِ، والتثبُّت، والرَّحمة... مع رَبطِها بمَواقفَ من الواقع.
- برامجَ حواريّةٍ مُوجَّهةٍ للشَّبابِ تُناقشُ التَّحدِّياتِ الفِكريّةَ بلغةٍ مُنفتحةٍ وجذّابةٍ، تَستثمِرُ الآياتِ القرآنيّةَ باعتبارها منطلقًا للفَهمِ والنِّقاشِ.
- مُحتوًى تَوعويٍّ رقميٍّ يَتعامَلُ مع الشُّبهاتِ المُنتشرةِ ويُعالِجُها بمَنهجٍ قرآنيٍّ، وبطَرحِ البَديلِ المَعرفيِّ العَميق.
- قصصٍ مُصوَّرةٍ وأفلامٍ قصيرةٍ مُستوحاةٍ من النَّماذجِ القرآنيّةِ، مثلِ: (يوسفَ)، و(مُوسى)، و(أصحابِ الكَهفِ)، و(بلقيسَ)، و(لُقمانَ)،... يتمُّ تجسيدُها بطريقةٍ تَربطُ الرَّمزَ بالرّاهنِ، وتُعيد تَحميلَ القصصِ بالمَعاني التَّربويّةِ والفِكريّةِ.

المهمُّ في كلِّ ذلك هو أن يُقدَّمَ القرآنُ للنّاسِ باعتبارِه رسالةً حيّةً تَبني وَعيَهم وتُضيءُ دُروبَهم وتُجيبُ عن أسئلتِهم.

٣- شراكة استراتيجيّة بين الإعلام والمؤسَّسات القرآنيّة

لكي يُحقِّقَ أيُّ مَشروعٍ إعلاميٍّ أهدافَه يَحتاجُ إلى منظومةٍ متكاملةٍ من الفاعلينَ، تتقاطَعُ فيها جهودُ

الإعلاميِّينَ معَ العُلماءِ، والتَّربويِّينَ، والمَراكزِ القرآنيّة، والمؤسَّساتِ الثَّقافية. فالمشروعُ القرآنيُّ الإعلاميُّ يجبُ أن يكونَ همًّا مُشتركًا تتعاونُ فيه العقولُ والطّاقات.

ومن مقترحاتِ تفعيلِ هذه الشَّراكة:

- إطلاقُ منصّاتٍ إعلاميّة قرآنيّة مُشتركة بإدارةِ إعلاميِّينَ، وبمَضمونٍ علميٍّ خاضعٍ لمُراجعةٍ قرآنيّة، تكونُ قادرةً على تقديمِ خطابٍ احترافيٍّ دونَ تَفريطٍ في العُمق.
- تَحويلُ مراكزِ تَحفيظِ القرآنِ إلى منصّاتِ خطابٍ رقميٍّ مُعاصرٍ، تُدرِّبُ الحَفَظةَ على التَّعبير، والحديثِ، والإنتاجِ الإعلاميّ.
- إقامةُ مُؤتمراتٍ ومُلتقياتٍ دوليّةٍ حولَ "الإعلامِ والقرآنِ" لتبادُلِ الخِبراتِ وإطلاقِ مَشاريعَ مُشتركةٍ.
- تَشجيعُ المُبدعينَ والفنّانينَ والمُخرجينَ على استلهامِ القِيَمِ القرآنيّة في أعمالِهم، دونَ أن يكونَ ذلك مَشروطًا بالخطابِ المباشرِ أو الشَّكلِ الدَّعَويِّ، بل بروحٍ قُرآنيّةٍ ناعمةٍ تُغلِّفُ المَعانيَ وتُلامِسُ القلوبَ.

بهذا النَّوعِ من التَّعاونِ، يتحوَّلُ القرآنُ إلى قوّةٍ ناعمةٍ مُؤثِّرةٍ في الثَّقافةِ العامّة، ويتحوَّلُ الإعلامُ من مِهنةٍ إلى رِسالة، ومن حِرفةٍ إلى وسيلةِ إحياءٍ، ومن وسيلةِ تأثيرٍ إلى مِنبرِ تَزكيةٍ وبَيان.

إنَّ هذه المُقترحاتِ، وإنْ بدَت مُتدرِّجةً، لكنّها تمُثِّلُ نواةً لتحوُّلٍ جذريٍّ في فلسفةِ الإعلامِ داخلَ المُجتمعاتِ المؤمنة. فالقرآنُ هو مشروعٌ لبناءِ الإنسانِ وتَوجيهِ الأمّة، والإعلامُ حينَ يُستعاد في ضَوءِ هذا المَشروعِ يتحوَّلُ إلى دعامةٍ أساس في بناءِ الحضارةِ الإسلاميّةِ المعاصرة، لا مجرَّد أداةٍ تابعة.

الخاتمة

لقد سَعى هذا البحثُ، منذُ صفحاته الأولى، إلى مُعالجة واحدة من أكثر القَضايا إلحاحًا في واقعنا المعاصر، وهي مسألةُ الأمان الفكريِّ في ظلِّ سَطوة الإعلام، وتَحوُّله إلى فاعلٍ أساس في بناء الوَعي الجَمعيِّ وصياغة التَّصوُّرات والمَواقف والانتماءات. وفي هذا السِّياق، كانَ الهدفُ هو تقديمَ رؤية قرآنيّة مَنهجيّة تُعيد للإعلام وظيفتَه الرِّساليّةَ، وتَستثمرُ في قدرته على البناء بدلَ الهَدم، والإحياء بدلَ التَّغريب، والتَّوجيه بدلَ التَّحييد.

لقد بيَّنَ البحثُ أنَّ الإعلامَ في القرآن هو جزءٌ من بنية الرِّسالة الإلهيّة، منذُ بعثة الأنبياء وحتى آخر آية نزلَت، وأنَّ وظائفَه تمتدُّ من التَّبليغ والتَّعليم إلى المُواجَهة والحماية والتَّثبيت، وهذا يَجعلُه أداةً مركزيّةً في تحقيق الهداية، وإرساء الوَعي، وتَرسيخ الانتماء. وبتَحليل السِّياق القُرآنيِّ، تتجلَّى خصائصُ الإعلام المأمون في الصِّدق، والتثبُّت، والعَدل، والاتِّزان، والوُضوح في المَرجعيّة، وكلُّها خصائصُ تَجعلُ من الخطاب الإعلاميِّ المُؤسَّس على القرآن خِطابًا ذا بنية مَعرفيّة وأخلاقيّة قادرة على مُقاومة الانحراف، وبناء البَصيرة، وتَحقيق الأمان النَّفسيِّ والفكريّ.

كما بيَّنَ البحثُ أنَّ الإعلامَ القرآنيَّ يقومُ على صيانة الهويّة من الذَّوبان، وحماية الشَّباب من التِّيه، وتَربية المُجتمع على التَّفكير النّاقد الواعي، دونَ تَهويل أو تَبسيط أو إثارة مُفتعَلة. وقد تبيَّنَ أنَّ هذا الإعلامَ يَستثمرُ ثُنائيّةَ الإنذار والتَّبشير بوَصفها أداةً لصناعة التَّوازن الدّاخليِّ، وتَحفيز الإنسان على التَّغيير من مَوقع البَصيرة لا من مَوقع الضَّغط النَّفسيِّ أو الاندفاع العاطفيّ.

وفي ختام هذا الجهد، يُمكِنُ تلخيصُ أبرز النَّتائج والتَّوصيات على النَّحو الآتي:

- إنَّ الخطابَ الإعلاميَّ المأمونَ، في ضوء القرآن الكريم، هو خطابٌ يتكاملُ فيه المُحتوى القِيَميُّ مع الأسلوب المسؤول والغاية التَّربويّة.
- يقومُ الإعلامُ القرآنيُّ بوظيفة حيويّة في تحصين الوَعي العامِّ من التَّشويش والشُّبهات، وهو قادرٌ – إذا أُحسنَ تَوظيفُه – أن يكونَ سَدًّا مَنيعًا في وجه الفِتنَ الفكريّة.

- الشَّبابُ يُمثِّلونَ أولويّةً في مشروع الإعلامِ القُرآنيِّ؛ لأنَّهم الهدفُ الأوَّلُ للخطاباتِ المُنحرِفةِ، ولأنَّهم في الوقتِ ذاتِه أكثرُ الفئاتِ استعدادًا للتلقِّي والتحوُّلِ والنَّهضة.
- يَجبُ الانتقالُ من الاكتفاءِ بنَقلِ القِيَمِ القرآنيّةِ إلى تجسيدِها في خطابٍ مَرئيٍّ ومَسموعٍ ومَقروءٍ، حيٍّ وفاعلٍ، يَتغلغَلُ في المنصّاتِ المُؤثِّرةِ، ويتحدَّثُ بلغةِ العصرِ دونَ أن يتخلَّى عن جوهرِ الإيمان.

وختامًا، فإنَّ هذا البحثَ يَضع لبنةً أولى في مشروعٍ يَحتاجُ إلى جهدٍ جماعيٍّ، وتَفكيرٍ مُؤسَّسيٍّ، وتَخطيطٍ طَويلٍ، حتى تتحقَّقَ رؤيتُنا في بناء إعلامٍ قرآنيٍّ حقيقيٍّ، لا يَحمل اسمَ القرآنِ فقط، بل يَنبضُ برُوحِه، ويَصدحُ بنورِه، ويُحيي عقولَ النّاسِ وقلوبَهم بكلمةٍ طيِّبةٍ، أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماء.

منهج أهل البيتِ عليهم السلام في تحصين المجتمع الإسلاميِّ من الانحرافات الفكريّة والعَقديّة

◆ **الشيخ. د. جاد الله توفيق أحمد**[1]

■ **خلاصة**

مـن واضحاتِ الأمورِ أنَّ الحصنَ المنيعَ للمجتمع الإسـلاميِّ هو الإسـلامُ نفسُـه، بل إنَّ الإسـلامَ بتعاليمه الرَّفيعـة هو المَنجاةُ للبشريّة جَمعاءَ، ولا شـكَّ أنَّ منهـجَ أهلِ البَيت عليهم السلام ليـسَ منهجًا خاصًّا يَتمايزُ عن الإسـلامِ المُحمَّديِّ، بل هو عينُه ومُسـتمَدٌّ منه. كما أنَّ تطوُّرَ الحيـاة البشريّـة على صُعُـد مُختلفة يَخلق واقعًا متجـدِّدًا كلَّ حينٍ، فلا بـدَّ والحالُ هذه أن يكونَ الإسـلامُ، الذي يُراد له أن يكونَ شريعةً باقيةً على مرِّ الزَّمانِ، حائزًا على أسُس تحصينِ المجتمعِ من الانحرافات الطّارئة مع تبدُّل الزَّمان.

هـذا الأمرُ مـن الأهميّة بمـكان؛ بحيثُ يَغدو من الـضَّروريِّ التعرُّفُ على هذه الأسُـس، خصوصًـا في هـذا الزَّمان، وبما أنَّ الإسـلامَ بصورته الصَّحيحة يُؤخَذُ مـن أهل البيت عليهم السلام، فإنَّ عرضَ أسُـسِ تحصينِ المجتمعِ الإسـلاميِّ، من خلال مَنهجِ أهلِ البيت عليهم السلام هو الطَّريقُ الأسلَمُ للوقوفِ في وجهِ الانحرافاتِ الطّارئة على مسارِ الإسلامِ المُحمَّديّ الأصيلِ.

الكلمات المفتاحية: المنهج- تحصين- أهل البيت عليهم السلام- المجتمع الإسلامي- الانحراف.

1 - دكتوراه في الفقه والأصول، باحث في الفكر المعاصر- سوريا.

مقدِّمة

تتعدَّد مناهجُ مواجهةِ الانحرافِ تبعًا لطبيعة الانحرافِ ومُستواهُ، وتبعًا لطبيعة القضيّةِ التي وقعَ الانحرافُ فيها وأهميّتها. وبصفة عامة تمُثِّلُ الوقايةُ أهمَّ المناهجِ التي يمُكِنُ اعتمادُها في مواجهةِ الانحرافِ وتحصينِ الفكرِ؛ لذا كانت الوقايةُ -كما سيظهر- هي المَنهجَ الذي أقرَّه أهلُ البيتِ عليهم السلام في تحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ من الانحرافات الفكريّةِ والعَقديّةِ.

إنَّ طبيعةَ الحياةِ التي نَعيشُها في عصرنا الحاضر، والتوسُّعَ الذي تَشهدُه السّاحةُ الفكريّةُ في هذه الأيام، المَملوءةِ بالأفكارِ والمُعتقداتِ التي تُغرِقُ ساحتَنا الإسلاميّةَ من كلِّ حدب وصوب، يَجعل التعرُّفَ على مرتكزاتِ هذا المنهجِ، وتطبيقَه في مجتمعِنا الإسلاميِّ، ضرورةً مُلِحّةً ذاتَ أهميّةٍ قُصوى.

وتأتي هذه الدِّراسةُ ضمن هذا السِّياقِ، وتلبيةً لهذه الضَّرورةِ؛ لتُقدِّمَ هذا المنهجَ المذكورَ اعتمادًا على المنهجِ الوصفيِّ الاستقرائيِّ، ووَفقًا للمُخطَّط الآتي:

- **تمهيد:** الانحراف لغةً واصطلاحًا.
- **أولا:** بيانُ الخطِّ الأصيلِ.
- **ثانيًا:** تحديدُ الآليّاتِ الصَّحيحةِ التي يَنبغي الاعتمادُ عليها في معرفة الخطِّ الأصيل.
- **ثالثًا:** بيانُ المَرجعيّاتِ الصَّحيحةِ.
- **رابعًا:** التَّركيزُ على القضايا التأسيسيّةِ في البناء الفكريِّ الأصيل.
- **خاتمة.**

تمهيد: الانحراف لغةً واصطلاحًا

لغةً:

جاء في معجم الصَّحاحِ لـ(الجوهريِّ): «انحرفَ عنهُ وتَحرَّفَ واحرَورَفَ، أي مالَ وعَدَلَ»[1]، وفي مُعجمِ مقاييسِ اللُّغة لـ(ابن فارس): «الحاءُ والرّاءُ والفاءُ ثلاثةُ أصول: حدُّ الشَّيءِ، والعُدولُ، وتَقديرُ الشَّيءِ. ... والأصلُ الثّاني: الانحرافُ عن الشَّيءِ. يُقال: انحرَفَ عنه يَنحرِفُ انحِرافًا. وحَرَّفتُه أنا عَنهُ، أي عدَلتُ به عَنه. ولذلكَ يُقال: مُحارَفٌ، وذلك إذا حُورِفَ كَسْبُهُ فمِيلَ به عَنه، وذلكَ كتَحريفِ الكلامِ، وهو عَدْلُه عن جِهَتِه»[2].

ولا يُوجد في المعاجم الأخرى ما يَزيد على ذلك، فتَلخَّصَ أنَّ مَدلولَ الانحرافِ لغةً هو: المَيلُ والعُدولُ.

اصطلاحًا:

للانحرافِ اصطلاحاتٌ مُتعدِّدةٌ تبعًا للحقلِ المَعرفيِّ الذي يَتناولُه، ففي علومِ اللُّغةِ له دلالةٌ، وفي علومِ الاجتماعِ والنَّفسِ له دلالةٌ، وفي الشَّريعةِ له دلالةٌ وهكذا. ومع كثرةِ العلومِ الإنسانيّةِ يَعسرُ عرضُ دلالاتِ المُصطلحِ في جميعِ العلوم، لكنَّ تتبُّعَ أغلبِها يُفضي إلى أنَّ ما يَجمعِ هذه الدّلالاتِ جَميعًا هو ما يَدلُّ عليه الانحرافُ لغةً، فإنَّ المُتَّفَقَ عليهِ فيها جَميعًا هو المَدلولُ اللُّغويُّ نفسُه للانحراف، وأمّا ما يُفرِّقُها فهو اختلافُ المسارِ الأصليِّ الذي تَتناولُه هذه العلومُ، والذي جَرى المَيلُ والعُدولُ عنه.

أولًا: بيان الخطِّ الأصيل

اتَّضحَ لنا من خلال المَعنى اللُّغويِّ أنَّ الانحرافَ هو الميلُ والعُدولُ، وهذا يَعني أنَّه في كلِّ

١ - إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، ج ٥، ص ٢٩.
٢ - أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ج ٢، ص ٤٢.

انحراف هناكَ شيءٌ ما كان يَنبغي أن يكونَ على نحوٍ مُعينٍ ثم كانَ غَيرُه، وعلى هذا الأساسِ يتَّضحُ جَليًّا أنَّه من الأمور المُهمّة والأساسيّة في التَّحصين ومُواجهة الانحراف، التي تُساعدُ على كشف الانحراف، أو تمَنعُ وقوعَه، هي بيانُ الخطِّ الأصليِّ الذي يَنبغي أن تكونَ عليه الأمورُ؛ لأنَّه مع بيان هذا الخطِّ يَستبينُ الانحرافُ، وعندئذ يمُكن الالتزامُ بالخطِّ الأصيلِ، واجتنابُ كلِّ ما مالَ عنهُ أو جانبَه، وإلا فقد يَقع الانحرافُ دون أنْ يُعلَمَ أنَّه انحرافٌ، وتحتَ مُسمَّيات مُختلفة. هذا الخطُّ الذي يَنبغي أن تكونَ عليه الأمورُ سأُطلقُ عليه في هذه المقالة الخطَّ الأصيلَ.

من هنا كان بيانُ الخطِّ الأصيلِ أساسَ المنهجِ الذي اتَّبعَه أهلُ البيت عليهم السلام ضمنَ إطار العملِ الوقائيِّ الذي يمَنع الانحرافَ أصلاً، فجَهدوا عمرَهم في بيان كلِّ ما يَنتمي إلى الخطِّ الأصيلِ بحدودِه الواسعة والضيِّقة، بل يمُكن القولُ إنَّ كلَّ ما جاءَ به الإسلامُ والشَّريعةُ المُحمَّديّةُ هو في حقيقة الأمرِ تأصيلٌ وتَرسيمٌ للخطِّ الأصيلِ الذي يَنبغي للبشريّة انتهاجُه؛ ولذا من الطَّبيعيِّ أن يكونَ منهجُ أهلِ البَيت عليهم السلام، بلحاظِ أنَّهم ركنٌ أساس في الهِدايةِ والإرشادِ الإسلاميِّ، هو تأسيسٌ للخطِّ الأصيلِ وبيانٌ له.

وهذا التّأسيس والبَيان يَشملُ كلَّ ما يَحتاجُه الإنسانُ على المُستوى العَقديِّ والفكريِّ والخُلُقيّ والعَمليِّ وغيرِها، ولا نُغالي في القولِ إذا ما ادَّعَينا أنَّ الحصّةَ الكُبرى والغالبةَ من الإرث الدِّينيِّ، المُتعلِّق بأهلِ البيت عليهم السلام، كان في إطار بيان الخطِّ الأصيلِ، وهذه الدَّعوى لا تَحتاجُ إلى الإثبات وحشدِ الشَّواهد، فإنَّ وجدانَ مَن اطَّلعَ على حياةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام ومَروياّتهم حاكمٌ في هذه القضيّة بلا شُبهةٍ أو تَردُّد.

ويَكفي شاهدًا على ذلك قولُ النبيِّ صلى الله عليه وآله - المُتواترُ عندَ الخاصّة والعامّة بألفاظ مُختلفة ومعنًى واحدٍ تَقريبًا- في حقِّ أهلِ البيت عليهم السلام: «إنيِّ تاركٌ فيكُم الثَّقَلَين ما إنْ تمسَّكتُم بهما لن تَضلُّوا: كتابَ الله، وعِترتي أهلَ بيتي، وأنَّهما لن يَفترقا حتّى يَردا عليَّ الحوضَ»[1]. مضافًا إلى ما سنَلفتُ إليه في آخرِ هذا المَبحث من أنَّ الخطَّ الأصيلَ في واقعِه هو الدِّينُ الإسلاميُّ ليسَ غيرَ.

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٢، ص٢٥، كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، الحديث ٣.

ألا تَرى أنَّ (أميرَ المؤمنينَ) عليه السلام في خطبةِ ابتداءِ خلقِ السَّماءِ والأرضِ؛ إذ يقول: «أوَّلُ الدِّينِ مَعرفتُه، وكمالُ مَعرفته التَّصديقُ به، وكمالُ التَّصديق به تَوحيدُه، وكمالُ توحيده الإخلاصُ له، وكمالُ الإخلاصِ له نفيُ الصِّفاتِ عنه، لشهادةِ كلِّ صفةٍ أنَّها غيرُ المَوصوفِ، وشهادةِ كلِّ موصوفٍ أنَّه غيرُ الصِّفةِ». فإنَّه يُحدِّدُ بدايةَ هذا الخطِّ الأصيلِ؟

إنَّ الخطوةَ الأولى في هذا الخطِّ الأصيلِ معرفةُ اللهِ سبحانَه وتعالى، فهي المَبدأُ الذي يَنطلقُ منه الإنسانُ في بنائه الدِّينيِّ والعَقديِّ والفكريِّ، وهي المُوجِّهُ المِعياريُّ الذي يُنظِّمُ تراتُبيّةَ المُعتقداتِ والأفكارِ؛ ولذا كان الدَّفعُ والتَّحريكُ إلى امتلاكِ هذه المَعرفةِ مَطلبًا رئيسًا يَجب بَيانُه ضمنَ الخطِّ الأصيلِ.

والمُتتبِّعُ يَرى بوضوحٍ أنَّ بيانَ الخطِّ الأصيلِ في منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام كانَ له نَحوانِ: النَّحوُ الأوَّلُ بيانُ معالمِ الدِّينِ عامّةً في أفُقِها العَقديِّ والفكريِّ والسُّلوكيِّ والخُلُقيّ، وهذا ما نَراه في عامّةِ المأثورِ عنهم عليهم السلام، والنَّحوُ الثّاني تَحديدُ الرَّكائزِ الأساسِ في الخطِّ الأصيلِ والتَّشديدُ عليها، ففي النَّحوِ الأوَّلِ يَعرض منهجُ أهلُ البيتِ عليهم السلام معالمَ الدِّينِ كافّةً، فيُبرزُ الأسُسَ العَقديّةَ، ويتصدَّى للشُّبهاتِ، ويُقدِّمُ الأحكامَ الشَّرعيّةَ ويُفصِّلُ فيها، ويَعرضُ القِيَمَ الخُلُقيّة، ويُميِّزُ بينَ صَحيحِها وسَقيمِها، وإلى ما هنالكَ.

وأمّا في النَّحو الثّاني فيُحدِّدُ البنى الأساس والأركانَ الأصيلةَ من بينِ المَعارفِ الدِّينيّةِ التي يَنبغي معرفةُ محوريّتِها في البناءِ الدِّينيِّ، والاهتمامُ بها على هذا الأساسِ، وسوف نعرض بعض النَّماذجِ لاحقًا، لكنْ فقط من بابِ تأكيد هذه الفكرةِ يمُكن التَّنبيهُ إلى الرِّواياتِ التي وردَت عن أهل البيتِ عليهم السلام، وتُحدِّدُ ركنيّةَ بعضِ المَعارفِ في البناءِ الدِّينيّ من خلالِ صيَغٍ لفظيّةٍ مُعيَّنة، فقد جاءَ أغلبُها مُبتدأً بعباراتٍ تدلُّ على ركنيّتِها ومحوريّتِها من قَبيلِ: «بُني الإسلامُ»، أو «دعائم»، أو «أثافيّ» وما شابَه ذلك، ممّا يَستجلبُ الاهتمامَ والتَّركيزَ على الأمور المَذكورة.

ففي الحديث الصَّحيحِ عن (أبي جعفر) عليه السلام قال: «بُنيَ الإسلامُ على خمسةِ أشياءَ: على الصَّلاة والزَّكاةِ والحَجِّ والصَّومِ والوِلايةِ ...»[1]، وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن (عيسى بن السرّي) قال: «قلتُ

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٣، ص ٥٣، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، الحديث ٥. وهناك روايات متعددة باللفظ نفسه في الباب نفسه.

لأبي عبد الله عليه السلام: حَدِّثْني عمّا بُنيت عليه دعائمُ الاسلام إذا أنا أخذتُ بها زكا عَملي، ولم يَضرَّني جهلُ ما جَهلتُ بعدَه، فقالَ: شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله (صلَّى الله عليه وآله)، والإقرارُ بما جاء به من عند الله، وحقٌّ في الأموالِ من الزَّكاةِ، والولايةُ التي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها، ولايةُ آلِ محمَّد صلى الله عليه وآله..»[1].

وفي الصَّحيحِ عن (أبي جعفر) عليه السلام قال: سُئل (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام عن الإيمان، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ الإيمانَ على أربعِ دعائمَ: على الصَّبرِ واليَقينِ والعَدلِ والجهاد»[2]. وهذا المقدارُ فيه الكفايةُ للتأكيدِ على وجودِ النَّحوِ الثّاني من مَنهجِ أهلِ البَيتِ عليهم السلام في بيانِ الخطِّ الأصيلِ.

وممَّا يَجدرُ التَّنبيهُ إليه هو أنَّنا عندَما نتكلَّمُ عن منهجِ أهل البيت عليهم السلام لا نَعني أنَّ هناكَ مَنهجًا خاصًّا بهم في مُقابلِ مَنهجِ النبيِّ صلى الله عليه وآله أو في مقابلِ المنهجِ القرآنيِّ، فليسَ مَنهجُ أهلِ البيت عليهم السلام إلا مَنهجَ النبيِّ صلى الله عليه وآله ومنهجَ القرآن الكريم، بل هو مُستمَدٌّ منهما، وما نَعرِضُه هاهنا ليسَ إلا تأكيدًا على ذلك، وإنَّما أطلقْنا عليه مَنهجَ أهلِ البيتِ عليهم السلام؛ لأنَّ الإسلامَ بصورتِه الواقعيّةِ والكاملةِ مُتمثِّلٌ بهم (صلواتُ الله عليهم أجمعينَ).

ومن هنا يَتبيَّنُ أيضًا أنَّ ما أسميناهُ في هذه المَقالةِ بالخطِّ الأصيلِ ليس هو في حقيقته سوى الإسلام، وإنَّما أطلقْنا عليه الخطَّ الأصيلَ بلحاظ حديثِنا عن الانحراف، وضرورةِ بيان الخطِّ الذي يَنبغي أن تكونَ عليه الأمورُ في منهج التَّحصينِ من الانحرافِ، فالدّافعُ إذنْ ضرورةٌ فنِّيَّةٌ في هذه الدِّراسةِ.

ثانيًا: تحديدُ الآليّاتِ الصَّحيحة التي يَنبغي الاعتمادُ عليها في معرفة الخطِّ الأصيل

لا شكَّ أنَّ البيانَ، فيما يتعلَّقُ بالخطِ الأصيلِ، ضرورةٌ مَنهجيّةٌ لتحصينِ المُجتمعِ الإسلاميِّ من الانحرافِ، لكنَّ الوصولَ إلى هذا البيانِ نفسِه قد يَقع الانحرافُ فيه؛ نتيجةَ الخَطأ في الآليّاتِ

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٣، ص٥٧، كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام، الحديث ٦.
٢ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٣، ص ١٣٠، كتاب الإيمان والكفر، باب صفة الإيمان، الحديث ١.

المَعرفيّة التي تُنتهَجُ لاكتسابه؛ بمَعنى أنَّ دورَ أهلِ البيت عليهم السلام، في بيان الخطِّ الأصيلِ، لو أنَّه أُنجزَ بتَمامه، لكانَ بقيَ محذورُ الانحراف قائمًا؛ وذلك نتيجةً لإمكانيّة وقوعِ الخَطأ في الوسائلِ التي تُعتمَدُ للظَّفر بهذا البَيان؛ ولذا لم يَغفلْ منهجُ أهلِ البيت عليهم السلام عن هذه القضيّة المهمّة، فتَطرَّقَ إلى الآليّات الصَّحيحة التي يَجب أن تُعتمَدَ في معرفة الخطِّ الأصيلِ، وجعلَ لكلِّ نوعٍ من المعارف المُندرجة ضمنَ الخطِّ الأصيلِ ما يُناسبُها من آليّات، فإنَّ المعرفةَ التي يَجب الإيمانُ والاعتقادُ بها لا تَتساوى مع المَعرفة التي يَجب أن تُطبَّقَ وتُرشَّحَ سُلوكًا عمليًّا، وتَختلفُ عن المعرفة التي إنْ عُلِمَ بها أفادَت وإن جُهلَت لم تَضرَّ، ونحنُ نَعرضُ نوعَينِ من المَعرفةِ ضمنَ الخطِّ الأصيلِ، ونَعرِضُ اختلافَ الآليّاتِ المُعتمدةِ فيها حتى يتَّضحَ هذا المَبحثُ:

١- المعرفة العَقديّة

تتنوَّعُ المعارفُ البشريّةُ بدرجة كبيرة، وكلُّ مجموعةٍ من المعارف تَندرجُ تحتَ علمٍ خاصٍّ تبعًا لمَوضوعها أو غايتها، ولكلِّ علمٍ مَنهجٌ يُناسبُ مَوضوعَه، وهذا النَّسقُ يَشملُ المَعارفَ الدِّينيّةَ أيضًا، فالمعارفُ الدِّينيّةُ مُتنوِّعةٌ، ويتشكَّلُ منها علومٌ مختلفةٌ، وكلُّ علمٍ له مَنهجٌ مُناسبٌ له.

ومن أهمِّ العلوم الدِّينيّة، وأتمِّها فائدةً، وأعلاها مَنزلةً، وأشرفِها مَوضوعًا، علمُ العَقائد الذي يُطلَقُ عليه أسماءٌ مُتعدِّدةٌ، كعلم الكلام أو الفقه الأكبرَ أو علم أصول الدِّين أو غيرها[1]، وتَنطلقُ أهميّةُ علم العقائد بالدَّرجة الأولى من مكانة الدِّين في حياة الإنسان من جهة، ومن كونه يُعدُّ رَصيدًا رئيسًا لباقي المَعارف الدِّينيّة من جهة أخرى، وذلكَ أنَّ المعارفَ العَقديّةَ تَصنعُ للإنسان نظامًا فكريًّا يُرخي بظِلاله على رؤيته الكونيّة، فَضلاً عن أثره في الفكر والسُّلوك ببُعدَيه الشَّرعيِّ والخُلُقيّ.

معَ هذه الأهميّة للمَعارف العَقديّة، في حياة الإنسان، لا يُمكن أن يكونَ الاستنادُ إليها إلا من خلال أدوات المَعرفة المُناسبة لها؛ ولذا يُشترَطُ في المعارف العَقديّة أن تكونَ معارفَ قَطعيّةً[2]، فلا عِبرةَ بغَيرِ اليَقينِ فيها، ولا يُمكن التَّعويلُ على المعارف المَظنونة؛ لأنَّ المطلوبَ فيها هو

١ - راجع: حسين مكي العاملي، بداية المعرفة، ص. ص ٢٩- ٣٤؛ وشمس الدين الأصفهاني، تسديد القواعد، ج ١، ص ١٦٥.

٢ - علي الرباني الگلپايگاني، محاضرات في الإلهيات، ص ١٦.

الإيمانُ، والإيمانُ لا يكون إلا بيَقينٍ، وردَ عن (أمير المؤمنينَ) عليه السلام: «ملاكُ الإيمان حُسنُ الإيقان»[1]، وهذا أيضًا معنَى قول (أمير المُؤمنينَ) عليه السلام في جواب مَن سأَلَه هل رأيتَ ربَّكَ؟ «أفأعبُدُ ما لا أرى»[2]. إذنْ، اليَقينُ هو الآليّةُ المَعرفيّةُ الصَّحيحةُ والمُعتمَدةُ في القضايا العَقديّة ضمنَ الخطِّ الأصيل. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا**﴾ [الإسراء: ٣٦].

لقد ذمَّ القرآنُ الكريمُ أتباعَ العقائد الفاسدة والباطلة، لكنَّنا لو طالَعْنا الآيات القرآنيّةَ المُباركةَ لوَجدنا أنَّ مُستنَدَ الذمِّ لم يكنْ اتِّباعَ هذه العقائد الباطلة نفسها، وإنَّما الاتِّباعَ لها من دون دليلٍ يَقينيٍّ، واعتمادَهم على الظنِّ وأشباهه ممّا لا يَصحُّ اعتمادُه في العقائد، وهذه نُبذةٌ من الآيات المُباركة في هذا المَجال: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[الأحقاف: ٤] ، ﴿**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ* فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الصافات: ١٥٤-١٥٧]، ﴿**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [يونس: ٣٦].

ولا يختلفُ الحالُ في اليَقين عندَ اختلاف مَنشئه، فقد يَنشأُ اليَقينُ عن حُكم عقليٍّ بَديهيٍّ، أو عن حُكم عقليٍّ نَظريٍّ يَستندُ إلى بديهيّات، وقد يَنشأُ عن نصٍّ قرآنيٍّ مُحكَم بعدَ القطع بصُدور القرآن الكريم من الله سبحانه وتعالى، وكثيراً ما يَنشأُ اليَقينُ عن أخبارٍ مُتضافرةٍ وصلَت إلى حدِّ التَّواتُرِ الذي يُفيدُ العلمَ واليَقينَ. فالمَعرفةُ العَقديّةُ طريقُها الصَّحيحُ هو اليَقينُ لا غير.

٢- المعرفة الشَّرعيّة

جاءَ الإسلامُ، وهو الدِّينُ الخاتَمُ للأديان، بشريعة ناسخة لما قبلَها من الشَّرائع؛ ولذا كانَت الشَّريعةُ الإسلاميّةُ صالحةً للتَّطبيقِ وناظمةً للبَشريّةِ إلى آخرِ الزَّمان، وبمُقتضى ذلك وجبَ أن

---

١ - عبد الواحد بن محمد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، الصفحات: ١٩٣، ٢١٣، ٧٠٢. بعض الموارد جاء فيها: "أفضل الإيمان حسن الإيقان".

٢ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ص ٣٩٧.

تكونَ شريعةً كاملةً تامّةً، تَستجيبُ لمُتطلَّبات الزَّمان المُتغيِّرة ومُستحدَثات الأمور، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وفي الخبرِ الصَّحيح عن (حماد بن عيسى) عن (أبي عبد الله) عليه السلام: "سمعتُه يَقول: ما مِن شَيءٍ إلا وفيه كتابٌ أو سُنّةٌ"[1].

إنَّ هذه الشَّريعةَ الخاتمةَ، بما تمُثِّلُه من معرفةٍ شرعيّة ناظمة لحياة البشر، هي جزءٌ من الخطِّ الأصيلِ الذي سَعى أهلُ البيت عليهم السلام لبَيانه، وهذه المَعرفةُ تَختلفُ عن المَعرفة العَقديّة في آليّات اكتسابها، تبعًا لاختلاف طبيعتهما وآثارهما، وتبعًا لترتُّب المَعرفة الشَّرعيّة على المَعرفة العَقديّة، فالعَقيدةُ تمُثِّلُ الرُّؤيةَ التي يَنطلقُ منها الإنسانُ إلى السُّلوك والعَمل، وأمّا المعرفةُ الشَّرعيّةُ فهي القوانينُ النّاظمةُ لسلوك الأفراد في المجتمع الإسلاميِّ، من هنا فالمعرفةُ العَقديّةُ أشرَفُ درجةً وأهمُّ أثرًا؛ ولذلك كانَت المعرفةُ العَقديّةُ مَرهونةً باليَقينِ فقط، أمّا المعرفةُ الشَّرعيّةُ فالمَدارُ فيها على الحجِّيّة سواءٌ أكان يَقينًا أم غيرَ يَقينٍ.

وتوضيحُ ذلك بالقول إنَّ الشَّريعةَ، بما هي أوامرُ ونواه (أحكام)، تتطلَّبُ براءةَ ذمّة المُكلَّف بالامتثال لما أُمر به، واجتناب ما نُهيَ عنه، ففي المعرفة الشَّرعيّة يبحثُ الإنسانُ عن براءة ذمّته من التَّكليف؛ ولذا من الطَّبيعيِّ أن يَبحثَ الإنسانُ أولاً عن ماهيّة الإطار من الأوامر والنَّواهي الذي تَشتغلُ به ذمَّتُه، فهل هو ما بَلغَه على نحوِ اليَقين، أم يَشملُ ما بلغَه على نحوِ الظنِّ أو الاحتمال؟

لا شكَّ أنَّ الأحكامَ الشَّرعيّةَ -سواء أكانَت أوامرَ أم نواهيَ- التي وصلَت للإنسان على نحوِ اليَقين داخلةٌ في ذمّة المُكلَّف بحُكم العقل القَطعيِّ، فاليَقينُ حجّةٌ بلا شكّ؛ لأنَّه من دون الاعتراف بحجيّة اليَقين لا يَبقى معنًى للمَعرفة البشريّة جَمعاء، فالعقلُ البشريُّ يَعلم بأنَّ اليقينَ حجّةٌ بلا ريب. ومعنى الحجيّة أنَّ ذمّةَ المُكلَّف مَشغولةٌ بالتَّكاليف التي وصلَت إليه عن طريق اليَقين، ولا بدَّ له من إبرائها. إذنْ، اليَقينُ طريقٌ صَحيحٌ إلى المعرفة الشَّرعيّة.

أمّا الأحكامُ التي وصلَت للمُكلَّف، من خلال الظنِّ أو الاحتمال، فلا تكونُ ذِمّةُ المُكلَّف مشغولةً

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص ١٥١، كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة وأنه ليس شيء من الحلال والحرام ...، الحديث ٤.

بها؛ لأنَّ الظنَّ والاحتمالَ نفسَيهما لَيسا بحجّة؛ إذ إنَّ العقلَ لا يَرى حجّيتَهما، فلا تَشتغلُ ذمّةُ المُكلَّف بالأحكام الواصلة إليه على نحوِ الظنِّ والاحتمال. هذا هو الأصلُ، لكنّ هناك ظنًّا خاصًّا جُعل حجّةً ضمنَ المَعرفةِ الشَّرعيّة التي وصلَت إلينا على نحوِ اليَقين[1]، أي إنَّ المَعرفةَ الشرَّعيّةَ المَقطوعَ بها، التي وردَت على نحو اليَقين، جعلَت بعضَ الظُّنون حجّةً شَرعًا في اكتساب المَعرفة الشَّرعيّة، وبناءً عليها تَدخلُ الأحكامُ الشَّرعيّةُ التي وصلَت إلينا من خلال الظنِّ الخاصِّ في ذمّة المُكلَّف، ويَجب عليه حينئذ تَحصيلُ براءة الذِّمّة عنها، حالُها في ذلك حالُ المَعرفة الشَّرعيّة الواصلة على نحو اليَقين. إذنْ، الظنُّ الخاصُّ المُعتبَرُ شَرعًا طريقٌ صحيحٌ إلى المعرفة الشَّرعيّة. تَحصَّلَ ممّا سبقَ أنَّ المعرفةَ الشَّرعيّةَ طريقُها الصَّحيحُ هو اليقينُ والظنُّ الخاصُّ.

ثالثًا: بيان المرجعيّاتِ الصَّحيحة

في أيِّ مجال يَحدثُ فيه انحرافٌ عن المسار الأصليِّ تَبرزُ الحاجةُ إلى مَرجعيّات يُستندُ إليها في إصلاح الانحراف، والرُّجوعِ من خلالها إلى المسار الأصليِّ؛ ولذا كانَ من الأركان الأساس في منهجِ أهلِ البيت عليهم السلام، لتَحصين المجتمع الإسلاميِّ، تحديدُ المَرجعيّات الصَّحيحةَ التي يُعوَّلُ عليها في إحراز المَعارفِ المَخزونةِ ضمنَ الخطِّ الأصيلِ، وفي تقويم الاعوجاجِ الطّارئ فكريًّا وسلوكيًّا.

إنَّ إرجاعَ النّاس إلى مصدر صحيح، وإقامةَ مَرجعيّة واضحة، هو في الحقيقة مُواجهةٌ للانحراف، وإنَّ تَحديدَ هذه المَرجعيّات يَضمنُ دَيمومةَ الارتكاز على الخطِّ الأصيلِ باعتبارها مصدرًا لمحاكمة جميعِ ما تُفرزُه الحضارةُ الإنسانيّةُ في سيرِها التطوُّريِّ على جميع الأصعدة، كما أنَّ اللُّجوءَ إلى هذه المرجعيّات يُسهم في تأصيل الأفكار والسُّلوكيّات الرئيسة في الحراك الإنسانيِّ، وعلى هذا فإنَّ ما نشهدُه اليومَ من فَوضى فكريّة إنَّما تَستمدُّ جذورَها من التَّغافُلِ عن هذه المَرجعيّات الأصيلة، واستبدالِها بمَرجعيّات مُبتدَعة غيرِ ثابتة، تُؤسِّسُ للانحراف وتُشجِّعُ عليه. وقد حدَّدَ منهجُ أهلِ البيت عليهم السلام هذه المَرجعيّات وفق الآتي:

١ - راجع: محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، ج١، ص. ص ٢٨٢- ٢٩٠.

١ - **العقل:** لا شكَّ أنَّ العقلّ هو هبةُ الله -سبحانه وتعالى- للإنسان، وبه كرَّمَه وشَرَّفَه على سائر مخلوقاته الأرضيّة، وعليه مدارُ التَّكليف والثَّواب والعقاب، وهو المعيارُ الذي زُوِّد به الإنسانُ ابتداءً لمعرفة الحقِّ والصَّواب، ولذلك فإنَّ المعرفةَ العَقديّةَ الأساس في منهج أهل البيت عليهم السلام تَستندُ إلى العقل بُرهانًا واستدلالاً، وآياتُ القرآن الكريم تؤكّد هذا الأمر، يقولُ الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].، ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[النحل: ١٢].

وقد وردَت مُشتقّاتُ لفظة العقل في القرآن الكريم أكثرَ من خَمسينَ مرّةً، مُضافًا إلى ما في مَعناهُ من قَبيل: «ذي حجر»، و«أُولي الألباب»، و«أُولي الأبصار»، و«أُولي النُّهى»[١]، وقد دَعا القرآنُ الكريمُ الإنسانَ في أكثرَ من ثلاثمئة آية إلى التعقُّل والتدبُّر؛ ووردَ عن أهل البيت عليهم السلام أحاديثُ كثيرةٌ عن فضل العقل ومَرجعيّته في الدِّين والإيمان حتى قال (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضلَ من العَقل»[٢].

من هنا نعلَمُ أنَّ العقلَ قد جُعِلَ في مَنهج أهل البيت مَرجعيّةً رئيسةً لتَقييم الأفكار ومُعايَرتها ضمنَ آليّة اليَقين آنفة الذِّكر، وما لا يَحصل منه يقينٌ من مُدركات العقل وأحكامه لا يُعَدُّ مَرجعيّةً ضمنَ منهج أهلِ البيت عليهم السلام؛ ولذلك جَرى التَّنبيهُ على بعض المُدركات العَقليّة غير اليَقينيّة، والتَّحذيرُ من الرُّجوع إليها، كالقياس الفقهيِّ، كما وردَ في الحديث الصَّحيح عن (أبان بن تغلب): «قال: قلتُ لـ(أبي عبد الله) عليه السلام: ما تقولُ في رجل قطعَ إصبعًا من أصابع المَرأة، كم فيها؟ قال: عَشرةٌ من الإبل، قلتُ: قطعَ اثنَين؟ قال: عشرونَ، قلتُ: قطعَ ثلاثًا؟ قال: ثلاثونَ، قلتُ: قطعَ أربعًا قال: عشرونَ، قلتُ: سبحانَ الله يَقطعُ ثلاثًا فيكونُ عليه ثلاثونَ، ويَقطعُ أربعًا فيكونُ عليه عشرونَ؟ إنَّ هذا كانَ يَبلُغُنا ونحنُ بالعراق فنَبرأُ ممَّن قالَه، ونقولُ: الذي جاءَ به شيطانٌ، فقال: مَهلاً يا أبانُ، هكذا حكمَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله، إنَّ المرأةَ تُقابلُ الرَّجلَ إلى ثلث الدِّية، فإذا بلغَت الثُّلثَ رجعَت إلى النِّصف. يا أبانُ إنَّكَ أخذتَني بالقياس، والسُّنةُ إذا قِيسَت مُحِقَ الدِّينُ»[٣].

---

١ - عليرضا قائمى نيا، قرآن ومعرفت شناسي، ص ٢١٩.

٢ - الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، ج ١، ص ٣٩، كتاب العقل والجهل، الحديث ١٢.

٣ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ١٤، ص. ص ٣٥٢، ٣٥٣، كتاب الديات، باب الرجل يقتل المرأة ...، الحديث ٦.

إنَّ العقلَ في مدرسة أهلِ البيتِ عليهم السلام هو الأساسُ في المَعرفةِ والحُكمِ والتَّكليفِ، وإنَّما كان الإنسانُ مُخاطَبًا بما لَه من عقلٍ، وعالمًا وعارفًا من خلالِ العَقلِ. وردَ في الحديثِ الصَّحيحِ عن (أبي جعفر) عليه السلام أنَّه قال: «لَمّا خلقَ اللهُ العقلَ استنطقَه، ثم قال له: أقبِلْ فأقبَلَ، ثم قال له: أدبِرْ فأدبَرَ، ثم قالَ: وعِزّتي وجَلالي ما خلقتُ خَلقًا هو أحبَّ إليَّ منكَ، ولا أكملتُكَ إلا فيمَن أُحبُّ، أمَا إنيِّ إيّاكَ آمُرُ، وإيّاكَ أنهى، وإياكَ أُعاقِبُ، وإيّاكَ أُثيبُ»[1].

بناءً على أُلفتنا إليه كان العقلُ مَرجعيّةً رئيسةً من المَرجعيّاتِ الصَّحيحةِ التي يُستنَدُ إليها في تَحصينِ المُجتمع الإسلاميِّ ضمنَ منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام.

٢- القرآن الكريم: لا شكَّ أنَّ الإنسانَ يتميَّزُ عن سائر المخلوقاتِ الأرضيّةِ بما أودعَه اللهُ سبحانه وتعالى فيه من عقلٍ، وأنَّ استقرارَ الحياةِ الإنسانيّةِ ووصولَ الإنسانِ إلى ما خُلق لأجلِه لا يَستقيمُ إلا بنظامٍ مُتقَنٍ يَكفلُ ذلك، والإنسانُ من خلال عقلِه فقط لا يَستطيعُ بناءَ هذا النِّظامِ وصياغته، لمَحدوديّةِ المعرفةِ البشريّةِ في كثيرٍ من النَّواحي؛ فمِن هنا جاءَت ضرورةُ النبوّةِ وإرسالُ الرُّسلِ حتى يُقدِّموا مَعرفةً خاصّةً لا تَرتقي لها عَقولُ البشرِ من دونِ المَعونةِ الإلهيّةِ، وهذه المعرفةُ تُبيِّنُ النِّظامَ الأمثلَ الذي يَجب أن يُطبِّقَه الإنسانُ على وجهِ هذه المَعمورة.

إنَّ تأسيسَ هذا النِّظامِ قد اعتمدَ في مرجعيّته الأولى على المعرفةِ الإلهيّةِ التي قدَّمَها الأنبياءُ عليهم السلام انتهاءً بنبيِّنا الخاتَمِ (محمَّدٍ) صلى الله عليه وآله، وهذه المعرفةُ إطارُها الأساس في الدِّينِ الإسلاميِّ هو القرآنُ الكريم.

إنَّ القرآنَ الكريمَ كتابُ هدايةٍ وإرشادٍ إلى الأهدافِ الإلهيّةِ التي يَجب على الإنسانِ تَحقيقُها في حياته بشكلٍ عامٍّ، وهو مَصونٌ عن الخطأ وقَطعيُّ الصُّدورِ ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: ٤٢]، ومن هنا كانَت معارفُه يَقينيّةً لا تَقبلُ الخَطأ، وبهذا صحَّ أن يكونَ مَرجعيّةً رئيسة في بيان الخطِّ الأصيلِ، وتحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ من الانحرافِ.

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ١، ص. ص ٢٣، ٢٤، كتاب العقل والجهل، الحديث ١.

إنَّ الرُّجوعَ إلى القرآن الكريم، في منهج أهلِ البيت عليهم السلام، هو تمسُّكٌ بالمعيارِ الصَّحيح الذي يُمكن من خلاله فرزُ الأفكارِ والسُّلوكيّاتِ إلى ما هو صحيحٌ يَجب أن يُتَّبع، وباطلٌ يَجب أن يُجتنَب، وبهذا يُحصَّنُ المجتمعُ الإسلاميُّ من دخائلِ الأفكارِ المُبعثرَةِ والالتقاطيّةِ التي تَطفو إلى السَّطح بينَ حينٍ وآخَر.

ومن المهمِّ جدًّا، ونحنُ نتحدَّثُ عن مرجعيّةِ القرآن، لفتُ الأنظارِ إلى هذه القضيّة، وهي أنَّ هذه المَرجعيّةَ، وإنْ كانَت مَرجعيّةً عامّةً لجميعِ المسلمينَ على مُستوى الهدايةِ والإرشادِ مَهما اختلفَت مستوياتُهم، لكنَّها على مستوى استنباطِ المعارفِ وتَقنينها ليسَت ساحةً مُستباحةً يَرتادُها من خلَت خَزائنُه العلميّةُ، بل هي مَرجعيّةٌ لأهلِ العلمِ والاختصاصِ، ومن خلالهم يَعمُّ الآخرَينَ خيرُها؛ أي إنَّ المعارفَ القرآنيّةَ مُتاحةٌ للجميع، لكنَّها في بعض مُستوياتِها تحتاجُ إلى قناةٍ مأمونةٍ، لها أهليّةُ الوصولِ الصَّحيحِ إليها، وهذه النُّقطةُ تَجدُها واضحةً في منهجِ أهلِ البيت عليهم السلام، فقول (الإمامِ الصّادق) عليه السلام لـ(هشامِ بنِ الحَكم): "مِثلُكَ فلْيُكلِّمِ النّاسَ"[1] صريحٌ في أنَّ لكلِّ أمرٍ أهلَه، وهؤلاءِ الذين يتمتَّعونَ بالأهليّةِ والمِصداقيّةِ هم المُعوَّلُ عليهم في اقتناصِ المَعارفِ القرآنيّةِ الخاصّة.

٣- السُّنة النبويّةُ: عُرِّفَت السُّنّةُ النبويّةُ بأنَّها: «كلُّ ما يَصدرُ عن المَعصومِ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ»[2].

إنَّ (النبيَّ الأكرمَ) صلى الله عليه وآله هو الحاملُ للرِّسالةِ الإلهيّةِ والمأمورُ بتَبليغِ الشَّريعةِ الإسلاميّة، ولذا فبَيانُ الخطِّ الأصيلِ مُهمّتُه الأساسيّة، وقد بيَّنَه صلى الله عليه وآله في كلِّ حركةٍ وسَكنة؛ ومن هنا كان قولُه وفعلُه وتقريرُه مَرجعًا للمُسلمينَ في معرفةِ الخطِّ الأصيلِ والبَقاءِ عليه، يقول (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام في نهج البلاغة: «واقتَدُوا بهَدي نَبيِّكُم، فإنَّه أفضلُ الهَدي، واستَنُّوا بسُنَّته، فإنَّها أهدَى السُّنَن»[3]، وقال في موضعٍ آخَرَ منه: «أمَّا وَصيَّتي، فاللهَ لا تُشركُوا به شَيئًا، ومُحمَّدًا صلى الله عليه وآله فلا تُضيِّعوا سُنَّتَهُ. أقيمُوا هذَينِ العَمودَينِ، وأوقِدوا هذَينِ المِصباحَينِ، وخَلاكُم ذمٌّ ما لم تَشرُدُوا»[4].

---

١ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، ص ٤٢٢، كتاب الحجة، باب الاضطرار إلى الحجة، الحديث ٤.

٢ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص ١٢٢، محمد كاظم الخراساني، كفاية الأصول، ج١، ص ٢٣.

٣ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ص ٢٦٤.

٤ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ص ٣٣٠.

وكذلكَ فإنَّ الأئمّةَ عليهم السلام من بعده هم استمرارٌ لنَهجِ النبيِّ صلى الله عليه وآله، وتَتميمٌ لمهامِّه ووظائفه، كما هو مُفصَّلٌ في كتبِ العَقائدِ والكلام[1]، وعلى هذا كانَ تعريفُ السُّنة النبويّة بأنَّها كلُّ ما يَصدرُ عن المعصوم من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير؛ لأنَّ لفظَ المَعصومِ يَشملُ النبيَّ صلى الله عليه وآله، ويَشملُ أهلَ البيتِ عليهم السلام، وهذا الأمرُ في منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام من الواضحاتِ فيه، ومن مُختصّاته أيضًا.

ولا شكَّ في مَرجعيّةِ السُّنة النبويّة بالوجه المَذكورِ في منهجِ أهلِ البيت عليهم السلام؛ لأنَّها صادرةٌ عن المعصومِ عليه السلام، وهي امتدادٌ لهَدي القرآن الكريم، والعبارةُ المَشهورةُ: «أنا أُقاتلُ على التَّنزيلِ، وعليٌّ يُقاتلُ على التّأويلِ»[2] واضحةٌ في ترابُطِ السُّنةِ النبويّةِ معَ هَدي القرآن الكريم، فكلُّ دَعوى تُحاولُ الانتقاصَ من هذه المَرجعيّةِ هي دَعوى انحرافٍ ودَعوى مُزيَّفةٌ ومَرفوضة.

نعم، يَبقى هنا نقطتانِ مُهمّتانِ يَنبغي ذكرهما في المقام؛ الأولى أنَّ السُّنةَ النبويّةَ نفسَها لا شكَّ في مَرجعيّتها وضرورةِ الاستنادِ إليها في بيانِ الخطِّ الأصيلِ، لكنْ قد يُقال إنَّ ما بينَ أيدينا هو الحديثُ المَنقولُ لنا في الكتبِ، وهو ليس السُّنَةَ نفسَها، وإنَّما هو كاشفٌ عنها، وهذا الحديثُ ليسَ له حكمُ السُّنة، فإنْ كانَتِ السُّنةُ مُقدَّسةً ومَعصومةً فالحديثُ الكاشفُ عنها ليسَ مُقدَّسًا أو مَعصومًا. وهذا الكلامُ حقٌّ وصوابٌ لو كان التَّغايُرُ بينَ السُّنة والحديث تامًّا ومُطبقًا، لكنَّ الأمرَ ليس كذلك، وهذه القضيّةُ مَطروحةٌ منذُ زمنٍ بعيدٍ تحتَ عنوانِ السُّنة الواقعيّة والسُّنة المَحكيّة، فالسُّنةُ الواقعيّةُ التي هي نفسُ قولِ المَعصومِ وفعلِه وتقريرِه لا شكَّ في مَرجعيّتها ومَصونيّتها، وأمّا السُّنةُ المَحكيّةُ فإنْ طابقَتِ السُّنةَ الواقعيّةَ أخذَت حُكمَها وإلا فلا، فمَحلُّ الكلامِ حقيقةً هو في مَدى تطابُقِ السُّنة المَحكيّة مع السُّنة الواقعيّة، وعلى هذا الأساسِ تكفَّلَت علومُ الحديث في الكشفِ عن مَدى تطابُقِ السُّنة المَحكيّة معَ السُّنة الواقعيّة، وكلُّ ما ثبتَ تطابُقُه من السُّنة المَحكيّة مع السُّنة الواقعيّة كان له حُكمُها، وكلُّ ما ثبتَ أنَّه ليسَ مُطابقًا لها لا يُتعامَلُ معَه على أنَّه سُنّةٌ واقعيّة.

وأمّا النُّقطةُ الثّانيةُ فهي إنَّ هذه المَرجعيّاتِ لو تَعارضَت ألَا يدلُّ ذلكَ على أنّ بعضها يُخطِّئُ

---

١ - راجع من باب المثال: عبد الحسين خسرو پناه، الكلام الإسلامي المعاصر، ج ٣، ص. ص ٨- ٢٤٥؛ وحسين مكي العاملي، بداية المعرفة، ص. ص ٢٤١- ٢٦٧.

٢ - راجع: محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٩، ص ٣٧٦، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، الحديث ٢؛ الصدوق، الخصال، ج٢، ص ٦٥٠، باب الواحد إلى المائة، الحديث ٤٨.

بعضًا؟ وهذا سيُؤدِّي إلى سقوطِ مَرجعيّتها عن الاعتبار، أو على الأقلِ سقوطِ بعضِها. والجوابُ إنَّ هذه المَرجعيّات بعضُها امتدادٌ لبعضٍ، ولا يُمكن أن تتعارضَ فيما بينَها، ولو حدثَ أن ظهرَ عندَ المُتلقِّي تعارضٌ بينَ هذه المَرجعيّات فإنَّ هذا التَّعارضَ ليسَ حَقيقيًّا، وإنَّما هو تعارضٌ ظاهريٌّ أو مُفتعَلٌ، وعلاجُ مثلِ هذا التعارُضِ الظَّاهريِّ مَنصوصٌ عليه في مَنهجِ أهلِ البيت عليهم السلام، ويَعلمُه أهلُ العلمِ والاختصاصِ، وبَيانُه تَفصيلاً هنا لا يُناسبُ هذه المَقالةَ.

رابعًا: التَّركيزُ على القضايا التأسيسيّةِ في البناء الفكريِّ الأصيل

التَّحصينُ بمعناهُ العامُّ يَقتضي تقويةَ الأسُس التي يقوم عليها الشَّيءُ وتَدعيمَها، وكلَّما كانَت أسُس الشَّيء رُكنيّةً في قيامه أكثرَ وجبَ تقويتُها بطريقةٍ أفضلَ، بناءً على ذلك نجد أنَّ هناك بعضَ القضايا الأساس في منهج أهلِ البيت عليهم السلام جَرى التَّركيزُ عليها بأسلوب مُؤكَّد في إطار بيان الخطِّ الأصيلِ؛ لكونها قضايا مِحوريّةً تأسيسيّةً يَرتكزُ عليها البناءُ الفكريُّ، وتتمظهرُ في كثير من السُّلوكيات والأفعال.

ولأجل هذه المحوريّة، فإنَّ منهجَ أهل البيتِ عليهم السلام أولاها اهتمامًا خاصًّا، وأكَّدَ عليها مِرارًا وتكرارًا، ونحن نذكرُ بعضَها باعتبارها مرآة لها جميعًا:

١- **قضيّةُ التَّوحيد:** تتربَّعُ مسألةُ التَّوحيدِ على قمّةِ القَضايا التي يَدعو إليها الإسلامُ العَزيزُ، حتى إنَّ الشَّهادةَ لله - سبحانَه وتعالى- بالوحدانيّةِ أُولى الشَّهادتَينِ في الإسلام، والقرآنُ الكريمُ ركَّزَ بشكلٍ خاصٍّ على هذه المسألة، فعَجَّت الآياتُ القرآنيّةُ بالتأسيسِ لعقيدةِ التَّوحيد، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [سورة الإخلاص]، هذا الاهتمامُ الخاصُّ من قِبَل القرآن الكريم بموضوعِ التَّوحيد انعكسَ على كلمات أهلِ البيتِ عليهم السلام؛ بحيثُ غَدا تناوُلُهم لموضوعِ التَّوحيدِ في إطار الشَّرح والتَّوضيحِ أكثرَ منه في إطار التَّأسيس، فانظُرْ من باب المثال لكلامِ (أميرِ المؤمنينَ) في التَّوحيدِ تَرَ ذلكَ واضحًا، يقولُ عليه السلام: «وكمالُ التَّصديقِ به توحيدُه، وكمالُ توحيدِه الإخلاصُ له. وكمالُ الإخلاصِ له نَفيُ الصِّفاتِ عنه لشهادةِ

كلِّ صفة أنَّها غيرُ الموصوف، وشهادة كلِّ موصوف أنَّه غيرُ الصِّفة، فمَن وصفَ اللهَ سبحانَه فقد قَرَنَه، ومَن قرنَه فقد ثنّاهُ، ومَن ثنّاهُ فقد جزّأهُ، ومَن جزّأهُ فقد جَهلَه»[1].

إنَّ قضيّةَ التَّوحيد قضيّةٌ مَركزيّةٌ في منهج أهلِ البيت عليهم السلام، لأنَّ لها آثارًا عظيمةً على مستوى الفردِ والأمّة، فإنَّه لا يتطرَّقُ الشكُّ إلى كون قضيّة التَّوحيد مسألةً محوريّةً في الاستقرار الفكريِّ للإنسان، وهي تُلقي بظلالِها على مُعظَمِ القَضايا الفكريّة الإنسانيّة، وتَرسم وَجهًا خاصًّا للحراكِ الفكريِّ البشريِّ الذي يَخوضُه الإنسانُ في سَعيه إلى الحقيقة، بما تمُثِّلُه من نقطة انطلاقٍ تأسيسيّةٍ ومَرجعيّةٍ في الوقتِ نفسِه.

إنَّ الاعتقادَ بالتَّوحيد يَقتضي الاعتقادَ بسنخٍ خاصٍّ من الحياة البشريّة؛ لأنَّ مالكيّةَ الله -سبحانه وتعالى- وحدَه لعالَم الوجود، بكلِّ ما فيه، تَفرضُ على المُعتقِد بذلكَ أن يَرسمَ طريقة حياته ونوعيّتَها بما يتلاءمُ مع ما يُريدُه مالكُ الوجود، ومن ثَمَّ فالمُوحِّدُ يَنطلق من السّاحة العَقديّة إلى فضاءاتِ الفكرِ والسُّلوكِ والسَّجايا، وتَصطبِغُ مَلكاتُه ونشاطاتُه الفرديّةُ والاجتماعيّةُ بصبغةِ التَّوحيد، فتَغدو حياتُه بتَمامها في سبيل الله.

٢- قضيّة القيادة: من أهمِّ المطالب، التي دَعا إليها الإسلامُ، وتُشكِّلُ ركيزةً أساس ومحوريّةً في الحفاظ على السّاحة الفكريّة سالمةً من الانحراف، هي مسألةُ القيادة، مُضافةً إلى وضوح ذلك عندَ العقلِ وفي ساحة العُقلاء؛ من هنا جاء الاهتمامُ بقضيّة القيادة في الإسلام، وما الإمامةُ أو الخلافةُ في المنظور الإسلاميِّ إلا تَجلٍّ لضرورة القيادة، ولا بُديَّةَ وجودها في أيِّ مجتمعٍ مَهما كبرَ أو صغرَ، وقد وردَ عن (أمير المؤمنينَ) عليه السلام: «وإنَّه لا بدَّ للنّاسِ من أميرٍ»[2].

إنَّ الإسلامَ دينُ حياة، والشَّريعةَ الإسلاميّةَ هي قوانينُ ناظمةٌ لحياةِ النّاسِ على المستوى الفرديِّ والجَمعيّ، ولا يُمكن للقوانين بنفسِها تَنظيمُ المجتمع والحياة من دون جهة تُفعِّلُها في الخارج وتُطبِّقُها في مواردِها، وهذه الجهةُ في منهج أهلِ البيت عليهم السلام هي الأئمّةُ عليهم السلام، يقولُ (الشَّيخُ المُفيدُ) في كتابه «أوائل المقالات»: «إنَّ الأئمّةَ القائمينَ مقامَ الأنبياءِ في تنفيذِ الأحكامِ وإقامةِ الحدودِ وحِفظِ

١ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ص ٦٨.
٢ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، ص ١٣٩.

الشَّرائع وتأديب الأنام مَعصومونَ كعصمة الأنبياء»[1]. ومن بعد الأئمّة عليهم السلام يتكفَّلُ بدَور القيادة مَن عيَّنَه الأَئمّةُ عليهم السلام، وهو العالِمُ الفقيهُ الورعُ الجامعُ للشَّرائط، الذي يُمكِنُه من خلال معرفته الشّاملة بالخطِّ الأصيلِ، واستناده إلى المرجعيّات الصَّحيحة، أن يُطبِّقَ القوانينَ الإسلاميّةَ في المجتمع الإسلاميِّ في مواكبته لتطوُّرِ الحياةِ البشريّةِ بشكلٍ عامٍّ.

إنَّ مسألةَ القيادةِ وتَعيينَ القائدِ في منهج أهلِ البيتِ ضرورةٌ حتميّةٌ، ولذا لم يُترك الأمرُ للنّاسِ لاختيارِ قادتهم في المجالِ الدِّينيِّ؛ لأنَّ الاشتباهَ في اختيار القائد له تبعاتٌ خطيرةٌ لا يمُكن إغفالُها، وعدمُ تَعيينِ القائدِ لا يتلاءَمُ مع كون الإسلام هاديًا؛ من هنا تَفيضُ أحاديثُ أهلِ البيتِ عليهم السلام بالتَّصريحِ بهذا الأمر، بل صرَّحَت بعضُ الأحاديثِ بأنَّ مَن لم يَعلَمِ القائدَ المُعيَّنَ من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى، فإنَّه لا يُعَدُّ من أهلِ الإسلام، فعَن (الفضيلِ بن يَسار) قال: «ابتدأَنا أبو عبدِ الله عليه السلام يومًا وقال: قالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: مَن ماتَ وليسَ عليه إمامٌ فميتتُه ميتةٌ جاهليّةٌ، فقلتُ: قال ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: إي واللهِ قد قالَ، قلتُ: فكلُّ مَن ماتَ، وليسَ له إمامٌ، فميتتُه ميتةٌ جاهليّةٌ؟! قال: نَعم»[2].

من هنا كان من مميِّزاتِ مَنهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام ومُختصّاته القولُ بتَعيينِ القادةِ الإلهيِّينَ من قِبَلِ الله سبحانه وتعالى، وتَعيينِ قادةِ المجتمعِ من خلال نصِّ الأئمّةِ عليهم.

٣ - قضيّةُ المَعاد: لا يَخفى على ذي لُبٍّ الآثارُ الكبيرةُ المُترتِّبةُ على الإيمانِ بمسألة المَعاد في شتَّى الشُّؤون الحياتيّة، ولذلكَ ركَّزَ الإسلامُ على هذه القضيّة كثيراً، قال -تعالى-: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠]، ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾[المؤمنون: ١١٥].

وقد تطرَّقَ القرآنُ الكريمُ إلى مسألة المَعادِ والحياةِ الأخرى في أكثرَ من ألف مَوردٍ، وهذه المسألةُ

---

١ - محمد بن محمد المفيد، أوائل المقالات، ص ٦٥.

٢ - محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٢، ص٢٦٤، كتاب الحجة، باب من مات وليس له إمام من أئمة الهدى، الحديث ١. هناك أحاديث كثيرة في الكافي الشريف وفي غيره من الكتب الحديثية بألفاظ مختلفة صرحت أن من مات ولم يعرف إمام زمانه فإن ميتته ميتة جاهلية.

تُناظرُ مسألةَ التَّوحيد في الأهميّة، وتُوازيها في ترشُّحها إلى نمط التَّفكير وطبيعة الحياة التي يَختارُها مَن يَعتقدُ بها، فإنَّ الاعتقادَ بالمَعاد يُحرِّرُ الإنسانَ من أُطر الحياة الدُّنيا الفانية، ويَدفعُه إلى الالتزام بالفضائل والأخلاق الحميدة، ويُلجمُ غرائزَه وشهواته، ويَنزعُ به إلى الدِّفاع عن القوانين الاجتماعيّة والحُقوقيّة والخُلُقيّة ومُواجهة الباطل والانحراف؛ لأنَّه يَرى الفائدةَ والمَنفعةَ والفوزَ في حياته الأخرى وما يُوصلُه إليها سالمًا غانمًا. وردَ عن (أمير المؤمنين) عليه السلام أنَّه قال: "لا يُؤمنُ بالمَعاد مَن لا يتحرَّجُ عن ظُلم العباد"[1]، فالإيمانُ بالمَعاد يُؤسِّسُ لمجتمعٍ إنسانيٍّ خالٍ من الفساد والظُّلم، ويُقيمُ أسُسَ الخيرِ والصَّلاح، ويَحفظ لكلِّ صاحبٍ حقٍّ حقَّه.

بسبب هذه الأهميّة لمسألة المَعاد، وبسبب محوريّتها في تحديد طبيعة حياة الإنسان وشكلها، جَرى التَّركيزُ عليها في منهج أهلِ البيت عليهم السلام حتّى إنَّها غدَت من أصول الدِّين الخاصّة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

٤- الأمرُ بالمَعروف والنَّهيُ عن المُنكَر: من أهمِّ ملاكات الشَّريعة الإسلاميّة وأعظمها حفظُ الاجتماع، فحفظُ الاجتماع علَّةٌ لكثيرٍ من الأحكام الشَّرعيّة، ويَدخلُ في ملاك كثيرٍ من الأحكام، كالزَّكاة والخمس والقصاص والصَّلاة وغيرها، فمَثلاً صلاةُ المُسلم في بيته وصلاتُه في المسجد واحدةٌ، وكلتاهُما تُسقطان التكليفَ، لكنَّ صلاتَه في المسجد لأجل ما فيها من اجتماع المسلمينَ ووحدتهم صارَت أفضلَ، والحضُّ عليها أشدُّ، يقول (الإمامُ الصّادقُ) عليه السلام: «الصَّلاةُ في جماعةٍ أفضلُ من صلاة الفذِّ بأربعٍ وعشرينَ صلاةً»[2].

ومن أبرز الأحكام الشَّرعيّة، التي أرساها الإسلامُ العزيزُ، وأكَّدَ عليها منهجُ أهل البيت عليهم السلام، التي يَدخل في ملاكها حفظُ الاجتماع، هي فريضةُ الأمر بالمَعروف والنَّهي عن المُنكَر؛ لأنَّها تَصونُ المجتمعَ الإسلاميَّ من الانحراف الطّارئ، بل بتَعبير (أمير المُؤمنين) عليه السلام: «قوامُ الشَّريعة الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المُنكَر»[3]. وتَرتبطُ فريضةُ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر بالإصلاح في

١ - عبد الواحد بن محمد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٧٨٨.
٢ - النعمان بن محمد بن حيون، دعائم الإسلام، ج١، ص ١٥٣.
٣ - عبد الواحد بن محمد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٢٨٥.

جميع أبعاده، والإصلاحُ مُلازمٌ للفَساد، والفسادُ موجودٌ منذُ كان البشرُ على هذه الأرضِ، من هنا فأهميّةُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ تَنبعُ من الحاجةِ الدّائمةِ إليه في المُجتمعاتِ البشريّةِ، خصوصًا مع التطوُّرِ السَّريعِ الذي تَشهدُه السّاحةُ الإنسانيّةُ في الأزمنةِ المتُأخِّرة.

ولهذا السَّببِ كان التَّركيزُ عليه في مَنهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام، وليسَت واقعةُ كربلاءَ العَظيمةُ، وما جَرى على (الإمام الحسينِ) الشَّهيدِ عليه السلام وعلى أهلِ بيتِه، إلا دليلاً على عِظَمِ وأهميّةِ قضيّةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكَر.

الخاتمة

منذُ بزغَ فجرُ الإسلامِ على هذه البسيطةِ بالهُدى والرَّشادِ شكَّل الإسلامُ التَّهديدَ الأكبرَ للباطلِ وأهلِه، وكلَّما تصرَّمَ الزَّمانُ أدركَ أهلُ الباطلِ خطورةَ الإسلامِ على آمالِهم وطموحاتِهم؛ لذا فإنَّهم قد سعَوا ويَسعَونَ إلى تَخريبِه وإسقاطِه والنَّيلِ منه بكلِّ ما أُوتوا من قوّةٍ ومَكرٍ وخَديعة. لكنَّ الإسلامَ الذي هو دينٌ خالدٌ لم يَغفل عن هذا الأمرِ، بل قدَّمَ مَنهجًا مَتينًا لتَحصينِ نفسِه من الانحرافاتِ والأباطيل، وبالنَّتيجةِ تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميّ.

ومعَ ما نَعيشُه اليومَ من اشتدادِ شوكةِ أهلِ الباطلِ وكَثرتِهم، وتَفانيهم في ترسيخِ أوَدِهم، يُصبحُ تَظهيرُ هذا المنهجِ ضرورةً مُلحّةً، ولمّا كان الإسلامُ اليومَ بصورتِه الحقيقيّةِ يَتمثَّلُ في مَدرسةِ أهلِ البيتِ عليهم السلام جاءَت هذه الدِّراسةُ بعنوان منهج أهل البيت عليهم السلام في تحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ، وخلصَت إلى النتائج الآتية:

١. منهجُ أهلِ البيتِ في تحصين المجتمعِ الإسلاميِّ يَعتمدُ على الوقايةِ من الانحرافِ.

٢. البيانُ الوافي والصَّحيحُ للإسلام أحَدُ أركانِ وأُسُسِ تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ في منهج أهلِ البيتِ عليهم السلام.

٣. من أركانِ تحصينِ المُجتمعِ الإسلاميِّ وأسُسِه، ضمنَ منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام، تحديدُ

الآليّاتِ الصَّحيحةِ لاكتسابِ المَعرفةِ الدِّينيّةِ.

٤. تحديدُ المَرجعيّاتِ الصَّحيحةِ التي يُرجَعُ إليها عندَ حدوثِ الانحرافِ ركنٌ من أركانِ تحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ في منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام.

٥. التَّركيزُ على المَفاهيمِ والقَضايا المِحوريّةِ في حياة الإنسانِ ركنٌ من أركانِ تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ في منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام.

وفي النِّهايةِ تُوصي هذه الدِّراسةُ بالعملِ على تظهيرِ منهجِ أهلِ البيتِ عليهم السلام بشكلٍ تَفصيليٍّ على مستوى المعارفِ الدِّينيّةِ، من خلال عرضِ نماذجَ جُزئيّةٍ من سيرتهم المُباركة، كما تَدعو إلى تكثيفِ العملِ التبليغيِّ الصَّحيحِ المُعتمِدِ على منهجِ أهلِ البيتِ في تَحصينِ المجتمعِ الإسلاميِّ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر: بيروت، ط- ١٩٧٩م.
- إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية (الصحاح)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤- ١٩٩٠م.
- حسن مكي العاملي، بداية المعرفة، دار ذوي القربى، ط٥- ١٤٤١هـ.
- شمس الدين الأصفهاني، تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد، تصحيح وتعليق د. خالد بن حماد العدواني، كنوز المعرفة، بلا تاريخ.
- عبد الحسين خسروپناه، الكلام الإسلامي المعاصر، ترجمة محمد حسين الواسطي وأسعد الكعبي، مكتبة الكويت للبحث العلمي والفكر الأصيل، ط- ١٤٣٧هـ.
- عبد الواحد بن محمد الآمدي، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق سيد مهدي رجائي، دار الكتاب الإسلامي، قُم المشرفة، ط٢-١٤١٠هـ.
- علي الرباني الگلپايگاني، محاضرات في الإلهيات، مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)، ط٢٣- ١٤٣٨هـ.
- علي رضا قائمى نيا، قرآن ومعرفت شناسى، سازمان انتشارات پژوهشگاه فرهنگ وانديشه اسلامى، طهران، ط٢- ١٣٩٦هـ.ش.
- محمد باقر الصدر، دروس في علم الأصول، مؤسسة النشر الإسلامي، ط٩- ١٤٣٥هـ.
- محمد بن الحسين (الشريف الرضي)، نهج البلاغة، تحقيق الشيخ قيس بهجت العطار، العتبة العلوية المقدسة، ط١-١٤٣٧هـ.
- محمد بن علي بن بابويه (الصدوق)، الخصال، تحقيق علي أكبر الغفاري، منشورات جماعة المدرسين، قم، ط- ١٣٦٢هـ.ش.

- محمد بن محمد المفيد، أوائل المقالات، دار المفيد للطباعة، ط٢- ١٤١٤هـ.
- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، دار الحديث، قم، ط٣- ١٤٣٤هـ.
- محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، مؤسسة آل البيت عليهم السلام للطباعة والنشر، ط٢- ١٩٧٩م.
- محمد كاظم الآخوند الخراساني، كفاية الأصول، تحقيق الشيخ عباس علي الزارعي السبزواري، مؤسسة النشر الإسلامي: قم المشرفة، ط٩- ١٤٣٥هـ.
- النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، ط- ١٩٦٣م.

مِحوريّةُ الظُّلمِ في سُنَنِ هَلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم

◆ إياد محمد علي الأرناؤوطي[1]

■ خلاصة

في هذه الدِّراسةِ مُحاولةٌ للكشفِ عن مِحوريّةِ الظُّلمِ، وكونِه مِحورًا لسُننِ هلاكِ الأمَمِ ونُزولِ العَذابِ بها في القرآنِ الكريمِ.

وقد توصَّلَت الدِّراسةُ إلى أنَّ هلاكَ القُرى والأمَمِ مُرتَبطٌ بتَلبُّسِها وتَورُّطِها في الظُّلمِ، وأنَّ هذا الهلاكَ يأتي بعدَ الإنذارِ، وتَقديمِ كلِّ وسائلِ الصَّلاحِ والهدايةِ والإمهالِ. وهذا الهلاكُ لا يأتي بطريقةٍ عَشوائيّةٍ، وإنَّما وَفقَ سُننٍ دَقيقةٍ؛ بحيثُ لا يُظلَمُ أحدٌ من الهالكينَ أو الذين نزلَ بهم العِقابُ. كما أنَّ هذا الهلاكَ يَحملُ في طيّاتِه العِبرةَ للأقوامِ اللّاحقةِ، ويُمكِنُ أن يكونَ سَببًا في هدايتِها وصَلاحِها وبُعدِها عن الظُّلمِ.

الكلمات المفتاحية: القرآن - الظُّلم - القُرى - الأمم - الإنسان - السُّنن.

١ - متخصص بلغة القرآن الكريم، أستاذ دكتور في جامعة بغداد.

المُقدِّمة

يَسعى هذا البحثُ إلى الإجابةِ عن سؤال: هل يُكوِّنُ الظُّلمُ محورًا لسُننِ هلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم؟ وحدودُهُ هي القرآنُ الكريم من أوَّلِه إلى آخرِه، وقد وفَّقَني اللهُ -تعالى- لتتبُّعِ الموضوعِ من سورةِ الفاتحةِ حتّى النّاسِ، لاستجلائِه.

يتألَّفُ البحثُ من مُقدِّمة، وأربعةِ مَحاورَ، الأوَّلُ: تَعريفٌ بمُفرداتِ العُنوان، والثاني: الظُّلمُ في القرآن الكريم، والثّالثُ: الهَلاكُ في القرآن الكريم، والرّابعُ: سُنَنُ هلاكِ الأفرادِ والقُرى والأمَمِ في القرآن الكريم. وقد تضمَّنَ كلُّ محورٍ مَطالبَ فَرعيّةً، بحسبِ ما يَقتضيه المَنهجُ العِلميُّ، وخُتم بخاتمةٍ تضمَّنَت أهمَّ نتائجِ البَحث.

أولا: تعريفٌ بمُفرداتِ العنوان

١. الظُّلم

ممّا قالَه (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) في مادة (ظ ل م): «والظُّلْمُ عند أهلِ اللُّغةِ، وكثيرٍ من العُلماء: وَضعُ الشَّيءِ في غير مَوضعِه المُختصِّ به، إمّا بنُقصان، أو بزيادة، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِه أو مَكانه، ومن هذا يُقال: ظَلَمْتُ السِّقاءَ: إذا تناولتَه في غيرِ وَقتِه، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبنُ الظَّليمَ. وظَلَمْتُ الأرضَ: حَفَرتُها، ولم تكنْ مَوضِعًا للحَفرِ، وتلكَ الأرضُ يُقال لها: المَظلُومةُ، والتُّرابُ الذي يُخرَجُ منها: ظَليمٌ.

والظُّلمُ يُقال في مُجاوزةِ الحَقِّ، الذي يَجري مَجرى نقطةِ الدّائرةِ، ويُقالُ فيما يَكثرُ، وفيما يَقِلُّ،

من التَّجاوُزِ، ولهذا يُستعمَلُ في الذَّنبِ الكبيرِ، وفي الذَّنبِ الصَّغيرِ، ولذلك قيلَ لآدمَ في تعدِّيهِ: ظالِمٌ[1]، وفي إبليسَ: ظالمٌ، وإن كان بينَ الظُّلمَينِ بونٌ بَعيد.

قال بعضُ الحُكماءِ: الظُّلمُ ثلاثةٌ:

- **الأوَّلُ:** ظُلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللّهِ تعالى، وأعظَمُه: الكُفرُ، والشِّركُ، والنِّفاقُ، ولذلك قال: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣]. وقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ [الأنعام: ٩٣].

- **والثاني:** ظُلمٌ بينَه وبينَ النّاسِ، وإيّاهُ قَصد بقوله: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [الشورى:٤٠]، وبقوله: ﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ**﴾ [الشورى: ٤٢].

- **والثالثُ:** ظُلمٌ بينَه وبينَ نفسِه، وإيّاهُ قَصد بقوله: ﴿**فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ**﴾ [فاطر:٣٢]، وقوله: ﴿**ظَلَمْتُ نَفْسِي**﴾ [النمل: ٤٤].

وكلُّ هذه الثَّلاثةِ في الحقيقة ظُلْمٌ للنَّفسِ، فإنَّ الإنسانَ في أوَّلِ ما يَهمُّ بالظُّلمِ فقد ظَلَمَ نفسَه، فإذا الظَّالمُ أبدًا مُبتدئٌ في الظُّلمِ، ولهذا قال تعالى في غيرِ مَوضعٍ: ﴿**وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ولكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل:٣٣]، وقوله: ﴿**ولَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا**﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تُنقِصْ»[2].

والتأمُّلُ فيما قالَه (الرّاغبُ) يَقودُنا إلى الآتي:

- **الأوّلُ:** يَقعُ الظُّلمُ حتَّى على غيرِ العُقلاءِ، فقد وقعَ على اللَّبَنِ والأرضِ فيما أوردَه.

- **الثّاني:** قولُ (الرّاغبِ): «والظُّلمُ يُقال في مُجاوَزةِ الحقِّ، الذي يَجري مَجرى نقطةِ الدّائرةِ»، هو أهمُّ ما يَهمُّنا في بَحثِنا هذا، ويَستلزِمُ الوقوفَ على مفهومِ الحقِّ في القرآنِ

١ - وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولا يُقال ذلك إلا مع الآية دون الإطلاق.

٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ٥٣٧ ــ ٥٣٨.

الكريم، الذي يكونُ تَجاوُزُه ظُلمًا، لذا سنَقفُ عندَه: أوردَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) أربعةَ مَعانٍ لكلمةِ (حقّ)، الثّالثُ والرّابعُ هما الأقرَبُ للمُرادِ من (الحقِّ) الذي تَجاوزُهُ ظُلمٌ، إذ قال «أصلُ الحقِّ: المُطابَقةُ والمُوافَقةُ... والحقُّ يُقال على أوجهٍ:

- **... الثالثُ:** في الاعتقادِ للشَّيءِ المُطابقِ لما عليه ذلكَ الشَّيءُ في نفسه، كقولنا: اعتقادُ فلانٍ في البعثِ والثَّوابِ والعقابِ والجنّةِ والنّارِ حقٌّ، قال الله تعالى: ﴿**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢١٣].

- **والرّابعُ:** للفعلِ، والقولِ الواقعِ بحسبِ ما يَجب، وبقَدرِ ما يَجب، وفي الوقتِ الذي يَجب، قال الله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ**﴾ [يونس: ٣٣]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ**﴾ [المؤمنون:٧١]، يَصحُّ أن يكونَ المرادُ به اللهَ تعالى، ويَصحُّ أن يُرادَ به الحُكمُ، الذي هو بحسبِ مُقتضى الحكمةِ. ويُستعمَلُ استعمالَ الواجبِ، واللاّزمِ، والجائزِ، نحو ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[1]

ومن التأمُّلِ في المَعاني التي تتحرَّكُ فيهما المُفردةُ، تتَّضحُ ثلاثةُ أمورٍ:

- **الأوَّلُ:** لا بدَّ من طَرفَينِ: أحدُهما: لَه الحَقُّ، والآخرُ: مُكلَّفٌ عليهِ الحَقُّ، فهما مُتضايفانِ، لا يُعقَلُ أحدُهما من دونِ الآخَرِ.

- **الثّاني:** لا بدَّ من مَرجعيّةٍ للحقِّ، سواء كانَت العَقلَ الحاكمَ بالأدلّةِ، أم جهةً لها حقُّ التَّشريعِ.

وقد أفاضَ (أميرُ المؤمنينَ عليٌّ) عليه السلام في الحديث عن الحقوق في الحياة الإنسانيّة في خطبةٍ له، فقال: «فالحَقُّ أوسَعُ الأشياءِ في التَّواصُفِ، وأضيَقُها في التَّناصُفِ، لا يَجري لأحَدٍ إلاَّ جَرَى عَلَيهِ، ولا يَجري عَلَيهِ إلاَّ جَرَى لَهُ، ولَو كانَ لأحَدٍ أن يَجريَ لَهُ ولا يَجريَ عَلَيهِ، لَكانَ ذلكَ خالصًا لله سُبحانَهُ دُونَ خَلقِهِ، لِقُدرَتِهِ عَلَى عِبادِهِ، ولِعَدلِهِ فِي كُلِّ ما جَرَت عَلَيهِ صُرُوفُ قَضائِهِ، ولَكِنَّهُ

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى العباد أن يُطيعُوهُ، وجَعَلَ جَزاءَهُم عَلَيه مُضاعَفَةَ الثَّواب تَفضُّلاً منهُ، وتَوسُّعًا بما هُو مِنَ المَزيد أهلُهُ. ثُمَّ جَعَلَ ـ سُبحانَهُ ـ من حُقُوقِه حُقُوقًا افترَضَها لِبَعضِ النّاسِ عَلَى بَعضٍ، فجَعَلَها تَتَكافأُ في وُجُوهِها، ويُوجِبُ بَعضُها بَعضًا، ولا يُستَوجَبُ بعضُها إلاَّ بِبَعضٍ»[1].

ومن هذه الخطبةِ يتَّضحُ ما يُقرِّرُه (أميرُ المؤمنينَ) عليه السلام في الحقوقِ، وهذا مضمونه:

١. أنَّ الحقوقَ مَجعولةٌ من الله تعالى، فلَه وحدَه حقُّ تَشريعِها في الإسلام.

٢. تَضايُفُ الحقوق سُنّةٌ إلهيّةٌ مُطَّردةٌ، لا يُستثنى منها مَخلوقٌ، فمَن وجبَ له حقٌّ على أحد، وجبَ عليه حقٌّ تُجاهَه: « لا يَجري لأحَدٍ إلاَّ جَرَى عَلَيه، ولا يَجري عَلَيه إلاَّ جَرَى لَهُ».

٣. لَم يَستثْنِ اللهُ -تعالى- ذاتَه المُقدَّسةَ من هذه السُّنّة المُطَّردة، إذ جعلَ لنفسِه حُقوقًا على خَلقِه، وجعلَ لخَلقِه حُقوقًا عليه، تفضُّلاً منه ورَحمةً.

٤. لو كانَ الحقُّ يَجري لأحدٍ ولا يَجري عليه، لكانَ الأجدَرُ بذلك هو اللهُ تعالى، لسببَينِ:

«الأوَّلُ: أنَّه القادرُ المُطلَقُ، فلا يُعجزُه شيءٌ، فيَستطيعُ أن يَقهَرَ عبادَه على حقوقِه، ويَحملَهم عليها، ولا يُعطِيَهم شيئًا، وأمّا غيرُه فلا يَملِكُ ذلك.

الثّاني: أنَّه لو لم يَجزِهم بأعمالهم، ومعَ ذلكَ كلَّفَهم بها، لكانَ عادلاً، لأنَّ له من النِّعَمِ على العبادِ ما لو عبَدوهُ، مدَى الدَّهرِ، لم يُوفُّوهُ حقَّ نعمةٍ واحدةٍ منها»[2].

٥. جعلَ الله -تعالى- من حقوقِه حُقوقًا لبعضِ النّاسِ على بعضٍ، فهي حقوقٌ مُزدوجةُ الجانبِ، مَن انتهكَها انتهكَ حقَّينِ، أحدُهما للهِ الذي افترضَها، والآخَرُ لمَن فرضَ اللهُ له الحقَّ.

وباتِّضاحِ مفهومِ الحقِّ، يتَّضحُ مَفهومُ الظُّلمِ تمَامًا، الذي هو تَجاوُزٌ للحقِّ، والذي يُمكِنُ تَقسيمُه على قِسمَينِ: ظلمُ الإنسانِ لنفسِه، وظلمُه لغَيرِه، وعلى محورِه يَدورُ بَحثُنا هذا.

١ - الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة ٢١٦، ج٢ ص ١٩٨.
٢ - عباس الموسوي، شرح نهج البلاغة، ج٣ ص ٤٩٧.

٢. السُّنّة

قال (الرّاغبُ الأصفهانيُّ): «السُّنَنُ: جمع سُنَّة... وسُنَّةُ النَّبيِّ: طريقتُه التي كان يَتحرّاها. وسُنَّةُ اللّه تعالى: قد تُقالُ لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**﴾ [الفتح: ٢٣]، ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلا**﴾ [فاطر: ٤٣]، فتَنبيهٌ أنَّ فروعَ الشَّرائع- وإنْ اختلفَت صُوَرُها- فالغرضُ المَقصودُ منها لا يَختلف ولا يَتبدَّلُ، وهو تَطهيرُ النَّفسِ، وتَرشيحُها للوصولِ إلى ثواب اللّهِ تعالى وجِوارِه»[١].

٣. الهَلاك

جعلَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) (الهَلاكَ) على أربعةِ أوجهٍ:

- **الأوَّلُ:** افتقادُ الشَّيءِ عنكَ، وهو عندَ غيرِكَ مَوجودٌ، كقوله تعالى: ﴿**هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ**﴾ [الحاقة: ٢٩].
- **الثّاني:** هَلاكُ الشَّيءِ باستحالةٍ وفَسادٍ، كقوله: ﴿**وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ويُقال: هَلَكَ الطَّعامُ.
- **الثّالثُ:** الموتُ كقوله: ﴿**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ**﴾ [النساء: ١٧٦].
- **الرّابعُ:** بطلانُ الشَّيءِ من العالَمِ، وعدمُه رأسًا، وذلك المُسمَّى فناءً، المُشارُ إليه بقوله: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، ويُقال للعذابِ والخوف والفَقر: الهَلاكُ، وعلى هذا قوله: ﴿**وإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وما يَشْعُرُونَ**﴾ [الأنعام:٢٦]، ﴿**وكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ**﴾ [مريم:٧٤]. وقوله: ﴿**فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ**﴾ [الأحقاف:٣٥]، هو الهَلاكُ الأكبرُ»[٢].

وما أعنيه بالهَلاكِ في هذه الدِّراسة: هو ما يَعمُّ الموتَ الماديَّ بزَوالِ مَظاهرِ الحَياةِ الماديّةِ، والمَوتَ المَعنويَّ، المُتمثِّلَ بزَوالِ الحياةِ المَعنويّةِ للإنسانِ.

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤٢٩.
٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص. ص ٨٤٣ ـــ ٨٤٤.

٤. القرية

قال (الرّاغبُ الأصفهانيُّ): «القَريةُ: اسمٌ للمَوضعِ الذي يَجتمعُ فيه النّاسُ، وللنّاسِ جَميعًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما. قال تعالى: ﴿**وسْئَلِ الْقَرْيَةَ**﴾ [يوسف: ٨٢]، قال كثيرٌ من المُفسِّرينَ: معناهُ: أهلَ القريةِ. وقيلَ: بل القَريةُ هاهُنا: القومُ أنفسُهم، وعلى هذا قولُه: ﴿**وما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى**﴾ [هود: ١١٧]، فإنَّها اسمٌ للمَدينةِ... وقَرَيْتُ الماءَ في الحوضِ، وقَرَيْتُ الضَّيفَ قِرًى، وقَرَى الشَّيءَ في فمِه: جمعَه، وقَرَيانُ الماءِ: مُجتمَعُه»[١]. وذكرَ الإمامُ السبزواري أنَّ "مادة (ق ر ي)، تأتي بمَعنى: الجمعِ، فيَصحُّ إطلاقُها على كلِّ مَجمعٍ إطلاقًا حقيقيًّا، ورُوي أنَّ بعضَ القُضاة دخلَ على عليِّ بنِ الحسين ﷺ، فقال: "أخبرْني عن قولِ اللّه تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ**﴾ [سبأ:١٨]، ما يَقولُ فيه عُلماؤُكُم؟ قال: يَقولونَ: إنَّها مكّةُ، فقال ﷺ: وهل رأيتَ سرقَ في موضعٍ أكثر منه بمَكّةَ؟ قال: فما هو؟ قال ﷺ: إنَّما عَنى الرِّجالَ. قلتُ: فأينَ ذلكَ من كتابِ اللّه؟ فقال ﷺ: ألم تَسمعْ قولَ اللّه تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ**﴾ [الطلاق:٨]»[٢]. أقولُ: وعلى هذا لا داعيَ إلى تقديرِ الحذفِ، والإضمارِ، الذي عليهِ الأدباءُ، وتَبعَهم جمعٌ من المُفسِّرينَ، لأنَّه معَ صِحّةِ المَعنى الحَقيقيِّ، لا تَصل النّوبةُ إلى المَجازِ، والحَذفِ.»[٣]

٥. الأمّة

ذكرَ (الرّاغبُ الأصفهانيُّ) أنَّ الأُمَّةَ: كلُّ جماعةٍ يَجمعُهُم أمرٌ ما: دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تَسخيرًا، أو اختيارًا[٤]. والذي يَبدو للباحثِ في التَّفريقِ بينَ الأمّةِ والقَريةِ في التَّعبيرِ القرآنيّ: أنَّ القَريةَ أخصُّ من الأمّة، وقد تكونُ القَريةُ أمّةً، يَجمعُها مكانٌ وزمانٌ ونظامٌ اجتماعيٌّ وإداريٌّ واحدٌ، وقد تتألَّفُ الأمّةُ من قُرًى عَديدةٍ.

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٦٩.
٢ - أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج - ج ٢ – ص. ص ٤٢ -٤٣.
٣ - إياد محمد الأرناؤوطي، المواهب، (ق ر ي)، ج٢، ص١٢٨.
٤ - يُنظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في ألفاظ القرآن، ص ٨٧.

ثانيًا: الظُّلمُ في القرآن الكريم

يَقطعُ (العلاّمةُ الطباطبائيُّ) إنَّ «الظُّلمَ من أشنعِ الذُّنوب، بل التَّحليلُ الدَّقيقُ يَقضي أنَّ سائرَ الذُّنوبِ إنَّما هي شَنيعةٌ مَذمومةٌ بمقدارِ ما فيها من مَعنى الظُّلم، وهو الانحرافُ والخروجُ عن الوسطِ العَدل»[1]. والقسمةُ العَقليّةُ، لدلالةِ هذا الفعلِ، تَقتضي أنَّ هذا المفعولَ لا يَخلو من احتمالَين: أحدُهما: أن يُوقِعَ الإنسانُ الظُّلمَ على نفسِه، والآخَرُ: أن يُوقِعَه على غيرِه؛ وقد يُستعمَلُ مُطلَقًا فيُرادُ به كلاهُما معًا.

١. ظُلم الإنسانِ نفسَه

يُقرِّرُ القرآنُ الكريمُ أنَّه لا بدَّ للإنسان من سبيلٍ يَسلكُه في هذه النَّشأة الدُّنيويّة اختيارًا: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف:٢٩]، فلَه أن يَختارَ أيًّا من السَّبيلَين، وواجبٌ عليه أن يَختار؛ واستنادًا إلى هذا الاختيار، تتحدَّدُ معالمُ حياتِه الأبديّة: سعادةً أو شقاءً. وباختياره طريقَ الشَّقاء، يتحقَّقُ ظُلمُ النَّفسِ، بل بكلِّ تَعَدٍ لحدودِ اللهِ تعالى، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ [الطلاق:١].

وفي حديثٍ لـ(الإمام الباقر) عليه السلام، يَصفُ فيه ما يَحصل للنَّفسِ الإنسانيّة عندَ مُقارَفة الذُّنوب، يقول: «ما من عَبدٍ إلاّ وفي قَلبِه نُكتةٌ بَيضاءُ، فإذا أذنَبَ ذَنْبًا خَرَجَ في النُّكتة نُكتةٌ سَوداءُ، فإنْ تابَ ذَهَبَ ذلكَ السَّوادُ، وإنْ تمادَى في الذُّنوب، زادَ ذلكَ السَّوادُ حتَّى يُغَطِّي البَياضَ، فإذا غَطَّى البَياضَ لَمْ يَرْجِعْ صاحِبُهُ إلى خَيرٍ أَبَدًا، وهوَ قَولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [المطففين: ١٤]»[2].

وقد يَرِدُ ظُلمُ النَّفسِ في القرآن الكريمِ، ولا يُرادُ به هذا المَعنى، من ذلك:

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٧، ص ٤٤.

٢ - محمد بن يعقوب الكافي، كتاب: الإيمان والكفر، باب: الروح الذي أيد به المؤمن، ج٢ ، ص٢٧٣، حديث: ٢٠.

أ. أوَّلُ ظُلمٍ للنَّفس الإنسانيّة

أوَّلُ ظُلمٍ قصَّهُ علينا القرآنُ الكريم هو قولُه -تعالى- على لسان أبينا (آدمَ) عليه السلام، وأمِّنا (حَوّاءَ): ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وهي «كلمةٌ قالاها بعدَما أكَلا من الشَّجرة، التي نَهاهُما اللهُ أن يَقرباها، وإنَّما كانَ نهيَ إرشادٍ ليسَ بالمولوي، ولم يَعصياهُ عِصيانَ تكليف، بل كان ذلك منهما مُخالَفةَ نَصيحة، في رعايتِها صَلاحُ حالهما، وسعادةُ حياتِهما في الجنّة الآمنة من كلِّ شَقاءٍ وعَناء، وقد قال لَهما ربُّهما في تَحذيره لَهما عن متابعة (إبليسَ): ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه:١١٧-١١٩][1].

ب. ظُلمُ الأنبياءِ لأنفسِهم

في قصّة (مُوسى) عليه السلام، جاءَ قولُه -تعالى- على لسانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمِ﴾ [القصص:١٥ - ١٦] «مقصودُه: إنَّ هذا القَتلَ الصّادرَ منِّي من عملِ الشَّيطان، وهذا لا يُنافي ما عليه الشِّيعةُ من عصمة الأنبياء، فإنَّ الأنبياءَ عليهم السلام مَعصومونَ من المَعاصي، لا من تَركِ الأَولى، وبعبارةٍ أُخرى: إنَّهم مَعصومونَ من الذُّنوب، التي هي ذنوبٌ بالنِّسبة إلى غيرِهم، لا من الذُّنوب التي هي ذنوبٌ بالنِّسبة إليهم، فإنَّ حسناتِ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبينَ، وتَوبةُ الأنبياء عليهم السلام من الالتفات إلى غير اللّه، فلا غروَ أن يكونَ مُوسى عليه السلام عَدَّ فعلَه، يَعني: تَعجيلَه في قتلِ مَن استحقَّ القَتلَ من دون مُلاحَظة المَفاسد، التي تترتَّبُ عليه، ذنبًا له، واستغفرَ منه، ونسبَ الظُّلمَ إلى نفسِه، معَ أنَّه كانَ مُستحِقًّا للقَتلِ»[2].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٦، ص ٢٦٤.

٢ - سلطان عليشاه گنابادى، بيان السعادة في مقامات العبادة، ج٣، ص ١٨٥.

٢. ظُلمُ الإنسانِ غَيرَه

تَقتضي طبيعةُ حياةِ الإنسانِ على هذهِ الأرضِ، نَوعَينِ من العلاقاتِ للإنسانِ بغَيرِه، يمُكِنُ أن يَتخلَّلَها الظُّلمُ:

أ. الظُّلمُ بينَ الإنسانِ ورَبّه

ثَمَّةَ سؤالٌ يَطرحُ نفسَه: أيَجوزُ إيقاعُ الظُّلمِ على اللهِ تعالى؟ يَبدو أنَّ الذّائقةَ اللُّغويّةَ العربيّةَ لا تَستسيغُ الإجابةَ بالإيجابِ عن ذلك، فمَفهومُ المَظلوميّةِ يَرتبطُ بمَفهومِ الاستضعافِ، والاستضعافُ ممّا لا يَصِحُّ إطلاقُه عليه سبحانَه البتّةَ، لكنْ بالعَودةِ إلى مَعاني الظُّلمِ في مُعجماتِ اللُّغةِ، وفي الاستعمالِ القرآنيِّ، ومنها النَّقصُ، والإضرارُ، نجدُ الأمرَ غيرَ ذلك؛ ففي تفسيرِ قولِه سبحانه: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:١٣]، قال الزَّمخشريُّ في سببِ وصفِ الشِّركِ باللهِ بالظُّلمِ العَظيم: «لأنَّ التَّسويةَ بينَ مَن لا نِعمةَ إلا هي مِنهُ، ومَن لا نِعمةَ منه البتّةَ، ولا يُتصوَّرُ أن تكونَ منهُ، ظلمٌ لا يَكتَنِهُ عِظَمَه»[١].

وقد قال (الطبرسيُّ): "أصلُ الظُّلمِ النُّقصانُ ومَنعُ الواجبِ، فمَن أشركَ باللهِ فقد منعَ ما وجبَ للهِ عليهِ من مَعرفةِ التَّوحيدِ فكانَ ظالمًا، وقيلَ: إنَّه ظلمَ نفسَه ظلمًا عظيمًا بأن أوبَقَها"[٢]، فنراهُ يُوردُ المَعنى الأوَّلَ، بأنَّ المُشركَ "قد منعَ ما وجبَ للهِ عليهِ من معرفةِ التَّوحيدِ فكانَ ظالماً"، والذي أفهمُه أنَّه ظالمٌ لِرَبِّه، في حين يَختصُّ المَعنى الثّاني المُمرَّضُ بـ(قيلَ)، بظُلمِ النَّفسِ.

والذي يَخلصُ إليهِ الباحثُ في هذا الأمرِ: لا مانعَ عقليًّا ولا نقليًّا من إيقاعِ الظُّلمِ في حقِّ اللهِ تعالى، بمَعنى نقصِ حقِّه سبحانَه، في الاعتقادِ والعَملِ، بل أغلبُ حالاتِ الظُّلمِ، إنَّما هي من هذا البابِ، فحَقُّه أن يُعبَدَ فلا يُشركَ به، وأن يُطاعَ فلا يُعصى، فمَن قصَّرَ في ذلك، فقد ظلمَ ربَّه بنُقصانِ حقِّهِ سبحانَه.

---

١ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٣، ص٤٩٤.

٢ - الفضل بن الحسين الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٨، ص ٤٩٤.

ب. ظُلمُ الإنسانِ غيرَه من المَخلوقات

أوَّلُ علاقةٍ تَشريعيّةٍ للإنسانِ بغَيرِه هي العلاقةُ بالأنبياءِ والرُّسلِ، وهم السُّفراءُ بينَ الله وخَلقه لأداء الأمانةِ الكُبرى، المَذكورةِ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا**﴾ [الأحزاب:٧٢]، ولعلَّ أفضلَ ما يُفسِّرُ هذه الأمانةَ، أنَّها خلافةُ اللهِ في الأرضِ، وهي خلافةٌ لا تَختصُّ بآدمَ عليه السلام وحدَه، وإنَّما تمتدُّ في ذريّتِه[1].

وعلى طريقِ هذه الخلافة، كان الاختلافُ بينَ النّاسِ، الذي اقتضى رَفعُهُ بعثَ النَّبيِّينَ، قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة:٢١٣].

وقد حثَّ اللهُ -تعالى- على اتِّباعِ أنبيائه ورُسله، وأثبتَ لهم القرآنُ الكريمُ أنَّهم المَهديُّونَ بهُدى الله، وهو الهُدى الحَقيقيِّ، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ [البقرة:١٢٠]، ولكنَّ الذي حصلَ في أرض الواقعِ ما تُقرِّرُه الآيةُ الكريمةُ: ﴿**يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون**﴾ [يس:٣٠]، فهي تُقرِّرُ ظُلمًا على نحوِ سُنَّةٍ مُطَّردةٍ عبرَّ عنها أسلوبُ القَصرِ المؤلَّفُ من أداةِ النَّفي (ما)، وأداةِ الاستثناءِ (إلا).

ولم يَقفِ الأمرُ عندَ الاستهزاءِ والسُّخريّةِ، وإنَّما تجاوزَه إلى صِراعٍ دامٍ لاستئصالِ وجودهم من على هذه الأرضِ، فكانَ الأخذُ الإلهيُّ للكافرينَ، قال تعالى: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**﴾ [غافر:٥] والتدبُّرُ في قوله تعالى: ﴿**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**﴾، يَدلُّ على أنَّها سُنّةٌ مُطَّردةٌ في الأممِ البَشريّةِ كافّةً.

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص.ص ١١٥ - ١١٦.

ولم يقف الأمرُ عندَ الأنبياءِ والرُّسلِ، وإنَّما تجاوزَه إلى ظُلمِ أتباعِهم بالقَتلِ، ممَّن يُجسِّدونَ امتدادًا عقديًّا رساليًّا لهم، وقد تَوعَّدَهُم اللهُ تعالى بالعذابِ الأليمِ، فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران:٢١-٢٢].

٣. الظُّلمُ المُطلَق

ويَشمل كلا القسمَينِ السّابقَين، فقد جاءَ في مواردَ كثيرةٍ مُطلقًا، ومنها قولُه تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الأنعام:٢١] وقال تعالى: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه:١١١]. واحتملَ العلامةُ (الطباطبائيُّ) مَفهومَينِ للظُّلمِ في الآية، فقال: «أمّا قولُه: ﴿**وقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ فالمُرادُ بهم المُجرمونَ غيرُ المؤمنينَ، فلَهم الخَيبةُ بسُوءِ الجَزاءِ، لا كلُّ مَن حَملَ ظُلمًا ما، أي: ظُلمٌ كانَ من مُؤمنٍ أو كافرٍ، فإنَّ المؤمنَ لا يَخيبُ يَومئذٍ بالشَّفاعة. ولو كانَ المُرادُ العُمومَ، وأنَّ كلَّ مَن حملَ ظلمًا ما، فهو خائبٌ، فالمُرادُ بالخَيبةِ: الخَيبةُ من السَّعادةِ التي يُضادُّها ذلكَ الظُّلمُ، دونَ الخَيبةِ من السَّعادةِ مُطلقًا»[1].

ويَرى الباحثُ أنَّه بانتهاجِ مَنهجِ تفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ، بمُتابعةِ التَّعبيرِ نفسه، نجدُ أنَّ اللهَ -تعالى- قال: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**﴾ [طه:١١١]، وقال: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس:١٠]، والضَّميرُ في ﴿**دَسَّاهَا**﴾ يَعودُ على النَّفسِ، وقد اشتركَ التَّعبيران في ﴿**وَقَدْ خَابَ**﴾، وهذا يَجعلُنا نُرجِّحُ أنَّ المُرادَ بـــ(حَمْلِ الظُّلمِ)، في الآيةِ الأولى، هو تَدسيةُ النَّفسِ في الآيةِ الثّانيةِ، فإنَّ مَن دَسَّى نفسَه في الدُّنيا بالظُّلمِ، حتّى استقرَّ فيها، حملَه في الآخرةِ: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق:٩].

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤، ص ٢١٣.

ثالثًا: الهلاكُ في القرآنِ الكريم

١. الهَلاكُ والإهلاكُ المادِّيَّينِ

نَعني بالهلاك: الموتَ المادِّيَّ، الذي تَنتفي فيه مظاهرُ الحياة الماديّة، كالنُّموِّ والحَركة، قال تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾ [النساء:١٧٦].

وهَلاكُ الأفرادِ تارةً يتحقَّقُ بفعلِ السُّنة الإلهيّة العامّة الجارية على الأرض، التي لا يُستثنى منها بشرٌ، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**﴾ [الزمر:٣٠-٣١]، وتارةً يتحقَّقُ بعقاب إلهيٍّ يَنزلُ في فردٍ من البَشر، لمَعصيةٍ اقترفَها، كما حصلَ لـ(قارونَ)، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ**﴾ [القصص:٧٦ -٨١].

أمّا على مستوى الأمَم، فالذي يَحصل هو الإهلاكُ الإلهيُّ للأمَم، لما اقترفوهُ من أعمال، ومن أمثلته قولُه تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف: ٥٩][1].

٢. الهَلاكُ المَعنويُّ

ونَعني به: الموتَ المَعنويَّ، الذي تَنتفي فيه مَظاهرُ الحياة المَعنويّة بالتَّمييز بينَ الحقِّ والباطل، فيَبلغُ الفردُ مرحلةً يكونُ فيها من مَصاديق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ**﴾ [البقرة:٦-٧]، قال (الطباطبائيُّ): «هؤلاءِ قومٌ ثَبتوا على الكفر، وتمكَّنَ الجحودُ من قلوبهم، ويَدلُّ عليهِ وَصفُ حالِهم بمُساواةِ الإنذارِ وعدمِه فيهم، ولا يَبعد أن يكونَ المرادُ من

١ - وفي آيات أخرى منها: [محمد:١٣]، و[الحاقة:٤ ـ ٨].

هؤلاء الذينَ كفروا هم الكفّارُ من صَناديد قريش، وكبراء مكّةَ، الذين عانَدوا ولَجُّوا في أمر الدِّين، ولم يألوا جهدًا في ذلك، ولم يُؤمنوا حتى أفناهُم اللهُ عن آخرهم في بدر وغيره، ويُؤيِّدُه أنَّ هذا التَّعبيرَ، وهو قوله: ﴿**سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾، لا يُمكنُ استطرادُه في حقِّ جميعِ الكفّار، وإلا انسدَّ بابُ الهداية، والقرآنُ يُنادي على خلافه، وأيضًا هذا التَّعبيرُ إنمَّا وقعَ في سورة يس (وهي مكِّيّة)، وفي هذه السُّورة، وهي سورةُ البقرة، أوَّلُ سورة نَزلَت في المَدينة، نزلَت ولم تقعْ غزوةُ بدر بعدُ... يُشعرُ تَغييرُ السِّياق (حيثُ نسبَ الخَتمَ إلى نفسه تعالى، والغِشاوةَ إليهم أنفسهم)، بأنَّ فيهم حجابًا دونَ الحقِّ في أنفسهم، وحجابًا من الله تعالى عُقيبَ كفرِهم وفُسوقِهم، فأعمالُهم مُتوسِّطةٌ بينَ حِجابَين: مِن ذاتِهم، ومنَ اللهِ تعالى»[1].

والسِّياقُ القرآنيُّ: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ* أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾ [الزمر:١٧ - ١٩]، يَرسُمُ صُورتيَ الحياة المَعنويّة، والهَلاك المَعنويِّ، وإنْ لم يُسمِّها بهذَين الاسمَين، فيقول (الطباطبائيُّ) في تفسيرها مُلمِّحًا للمَسيرتَين التَّكامُليّة والانحطاطيّة للإنسان في هذه الدُّنيا، وهما من أجلَى مظاهر الحياة المَعنويّة، والهَلاك المَعنويِّ:

«والمُرادُ بالقول، بقرينة ما ذُكر من الاتِّباع: ما لَه نوعُ ارتباط ومَساس بالعَمل، فأحسنُ القول أرشَدُه في إصابة الحقِّ، وأنصَحُه للإنسان، والإنسانُ إذا كانَ ممَّن يُحبُّ الحُسنَ، ويَنجذبُ إلى الجمال، كانَ كلَّما زادَ الحُسنُ، زادَ انجذابًا، فإذا وَجدَ قَبيحًا وحَسنًا، مالَ إلى الحَسَن، وإذا وجدَ حسَنًا وأحسَنَ، قصدَ ما هو أحسَنُ، وأمّا لو لم يَمِلْ إلى الأحسَن، وانجمَدَ على الحَسَن، كشفَ ذلكَ عن أنَّه لا يَنجذبُ إليه من حيثُ حُسنه، وإلا زادَ الانجذابُ بزيادة الحُسن. فتَوصيفُهُم باتِّباع أحسن القَول مَعناهُ أنَّهم مَطبوعونَ على طلب الحقِّ، وإرادة الرّشد، وإصابة الواقع؛ فكلَّما دارَ الأمرُ بينَ الحقِّ والباطل، والرّشد والغيِّ، اتَّبعوا الحقَّ والرّشدَ، وتَركوا الباطلَ والغيَّ. وكلَّما دارَ الأمرُ بينَ الحقِّ والأحَقِّ، والرّشد وما هو أكثرُ رُشدًا، أخذوا بالأحقِّ الأرشَد.

فالحقُّ والرّشدُ هو مَطلوبُهم، ولذلك يَستمِعونَ القولَ، ولا يَردُّونَ قولاً بمُجرَّد ما قرعَ سمعَهم

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص ٥٢.

اتِّباعًا لهوى أنفسِهم من غيرِ أن يَتدبَّروا فيهِ ويَفقهوهُ.... وقولُه: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ**﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الصِّفةَ هي الهدايةُ الإلهيّةُ، وهذه الهدايةُ، أعني: طلبَ الحقِّ، والتَّهيُّؤَ التّامَّ لاتِّباعِ الحقِّ أينَما وُجِدَ، هي الهدايةُ الإجماليّةُ، وإليها تَنتهي كلُّ هدايةٍ تَفصيليّةٍ إلى المعارفِ الإلهيّةِ...

قولُه تعالى: ﴿**أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ**﴾ [الزمر:١٩]. ثبوتُ كلمة العَذاب: وجوبُ دخولِ النّار بالكُفر، بقوله عندَ إهباطِ آدمَ إلى الأرض: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة:٣٩][١]. ونصَّ على هذا الهلاكِ سبحانَه في آياتٍ كريمةٍ أُخرى[٢]. وتضمَّنَت آياتٌ أخرى مفهومَ هذا الهلاكِ، وإنْ لم تنصَّ عليه[٣]، وتضمَّنَت آياتٌ أُخرى مفهومَ الإهلاكِ المَعنويِّ، من دون النصِّ عليه، عقابًا من الله تعالى لمَن يَستحقُّه،[٤] هذا على مُستوى الفردِ، أو مجموعةٍ من الأفراد.

أمّا على مستوى الأمّة، فحينَ تَصِلُ الأمّةُ إلى مرحلةِ نُزولِ عذابِ الاستئصال، الذي لا يُبقي ولا يَذَرُ؛ ونُزولِه ممَّن هو أرحَمُ الرّاحمينَ، يَعني انعدامَ احتمالِ صَلاحِهم كليًّا، قال تعالى مُخاطبًا رسولَه نوحًا عليه السلام بأسلوبٍ شديدِ اللَّهجة: ﴿**وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾ [المؤمنون:٢٧]. و»النَّهيُ عن مخاطبته تعالى كنايةٌ عن النَّهي الشَّديد عن الشَّفاعة لَهم، بدليلِ تَعليقِ المُخاطَبةِ بـ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾، وتَعليلِ النَّهي بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ**﴾ فكأنَّهُ قيل: أنهاكَ عن أصلِ تكليمي فيهم، فضلاً عن أن تَشفعَ لهم، فقد شملَهم غَضبي شمولاً لا يَدفعُه دافعٌ»[٥].

ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٧، ص. ص ٢٥٠-٢٥١.
٢ - منها: سورة [الأنعام: ٢٥ -٢٧]، و[التوبة: ٤٢].
٣ - منها سورة [يونس: ٩٦ - ٩٧].
٤ - منها سورة [يونس: ٨٩].
٥ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٥ ، ص ٣٠.

وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٥].

رابعًا: سُنَنُ هلاكِ الأفرادِ وهَلاكِ الأمَمِ في القرآنِ الكريم

ذكرَ السيِّدُ (محمد باقر الصَّدر)، كيفيّةَ تَعبيرِ القرآنِ الكريم عن السُّننِ التّاريخيّةِ خاصّةً، بأنَّه على ثلاثةِ صيغٍ[1]:

- **الشَّكلُ الأوَّلُ:** صيغة القضيّةِ الشَّرطيّة، التي تَربطُ ما بينَ حادثتَينِ اجتماعيّتَينِ أو تاريخيّتَينِ، فهي تتحدَّثُ عن الحادثة الثّانية، بأنَّه مَتى ما وُجدت الحادثةُ الأولى، وُجدت الحادثةُ الثّانية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]، فمَتى ما وُجد ذاكَ التَّغييرُ في أنفسِ القَومِ، وُجد هذا التَّغييرُ في كيانِهم، والشَّرطُ: هو فعلُ الإنسانِ وإرادتُه.
- **الشَّكلُ الثّاني:** القضيّةُ الفعليّةُ النّاجزةُ الوجوديّةُ المُحقَّقةُ، التي تَنظر إلى الزَّمانِ الآتي، وتُخبرُ عن وقوعِ هذه الحادثةِ على أيِّ حالٍ.
- **الشَّكلُ الثّالثُ:** السُّنةُ التّاريخيّةُ المَصوغةُ على صورة اتِّجاه طبيعيٍّ في حركة التّاريخ، لا على صورة قانونٍ صارمٍ حَدِّيٍّ، قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠]. هنا الدِّينُ ليسَ تَشريعًا فقط، وإنَّما فطرةٌ فطرَ اللهُ عليها النّاسَ، ولا تَبديلَ لخَلقِ اللّه. يَعني: كما أنَّكَ لا يمُكنُكَ أن تَنتزعَ من الإنسانِ أيَّ جزءٍ من أجزائه التي تُقوِّمُه، كذلك لا يُمكنُكَ أن تَنزعَ من الإنسانِ دينَه. فالدِّينُ سُنّةٌ لهذا الإنسان، لكنَّها ليسَت سنّةً صارمةً كقانونِ الغَليان، فهي سنّةٌ تَقبلُ التَّحدِّي على الشَّوطِ القَصير، عن طريق الإلحاد، وغَمضِ العَينِ عن هذه الحَقيقةِ الكُبرى؛ لأنَّ العِقابَ سوفَ يَنزلُ بالمُتحدِّي، من سُننِ التّاريخِ نفسِها:

١ - يُنظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص. ص ١٠٤- ١١٨.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وبعدَ أن اتَّضَحَ مفهومُ الهَلاكِ والإهلاكِ إجمالاً، وكيفيّةُ تَعبيرِ القرآنِ الكريمِ عن السُّننِ، نَشرعُ في الوقوفِ على سُنَنِه في القرآن الكريم.

١. سُنَنُ هَلاكِ الأفراد

من خلال استقراءِ القرآنِ الكريم يُمكِنُنا تَشخيصُ السُّنَنِ الآتيةِ في هَلاكِ الأفرادِ في الدُّنيا والآخِرة:

السُّنةُ الأولى: الهَلاكُ بالإعراضِ عن ذكرِ الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٤-١٢٧]، هذه السُّنةُ تُقابِلُها سُنّةُ اتِّباعِ الهُدى الإلهيِّ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

السُّنةُ الثّانيةُ: الهَلاكُ بتَكذيبِ الأنبياءِ والرُّسلِ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل:١٤-١٦]، هذا المَصيرُ القاتمُ، يُقابلُه مَصيرٌ مُشرقٌ؛ إذ يقولُ تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى* وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:١٧-٢١].

السُّنةُ الثّالثةُ: الهَلاكُ بالإغراقِ بمُقارَفةِ السَّيِّئات، قال تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].[1]

السُّنةُ الرّابعةُ: الهَلاكُ باتِّباعِ الهَوى، الذي يُفضي إلى نسيانِ يومِ الحساب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

١ - ينظر: سورة [العنكبوت: ٥٣ ــ ٥٥].

السُّنةُ الخامسةُ: الهَلاكُ باجتماعِ الكفرِ والظُّلم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا**﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

٢. سُننُ هَلاكِ القُرى والأمَم

السُّنّةُ الأولى: إنَّما يكونُ الإهلاكُ بسببِ الظُّلم، قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف:٥٩][١]

وقد نفَتْ آيةٌ أخرى أن يَحصل الإهلاكُ معَ اتِّصاف أهلِ القُرى بالإصلاحِ، وأداءِ واجبهم في النَّهي عن الفَساد، فقال تعالى: ﴿**فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود:١١٦-١١٧][٢].

وفي تَركيزٍ على دَورِ الاختيارِ الإنسانيِّ في السُّننِ التّاريخيّة، قال السيِّدُ (محمد باقر الصَّدر): "يَكفي الآنَ أن نَستمعَ إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١]...﴿**وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا**﴾ [الجن: ١٦]...﴿وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩]، انظُروا كيفَ أنَّ السُّننَ التّاريخيّةَ لا تَجري من فوقِ رأسِ الإنسانِ، بل تَجري من تحتِ يدِه»[٣].

وفي تركيزٍ على أثرِ الظُّلمِ خاصّةً، في هلاكِ القُرى والأمَم، وأنَّ ذلكَ سُنّةٌ إلهيّةٌ، قال العلامةُ (الطباطبائي): "والمَهلِكُ بكَسرِ اللاّمِ اسمُ زمانٍ... وهي مَسوقةٌ لبيانِ أنَّ تأخيرَ مَهلكِهم وتأجيلَه ليسَ ببِدْعٍ منّا، بل السُّنّة الإلهيّةُ في الأمَمِ الماضينَ، الذينَ أهلكَهُم اللهُ لَما ظَلموا، كانَت جاريةً على ذلك، فكانَ اللهُ يُهلِكُهم، ويَجعلُ لَمَهلِكِهم مَوعدًا"[٤].

١ - وكذلك في سورة: [الحج: ٤٥]، و سورة [النمل: ٥٢]، و سورة [الإسراء: ٥٨].
٢ - وكذلك في سورة [القصص: ٥٩]، وسورة [العنكبوت:٣١].
٣ - محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص: ٨٤.
٤ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص. ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

السُّنّةُ الثّانيةُ: لكلِّ أمّة أجلٌ، لا يَملكُ غيرُ الله -تعالى- تَحديدَه، هذا الأجلُ لا مَحيصَ لها عنهُ، قال سبحانه: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [يونس:٤٨-٤٩][1].

ووقفَ (ناصر مكارم الشِّيرازيُّ) عندَ السُّنّةِ الإلهيّة، التي تتضمَّنُها الآيةُ الكريمةُ، فقال: "فقد سرَت سُنّةُ الباري جلَّ شأنُه بأنْ يُعطِيَ المُدّةَ الكافيةَ لرُجوعِ المُضَلَّلينَ إلى بارئهم، من خلالِ ابتلائهم بالشَّدائد الصَّعبة تارةً، وبفيوضاتِ رحمةِ الرَّخاءِ تارةً أُخرى، فمَن لا تَنفعُه البشارةُ يأتيه الإنذارُ وهكذا، كلُّ ذلكَ إتمامًا للحُجّةِ عليهم. صحيحٌ أنَّ المَصلحةَ المُوجبةَ للتَّربيةِ الرَّبانية، تَقتضي (بعلم ربِّ الأربابِ) أن يمُهِلَ، ولكنَّه سبحانَه لا يُهمِلُ، وعاجلاً أم آجلاً، سيَنالُ كلٌّ نَصيبَه بما كسبَت يَداهُ[2].

السُّنّةُ الثّالثةُ: لكلِّ أمّة رسولٌ مُحدَّدٌ، يُقضى بينَه وبينَ أمّته في أجلٍ مُحدَّد، قال -تعالى-: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ [يونس:٤٧].

وفي قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٤]، «وَجهُ الاقتصارِ على وصف النَّذيرِ هنا دونَ الجَمعِ بينَه وبينَ وصفِ البَشيرِ هو مُراعاةُ العُمومِ الذي في قوله: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ**﴾ فإنَّ مِن الأمَم مَن لم تَحصل لها بشارةٌ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحدٌ»[3].

وجاءَ التَّعبيرُ بالنَّكرةِ في (أمّة، ونَذير) ليُفيدَ عمومَ السُّنّةِ الإلهيّة، التي عَلَّلَها -تعالى- بقوله: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾ (النساء:١٦٥)

ولا يأتي الإهلاكُ إلا بعدَ إرسالِ الرُّسلِ، لئلاّ يكونَ ظُلمًا، قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ**

١ - وكذلك في سورة [الحجر: ٥]، وسورة [المؤمنون: ٤٣].
٢ - ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص. ص ١٢ - ١٣.
٣ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج٢٢، ص ١٥٢.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣٠-١٣١][1].

وقرَّرَت آيةٌ أُخرى أنَّ سنّةَ العَذابِ الدُّنيويِّ أنَّه يَنزِلُ بعدَ تكذيبِ القُرى، الذي يُقابِلُ الإيمانَ والتَّقوى، ولولا ذلك لفتحَ اللهُ عليهم نِعَمًا دُنيويّةً وصفَها بأنَّها بركاتٌ من السَّماءِ والأَرضِ، فقال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾** [الأعراف: ٩٦][2].

السُّنّة الرّابعةُ: للإهلاكِ كتابٌ، وصفَه القرآنُ الكريمُ بأنَّه مَعلومٌ، قال تعالى: **﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ* وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾** [الحجر: ٣ــ ٤]. «المَعنى: دَعْهُم فإنَّهم لا يُسلِمونَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وإنَّما يَودُّونَ الإسلامَ بعدَ حلولِ أجلِهم، ونُزولِ الهَلاكِ بهم، والنّاسُ لَيسوا بذَوي خيرَةٍ في ذلك، بل لكلِّ أمّةٍ كتابٌ مَعلومٌ عندَ الله، مَكتوبٌ فيه أجلُهم، لا يَقدرونَ أن يَستقدموهُ ولا يَستأخروهُ ساعةً. وفي الآيتَينِ دلالةٌ على أنَّ الأمّةَ من الإنسانِ لها كتابٌ، كما أنَّ للفردِ منه كتابًا، قال تعالى: **﴿وَكُلَّ إِنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾** [الإسراء:١٣][3].

السُّنّةُ الخامسةُ: يأتي الإهلاكُ ثالثًا لمَرحلتَينِ تَسبقانه، قال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾** [الإسراء:١٦]، ذكرَ الزَّمخشريُّ أنَّ الأمرَ في الآيةِ مَجازٌ، فاللهُ لا يأمرُ بالفسقِ حَقيقةً، ووَجهُ المَجازِ أنَّه صبَّ عليهم النِّعمةَ صَبًّا، فجَعلوها ذَريعةً إلى المَعاصي، فكأنَّهم مأمورونَ بذلكَ لتَسبُّبِ إيلاءِ النِّعمةِ فيه، وإنَّما خَوَّلَهم إيّاها ليَشكروا، فآثَروا الفُسوقَ، فلمّا فَسقوا حقَّ عليهِم القولُ، وهو كلمةُ العذابِ، فدَمَّرَهم. وردَّ احتمالَ المَعنى: أمَرْناهُم بالطّاعةِ ففَسقوا؟[4].

١ - وكذلك في سورة: [الشعراء: ١٣٩]، و [الشعراء: ٢٠٨-ـ٢٠٩]، و[القصص: ٥٩].
٢ - وكذلك في سورة: [الشعراء: ١٨٩]، و [المؤمنون: ٣٩- ٤٣].
٣ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص. ص ٩٧ - ٩٨.
٤ - محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٢، ص ٦٥٤.

وجوَّزَ (العلامةُ الطباطبائيُّ) توجيهَ (الزَّمخشريّ)، ولكنَّه رجَّحَ ظهورَ معنًى آخرَ ردَّهُ (الزَّمخشريُّ)، هو أن "يكون الأمرُ في الآيةِ مُستعمَلاً استعمالَ اللاّزمِ، والمَعنى تَوجَّهَ أمرُنا إلى مُترفيها، ففَسقوا فيها عنه"[1].

والذي يَبدو للباحث أرجحيّةُ ما وصفَه (العلامةُ الطباطبائيُّ) بأنَّه الأظهَرُ، فمُتعلَّق الفعلِ (أمرَ)، في الآيةِ الكريمةِ، يُفسِّرُه قولُه تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى**﴾ [النحل: ٩٠]، فقد أمرَهُم اللهُ بالعَدلِ والإحسانِ، فلم يمتثِلُوا أمرَه، وذلك هو الفُسوق.

السُّنّةُ السّادسةُ: يَعترفُ المُهلَكونَ بظُلمِهم بعدَ نزولِ العَذابِ، حينَ لا يَنفعُ الاعترافُ، قال تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ**﴾ [الأنبياء:١١-١٥][2]، ويَبدو أنَّ هذا تابعٌ لسُنّةٍ إلهيّةٍ ثابتةٍ هي أنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ إنَّما يكونُ عن وَعيٍ وحريّةٍ واختيارٍ، وإلا لا قيمةَ له عندَ رؤيةِ البَلاءِ.

وفي آياتٍ مُتواليةٍ، جمعَ القرآنُ الكريم مجموعةً من السُّننِ التي ذكرناها، فقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ* فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر:٨٢ - ٨٥].

السُّنّةُ السّابعةُ: لا يُستثنى من الهَلاكِ بالاستئصالِ أحدٌ ممَّن استوجبَه، ولا يَشمل الهَلاكُ بالاستئصالِ الشّاملِ مَن لا يَستحقُّه من المُجتمعِ، من ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾ [هود:٥٨][3].

---

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٣، ص. ص: ٦١ - ٦٢.

٢ - وكذلك في سورة: [غافر: ٨٢ - ٨٥].

٣ - ينظر: نظائرها في سورة: [هود:٦٦]، و[هود:٩٤]، و[المؤمنون:٢٧].

الخاتمة

بعدَ هذهِ الجَولةِ السَّريعةِ الشّاملةِ، في رحابِ القرآن الكريم، يمُكنُ إيجازُ أبرَزِ ما تَوصَّلنا إليه من نتائجَ بالآتي:

- لا هلاكَ إطلاقًا إلا بظُلمٍ من الهالكِ.
- لا هَلاكَ إلا بعدَ نفادِ كلِّ وسائلِ الهِدايةِ، والإمهالِ، حتى يَسدَّ الهالكونَ عن أنفسِهم كلَّ احتمالاتِ الصَّلاحِ.
- يَجري الهَلاكُ على وفقِ سُننٍ دَقيقةٍ يمَتنعُ معَها ظلمُ أحدٍ من الهالكينَ.
- جعلَ اللهُ -تعالى- هلاكَ السّابقِ عِبرةً للاّحقِ، فيكونُ ذلكَ من وسائلِ هِدايةِ الخَلقِ وإصلاحِهم.

المصادر والمراجع

- إياد محمد علي الأرناؤوطي، المواهب(معجم لأغلب كلمات القرآن الكريم مستخلص من تفسير مواهب الرحمن للإمام السبزواري)، مركز كربلاء للدراسات والبحوث، ط٢- ٢٠٢٣م.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، ط٤- ١٤٢٩هـ.
- سلطان محمد الجنابذي (سلطان علي شاه)، بيان السعادة في مقامات العبادة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط٢- ١٤٠٨هـ.
- الشريف الرضي، نهج البلاغة (خطب الإمام علي بن أبي طالب)، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، ط١- ١٩٦٧م.
- عباس الموسوي، شرح نهج البلاغة، دار الرّسول الأكرم ودار المحجة البيضاء، بيروت، ط١- ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- عبد الأعلى الموسوي السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن، مكتب سماحة آية الله العظمى السبزوارى، ط٢- ١٤٠٩هـ.
- الفضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ناصر خسروان- طهران، ط٣- ١٣٧٢ هـ. ش.
- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات- بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات-

بيروت، ط٢- ١٣٩٠هـ.

- محمد يعقوب الكليني، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية – طهران، ط٤- ١٣٦٢ هـ. ش.
- محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣- ١٤٠٧هـ.
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مدرسة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) - ايران - قم، ط١- ١٤٢١هـ.

"الأمنُ الفكريُّ في نهج البلاغة"

◆ مراجعة: نبيل علي صالح[1]

■ خلاصة

الأمنُ الفكريُّ على الصَّعيد الإسلاميِّ، وبحسب ما وردَ في نهج البلاغة - وهو موضوع الكتاب- يَعني امتلاكَ المسلم للمُرتكزات والأسُس العَقديّة والمَبادئ الإسلاميّة الصَّحيحة، التي تَمنعُه من الانزلاق نحو مواقع الخَللِ والارتكابات؛ بحيثُ تتحقَّقُ عندَه سلامةُ الدِّين ومَعرفتُه به فكرًا وسلوكًا.. ورغم كون هذا المصطلح حديثَ النَّشأة والتَّداول، ولكنَّ التَّدقيقَ في خَلفيّاته يُبيِّنُ لنا أنَّ له كثيراً من الآثار والتَّداعيات والامتدادات التّاريخيّة السّابقة..

يُسلِّطُ هذا الكتابُ الضَّوءَ على موضوعٍ حيويٍّ ودائمِ الأهميّة والحضور، وهو الأمنُ الفكريُّ، حيثُ يُغطِّيه بالكاملِ انطلاقًا من معاييرَ ونصوصٍ وحوادثَ تاريخيّة، مُبرزًا على نحو معياريٍّ ما وردَ في نهج البلاغة من خطب وكلمات لـ(الإمام عليّ) عليه السلام بهذا الشأن، ومُبيِّنًا أنَّ خلاصَ الأمّة ورفعتَها مَرهونان بالقيام بتَنظيف ساحاتها التّاريخيّة بكلِّ ما عَلقَ بها من شَوائبِ الفكر وسلبيّات الرُّؤى التّاريخيّة المُنحرفة والضّالّة التي بَقيت مُسيطرةً وحاكمةً على العقولِ والسُّلوكياتِ في كثيرٍ من مفاصلِ هذه الأمّة ومواقعِها التّاريخيّة والحاضرة.

الكلمات المفتاحية: الأمن الفكريّ- نهج البلاغة- (أمير المؤمنين الإمام عليّ) عليه السلام..

1 - كاتب وباحث سوري.

بطاقةُ الكتاب:

اسم الكتاب: الأمن الفكري في نهج البلاغة.
المؤلف: نبيل الحَسني.
الناشر: مؤسسة علوم نهج البلاغة- العتبة الحسينية- كربلاء- العراق.
الصفحات: ٣١٠ من الحجم الكبير.
سنة النشر: الطبعة الأولى - ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م.

محتويات الكتاب

يتألَّفُ الكتابُ من فصلَين فقط، قُسِّمَ كلٌّ منهما إلى عدّة مباحثَ وأصول مَنهجيّة.. ففي المقدِّمة، يُشيرُ الكاتبُ إلى ضرورةِ الأَمنِ بالنِّسبةِ للإنسانِ، بل «هو أَهمُّ ما يَحتاجُه بعدَ الدِّينِ.. ومَن فقدَ الأمنَ يُصبح عيشُه عَليلاً...»[1]..

الفصلُ الأوّل: مفهومُ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنة

قام المؤلِّفُ بتَقسيمِ هذا الفصلِ إلى ثلاثةِ مباحثَ، هي:

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص٧-٨.

المبحث الأول: مفهومُ الأمنِ الفكريّ وتَعريفُه.

المبحث الثاني: مفهومُ الأمنِ الفكريّ عندَ السَّلَفِ: الوسائلُ والتَّطبيقات.

المبحث الثالث: أكانَت هذه الوسائلُ تَقودُ إلى تحقيق الأمنِ الفكريِّ أم الحَجْرِ الفكريِّ.

ضمنَ هذا المبحثِ، يُعرِّجُ الكاتبُ على عدّةِ مسائلَ، هي:

المسألة الأولى- تعريفُ الأمنِ لغةً واصطلاحًا:

عالجَ الكاتبُ، تحتَ هذا العنوان، مفهومَ الأمنِ الفكريِّ، فانتهى إلى أنَّه مصطلحٌ معاصرٌ، أفرزَتْه التَّداعياتُ والأحداثُ التي عصفَت وتَعصفُ بالأمّةِ الإسلاميّةِ، وهي بالأساسِ لم تكنْ وليدةَ الحاضرِ، بل هي امتدادٌ تاريخيٌّ يعودُ إلى القرن الأوَّل الهجريِّ، عندَما تفجَّرَت صراعاتٌ نتيجةَ الانقساماتِ السِّياسيةِ، وما وقعَ من ظُلم على آل بيت (الرَّسول الكريم) ﷺ، وتكرَّسَت لاحقًا في كلِّ تاريخِ الأمّةِ، وهذا «كاشفٌ عن فقدانِ الأمنِ والطّمأنينةِ في المجتمع آنذاكَ، وسيطرةِ الخَوفِ والذُّعرِ مَحلَّهُما...»[1]. ويَتناولُ الكاتبُ تعريفَ الأمنِ الفكريِّ في اللُّغةِ والاصطلاحِ انطلاقًا من قواميسِ اللُّغةِ؛ حيثُ يُفصِّلُ في تعريفِ الأمنِ، ومن ثَمَّ تعريفِ الفكرِ، ثمَّ يُشيرُ بعدَها إلى وجودِ عدّةِ أنماطٍ وأشكالٍ من الأمنِ غيرِ الأمنِ الفكريّ، كالأمنِ النَّفسيّ، والأمنِ الاقتصاديّ، والأمنِ الاجتماعيّ.. ويُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ هناكَ الكثيرَ من التَّعاريفِ المُعتمدةِ للأمنِ الفكريِّ (موضوعِ الكتابِ)، ويَتبنَّى مُعظمَها، منها أنَّ "الأمنَ الفكريَّ هو جزءٌ من منظومةِ الأمنِ العامِّ، بل هو ركيزةُ كلِّ أمنٍ، وأساسٌ لكلِّ استقرارٍ، وإنَّ مَبعثَه ومَظهرَه التزامٌ بالآدابِ والضَّوابطِ الشَّرعيّةِ والمرَعيّةِ، التي يَنبغي أن يأخذَ بها كلُّ فردٍ في المُجتمع"[2].

المسألة الثانية- مفهومُ الأمنِ في القرآنِ وأهمُّ ركائزِه:

يُضيءُ الكاتبُ في هذه المسألةِ على أهمِّ أسُس الأمنِ الفكريِّ وركائزِه التي أوردَها القرآنُ الكريم، انطلاقًا من عدّةِ نقاطٍ:

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٣.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص ٢٣.

أولًا: الأمنُ الفكريُّ عندَ (إبراهيم الخليل) عليه السلام، ونتائجُه في الحياة

يَستعرِضُ الكاتبُ بعضَ الآياتِ القرآنيّةِ التي تحدَّثَت عن جانبٍ من الحياة الفكريّةِ، التي كانت سائدةً في أرض بابل، زمنَ (النبيِّ إبراهيمَ) عليه السلام؛ حيثُ كانَ يَنتشرُ يومَها كثيرٌ من المُعتقداتِ الوَثنيّةِ ما بينَ عبادةِ الأصنامِ، وعبادةِ الكواكبِ وغيرِها، وأسّس ذلكَ انحرافًا عن جادّةِ التَّوحيدِ ومُعطياته ولوازمه التي دعَت إليها عقيدةُ التَّوحيدِ الابراهيميّ.. ومن تلك الآيات قولُه تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ...**﴾ [الأنعام: ٧٤-٨١]. وهي تُشيرُ إلى أهميّةِ العقلِ في الاستدلالِ الفكريِّ على وجود الله وتوحيده، وأنَّ الأمنَ الفكريَّ لا يتحقَّقُ من دونِ التَّوحيدِ والإيمان، أي «من خلالِ البَراءةِ من تلكَ الأفكارِ المُنحرفةِ والعَقائدِ الضّالةِ التي لا تَهدي إلى الرُّشدِ والصَّوابِ...»[1].

ثانيًا: الأمن الفكريُّ مَشروطٌ بعدَ الشكِّ

يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ "الفكرَ لا يمُكنُ أن يَنالَهُ الأمنُ بوجودِ الشكِّ بالله تعالى، وهو ما كشفَت عنه الآيةُ الكريمة: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢].."[2].

ثالثاً: إرجاعُ الأمور إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأولي الأمر

وهو أحدُ مُرتكزاتِ الأمنِ الفكريِّ الذي تُشيرُ إليه -كما يُؤكِّدُ الكاتبُ[3]- هذه الآية: ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلا**﴾ [النساء: ٨٣].

---

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ٢٥- ٢٨.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص ٢٩.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٣٠.

المسألة الثالثة- مفهوم الأمنِ في السُّنةِ النَّبويّةِ ووسائلُه:

يَشرحُ الكاتبُ في بدايةِ هذه الفقرةِ مَعنى السُّنةِ النَّبويّةِ، مُشيراً إلى أنَّها تَعني قولَ الرَّسولِ وفعلَه وتقريرَه..، ثم يقفُ عندَ كثيرٍ من الأحاديثِ النَّبويّةِ التي أشارَت إلى مسألةِ الأمنِ الفكريِّ، خاصّةً تلك التي تحدَّثَت عن أهميّةِ العقلِ، وضرورةِ حفظِه، و«تأمين سلامةِ الفكرِ الإسلاميِّ من الانحرافاتِ والتَّطرُّفِ.. فقد جاءَت كلمةُ (يَعقلونَ) في الكتابِ الكريمِ ٢٢ مرّةً، وجاءَت كلمةُ (يتفكَّرونَ) ١٠ مرّاتٍ، وكلمةُ (فانظُروا) جاءَت خمسَ مرّاتٍ... بما يكشفُ عن أهميّةِ الفكرِ وإعمالِ العَقلِ لغرضِ الوصولِ إلى الصَّلاحِ والإصلاحِ...»[١].. و(النبيُّ الكريمُ) كان حريصًا على أمّتِه ونجاتِها من الفكرِ الضّالِّ، وهذا الحرصُ دفعَه لاستخدامِ كلِّ وسيلةٍ تَضمنُ تحقيقَ نجاةِ الأمّةِ.. ومن تلكَ الوسائلِ القَصصُ وسَردُ أخبارِ الأممِ السّابقةِ لأخذِ العبرةِ منها، يَقول ﷺ مُحذِّرًا من وقوعِ أمّتِه تحتَ تأثيرِ سُننِ السّابقينَ، وضرورةِ الوَعي بها: «لتَتَّبَعَنَّ سننَ مَنْ كانَ قبلكم حذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، والقذّةِ بالقذّةِ، حتّى لو أنَّ أحدَهُم دخلَ جُحرَ ضَبٍّ لدَخلتُموهُ»[٢]. ومنها أيضًا الوسائلُ التَّعليميّةُ لبيانِ الغرضِ الإرشاديِّ في تحقيقِ الأمنِ الفكريِّ، يقول ﷺ: «ألا إنَّ مَثَلَ أهلِ بَيتي فيكم مَثَلُ سَفينةِ نوحٍ، مَن ركبَها نَجا، ومَن تَخلَّفَ عنها غَرِقَ»[٣].. وأيضًا استخدامُ الأمثلةِ في إرشادِ النّاسِ إلى الحُكمِ الشَّرعيّ[٤]...

ويُشيرُ إلى ضرورةِ أن يَعرفَ المُسلمُ ويَعِيَ حقيقةَ ما جَرى من وقائعَ وأحداثٍ تاريخيّةٍ زمنَ الخلافةِ الأولى، وما حدثَ من صراعاتٍ خلالَها، وما شَجَرَ بينَ الصَّحابةِ، مُعتبراً إيّاهُ أهمَّ مُرتكَزٍ من مُرتكزاتِ تحقُّقِ الأمنِ الفكريِّ عندَ المُسلمينَ...[٥].

وفي المبحثِ الثّاني (التّابعِ للفَصلِ الأوَّلِ)، يتحدَّثُ الكاتبُ عن مفهومِ الأمنِ الفكريِّ عندَ السَّلفِ، مُبيِّنًا أنَّ الصَّحابةَ والسَّلَفَ بعدَ (النبيِّ الكريمِ) ﷺ حَرصوا على بناءِ مَعالمِ الأمنِ الفكريِّ

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٣٣ وما بعدها.
٢ - محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤، ص١٤٤.
٣ - الحاكم النيسابوري، المُستدرك، ج٢، ص٣٤٣.
٤ - انظر: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ٣٥-٥٣.
٥ - انظر: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ٥٨-٦٨.

للمسلمينَ، ولكنَّهم اختلفوا في بعض الأساليب، التي اتَّبعوها، عن أساليبِ (الرَّسولِ الكريم) ﷺ، خاصّةً أنَّ «مفهومَ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنةِ النَّبويّةِ يَرتكزُ -كما يَرى الكاتبُ- على التمسُّكِ بالثَّقَلَينِ القرآنِ والعترةِ النَّبويّةِ عليهم السَّلام؛ في حينَ كان التَّركيزُ عندَ الخلفاءِ على الاجتهاداتِ والتأويلاتِ الخاصّةِ، وإبعادِ العترةِ النَّبويّةِ عن جميعِ مظاهرِ الحياةِ، وعلى ذلك سارَ الخَلَفُ إلى الآنَ... بما يَعني -كما توصَّلَ الكاتبُ- أنَّ الأمنَ الفكريَّ عندَ عمومِ الصَّحابةِ والسَّلَفِ كان يَعني أمنَ الخِلافةِ والخَليفةِ، وأمنَ المَلِكِ والمَملكةِ، وإلخ»[1].

ويُتابعُ الكاتبُ إضاءتَه التّاريخيّةَ على أهمِّ الوسائلِ والتَّطبيقاتِ التي التزمَها أوَّلُ خَليفتَينِ في الإسلامِ، مُشدِّدًا على أنَّ تلكَ الأساليبَ كانَت بمُجمَلِها بعيدةً عن روحِ الإسلامِ القرآنيّ والنَّبويّ، وكانَت الغايةُ منها تركيزَ وتأبيدَ الأمنِ والحُكمَ الشَّخصيَّ للخلافةِ بما لا يُحقِّقُ شيئًا من الأمنِ الفكريِّ.. مُثبتًا نظرتَه تلكَ على كثيرٍ من الرِّواياتِ والأحاديثِ والوقائعِ التّاريخيّةِ التي جرَت أيّامَ الخلافةِ الأولى، والتي أوردَتْها كتبُ التّاريخِ كالبُخاري، والطَّبقات الكُبرى، وكنز العُمّال، وتَذكرة الحُفّاظ، وتاريخ الإسلام، وغيرها من الرِّواياتِ التّاريخيّةِ المَعروفة...[2].

وفي المَبحثِ الثّالثِ من الفصلِ الأوَّلِ الذي عَنونَه الكاتبُ بـــسؤال: (أكانَت وسائلُ السَّلَفِ تقودُ إلى تحقيقِ الأمنِ الفكريِّ أو الحَجْرِ الفكريِّ؟)، يَعتبرُ الكاتبُ أنَّ ما قامَ به سَلَفُ الخلافةِ الأولى، أيامَ أبي بكرٍ وعمرَ، تسبَّبَ في ولادةِ ثقافةِ حُكمٍ جديدةٍ بعيدةٍ عن روحِ الإسلامِ، أسَّستْ لاحقًا لحُكمِ الطُّغيانِ والمُلكِ العَضوضِ، ووَجَّهَت ضربةً قاصمةً لشيءٍ اسمُه أمنٌ فكريٌّ.. خاصّةً معَ ما جَرى لاحقًا من انتشارٍ واسعٍ للثَّقافةِ الأمويّةِ على حسابِ ثقافةِ الإسلامِ نفسه، ويَستندُ الكاتبُ في نتيجتِه تلك، على كمٍّ كبيرٍ من الأحاديثِ والرِّواياتِ، سلَّطَ فيها الضَّوءَ على أحداثٍ وتَحوُّلاتٍ ووَقائعَ تاريخيّةٍ ثابتةٍ، أبرزَ فيها مواقفَ التزمَها الخلفاءُ أيّامَ حُكمِها، وتركَّزَت على منعِ النّاسِ من المُطالبةِ بالعَملِ بالسُّنةِ، بل ومُعاقَبتِهم على المُطالَبةِ[3]، مضافًا إلى منعِ تَدوينِ سُنّةِ (الرَّسولِ)، (جَرى

١ - راجع: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص٦٩- ٧٣.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ٧٥-١٠٦.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ٧٣-٧٤.

في عهد الخليفة عمرَ)[1].. إلى غير ذلكَ من الأساليب التي آلَت بالنَّتيجة إلى حجب ثقافة القُرآن، وتَهشيم مُرتكزاتها وأمنها الفكريِّ، وإصابته بالتَّحجُّر والجُمود، ومنع التَّفاعل والتَّثاقُف، وتأسيس المُناخ المُلائم للعَصبيّات والاضطهاد الفكريِّ، ودَفع الأمّة لحالة من الفَراغ العَقائديِّ نتيجةَ مُحاربة ثقافة القرآن.[2]..

الفَصلُ الثّاني: أصولُ الأمنِ الفكريِّ عندَ (الإمام علي)عليه السلام.. الوسائلُ والتَّطبيقات

في الفصل الثاني - وهو الفصلُ الأساس للكتاب (والذي بَدا معَه الفصلُ الأوَّلُ بمَثابة مُقدِّمة وتمَهيد له)- نلاحظُ أنَّ الكاتبَ يتوسَّعُ أكثرَ في الحديث والتَّحليل الفكريِّ عن قضيَّتَين مُهمَّتَين، أوردَهُما ضمنَ مبحثَين، أوَّلُهما، قراءةُ (الإمام علي) عليه السلام لحياة السَّلَف، وثانيهما، أهمُّ الأصول التي وردَت في نهج البلاغة لتَحقيق الأمن الفكريِّ عندَ الفرد والمُجتمع المسلم...

ففي المبحث الأوَّل، يمُهِّدُ الكاتبُ لحَديثه -الذي يَستهدفُ فيه الوقوفَ على رأي وقناعة (الإمام عليٍّ) بالخلفاء والسَّلَف قبلَه- بوَضعنا أمامَ طبيعة العَلاقة العَميقة الرُّوحيّة والفكريّة التي كانَت قائمةً بينَ (الرَّسول الكريم) صلى الله عليه وآله، وبينَ صِهره وابن عمِّه (الإمام عليٍّ) عليه السلام، الذي سبقَ أن أشارَ وسلَّطَ الضَّوءَ عليها في كثير من خُطَبه ومَواقفه، ويُوردُ الكاتبُ لنا تَصريحًا لـ(لإمام عليٍّ) يُحدِّدُ فيه طبيعةَ هذه العَلاقة أو الشّأنيّة النَّبويّة والخُصوصيّة الرِّساليّة التي خصَّها به (رسولُ الله) صلى الله عليه وآله، فكانَ (الإمامُ) «يُفاخرُ ويُجاهرُ بذلكَ أمامَ الصَّحابة والنّاس مُذكِّرًا إيّاهُم بما اصطفاهُ (رسولُ الله) صلى الله عليه وآله من بين كلِّ الصَّحابة، فيَقول عليه السلام: لقد عَلمتُم مَوضعي من رسول الله بالقَرابة القَريبة والمَنزلة الخصيصة... إلى أخرِ الخُطبة»..[3]..

ينتقلُ الكاتبُ بعدَ إضاءته على العلاقة، بينَ (الرَّسول) صلى الله عليه وآله و(الإمام عليٍّ) عليه السلام، إلى دراسة

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٨٢ وما بعدها.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ١٠٦ - ١٤٣.
٣ - انظر: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٤٩.

وتحليلِ ما أوردَتْه الكتبُ التّاريخيّةُ، وعلى رأسِها ما جاءَ في نهجِ البلاغةِ من خُطبٍ وأحاديثَ، حولَ الرأيِ الحقيقيِّ لـ(الإمامِ عليٍّ) في كلٍّ من الخَلفتَينِ (أبي بكر)، و(عمرَ بنِ الخطابِ)؛ حيثُ يُحيلُنا الكاتبُ إلى مُستنَدٍ تاريخيٍّ وَثّقتْه مُعظَمُ كتبِ التّاريخِ ومَظانُّه الرَّئيسةُ، على اختلافِ مدارسِ التّاريخِ الحَديثيّةِ والفقهيّةِ وحتّى العَقديّةِ، والمُستندُ الذي استندَ عليه الكاتبُ هو نصٌّ لـ(الإمامِ عليٍّ) عليه السلام، يتحدَّثُ فيه عن بدايةِ الإسلامِ، وما قبلَه، من ظروفٍ وملابساتٍ تاريخيّةٍ، ووقائعَ وأحداثٍ، وطبيعةِ الظُّروفِ التي عاشَتْها الرِّسالةُ في بدايةِ الدَّعوةِ، وما واجهَتْه من تَعقيداتٍ وعَداواتٍ وتَحدِّياتٍ ليسَ من خارجِها بل من داخلِها على يدِ مَن رفعَ لواءَ الدَّعوةِ نفسِها..

«الخطبةُ تُوضِّحُ ما جَرى في الأمّةِ منذُ أيّامِ البعثةِ النَّبويّةِ، وإلى وقتِ كتابتِه عليه السَّلامُ لهذه الرِّسالةِ، قبلَ استشهادِه بشهورٍ قَليلةٍ، ومِن ثَمَّ فقد قدَّمَت هذه الخطبةُ عواملَ التَّجديدِ في البنيةِ الفكريّةِ للمسلمِ، وأسهمَت في بناءِ مَنظومةٍ مَعرفيّةٍ عن الدِّينِ والعَقيدةِ يَستطيعُ المسلمُ من خلالِها أن يُحدِّدَ مسيرتَه في الحياةِ الدُّنيا وما يُقبلُ به على اللهِ في الآخرةِ»[1].. يقولُ عليه السلام: «...آسى أنْ يَلِيَ أمرَ هذه الأمّةِ سُفهاؤُها وفُجّارُها، فيَتَّخذوا مالَ اللهِ دُوَلًا، وعبادَه خَولًا، والصّالحينَ حَربًا، والفاسقينَ حِزبًا، فإنَّ منهمُ الذي قد شربَ فيكُم الحَرامَ، وجُلِدَ حدًّا في الإسلامِ، وإنَّ منهم مَن لم يُسلِمْ حتَّى رضخَت له على الإسلامِ الرَّضائخُ، فلولا ذلك ما أكثرتُ تأليبَكُم وتأنيبَكُم، وجَمعَكُم وتَحريضَكُم...»[2].

لقد أرادَ (الإمامُ) في إيضاحِ موقفِه من أشخاصِ عهدِ الخلافةِ الأوائلِ، أنَّ يُسلِّطَ الضَّوءَ -ليس على الأشخاصِ- بل على طبيعةِ الفكرِ الذي أنضَجُوهُ وقدَّموهُ على أساسِ أنَّه هو نفسُه رسالةُ الإسلامِ.. أرادَ -كما يُشيرُ الكاتبُ- أن يُقاتِلَ الفكرَ الذي نشأَ في السَّقيفةِ، وتَعاظَمَ في الإسلامِ، وامتدَّ إلى زمنِ معاويةَ وما بَعدَه.. إنَّه فكرٌ وثقافةٌ مُنحرفةٌ «تغلغَلَت إلى المجتمعِ، وخاصّةً إلى أوساطِ النُّخبةِ، بما يتطلَّبُ إجراءاتٍ مُحكَمةً تُحقِّقُ الأمنَ الفكريَّ في الأمّةِ بعدَ أن وصلَتِ الأمورُ إلى هذا المُستوى من الحربِ العسكريّةِ التي تَرتكِزُ في جميعِ مُقوِّماتِها ودَوامِها وانتصارِها على العَقيدةِ القتاليّةِ»[3].

١ - انظر إلى نص الخطبة-المستند: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٥٣-١٧٨.
٢ - ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص١٩١.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٨١ وما بعدها.

وفي المبحث الثّاني: أصول الأمن الفكريّ في نهج البلاغة، يَعتمدُ الكاتبُ على رسالة (الإمام عليٍّ) عليه السلام للمسلمينَ عامّةً ولشيعته خاصّةً، لتَظهير تلكَ الأصول، كونُها تَشتملُ في مضمونها على معايير الأمن الفكريِّ، «المُفترض أن يَلتزمَها المسلمُ كي يَنجوَ أوَّلًا، وثانيًا كي يَستطيعَ أن يُسهمَ في بناءِ مُجتمعه، وذلك من خلال نشرِ هذه الأصولِ التي تضمَّنَتْها هذه الرِّسالةُ»[1].

الأصلُ الأوّل: حفظُ حقِّ (عليٍّ) عليه السلام الذي ضيَّعَه المسلمونَ

لا يُمكنُ لأيِّ أمنٍ فكريٍّ (فرديٍّ ومُجتمعيٍّ) أن يتحقَّقَ في أجواءِ الخَلَلِ بتَطبيقِ مَنظومةِ العَدالة، وعدمِ التَّوزانِ الاجتماعيِّ والحياتيِّ، خاصّةً على مستوى تَضييعِ الحقوقِ والتَّلاعبِ بالمَبادئِ العُليا النّاظمةِ لوحدةِ المجتمعِ وأمنه وأمانه واستقراره.. وعلى صعيدِ الاجتماعِ الدِّينيِّ التّاريخيِّ الإسلاميِّ، كانَت هناك أسبابٌ منعَت من الوصولِ لحالةِ الأمنِ الفكريِّ، ويُؤكِّدُ الكاتبُ أنَّ أميرَ المؤمنينَ الإمامَ عليًّا عليه السلام كان يُدركُ أنَّ تَرميمَ العَقيدةِ الإسلاميّة -وبناءَ أمنٍ فكريٍّ حقيقيٍّ- لا بدَّ أن يكونَ بالرُّجوعِ إلى الأسبابِ التي أوصلَت واقعَ المسلمينَ إلى هذا المُستوى من العَبثِ والخَللِ وسيطرةِ الصِّراعاتِ والفِتنَ، "خُصوصًا على صَعيدِ تَضييعِ حقِّه هو بالذّاتِ في قيادةِ الأمّة، بعدَ التَّحزُّباتِ ضدَّهُ، يقولُ عليه السَّلام: أنا مُخرِجٌ إليكُم كتابًا، أُخبِرُكُم فيه عمّا سألتُم، وأسألُكُم أنْ تَحفظوا من حَقِّي ما ضَيَّعتُم، فاقرَؤُوهُ على شيعتي، وكُونوا على الحقِّ أعوانًا..»[2].

الأصلُ الثّاني: القراءة

يَعتبرُ الكاتبُ أنَّ القراءةَ هي من بينِ أهمِّ الأصولِ التي تُوصِلُ إلى الأمنِ، وهي ميزةٌ امتازَت بها مدرسةُ العترةِ النَّبويّةِ عُمومًا عن بقيّةِ المَدارسِ الفكريّةِ في الإسلام، ولا سيَّما مدرسةُ السَّقيفة.. يقولُ الإمامُ عليٌّ عليه السلام: فاقرؤُوهُ على شيعتي؛ حيثُ لا يُمكنُ على الإطلاقِ تحقيقُ الأمنِ الفكريِّ من دونِ قراءةِ الآخرِ، «ومعرفةِ ما خَفِيَ على الإنسانِ من علومٍ، فبالعِلمِ تُبنى النُّفوسُ والأمَمُ،

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص ١٨٢.
٢ - انظر: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص١٨٣- ١٨٦.

وتَنشأ الحضاراتُ، وبالجهلِ يتحوَّلُ الإنسانُ إلى بهيمةٍ بل أضَلَّ، وهي حقيقةٌ طالَما ذكرَها القرآنُ الكريم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ..»[١].

الأصلُ الثّالث: التَّعاونُ على الحقِّ

يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ أصلَ وقوعِ الانحرافِ وانعدامِ الأمنِ هو التّآزُرُ على الباطلِ، والتَّحزُّبُ له ومُشايَعتُه، ولذلك لا بدَّ «من الالتفاتِ إلى أنَّ التَّعاونَ على الحقِّ سيُثمِرُ عن تحقيقِ الأمنِ الفكريِّ.. وقد جاءَ عن أميرِ المُؤمنينَ (الإمامِ عليٍّ) عليه السلام: وكُونوا على الحقِّ أعوانًا.. وهذهِ الدَّعوةُ -كما يُشيرُ الكاتبُ- هي دعوةٌ قرآنيّةٌ، فقد قالَ سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]..»[٢].

الأصلُ الرّابع: معرفة أثرِ (النَّبي) صلى الله عليه وآله وسلم في إنقاذ العربِ خاصّة

إنَّ معرفةَ الدَّورِ الكبيرِ والعَميقِ والواسعِ الذي قامَ به (النبيُّ الكريمُ) صلى الله عليه وآله وسلم، على صعيدِ تَنفيذِ تعاليمِ السَّماءِ، وبناءِ مجتمعٍ إسلاميٍّ في جزيرةِ العربِ، في ظلِّ التَّنازُعاتِ القَبليّةِ والصِّراعاتِ المُجتمعيّةِ، هو واجبٌ على كلِّ إنسانٍ مُسلمٍ.. وعلى هذا الصَّعيدِ يُوضِّحُ الكاتبُ أنَّ من أهمِّ الأمورِ التي أدَّت لاحقًا إلى شيوعِ الجهلِ ونشرِ الجاهليّةِ والفكرِ المُنحرفِ هو تَجاهُلُ الدَّورِ الكبيرِ الذي قامَ به (رسولُ الله) صلى الله عليه وآله وسلم في إنقاذِ العربِ خاصّةً.. ويُبيِّنُ الكاتبُ «أنَّ الدّافعَ للتَّذكيرِ بما كانوا عليه من انحرافاتٍ أخلاقيّةٍ ونفسيّةٍ واجتماعيّةٍ إنَّما لتَحقيقِ جُملةٍ من الأمورِ تَدفعُ بمُجمَلِها إلى الأمنِ الفكريِّ، ومنها أنَّ كثيرًا من المسلمينَ قد جاؤُوا إلى الإسلامِ في عامِ الفَتحِ، أي لم يُدرِكُوا من الإسلامِ إلاّ شُهورًا عدّةً، ومن ثَمَّ فإنَّ هذه المُدّةَ غيرُ كافيةٍ في تمَكُّنِ الإنسانِ من الانسلاخِ من بيئتِه وعاداتِه التي نَشأ عليها، وتجذَّرَت طِباعُه فيها، وهذا شكَّلَ عائقًا في تطبيقِ التَّعاليمِ التي جاءَ بها رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاحتاجَ إلى التَّذكيرِ..»[٣].. وهذا ما أكَّدَه (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: "أمّا بعدُ، فإنَّ اللهَ بعثَ مُحمَّدًا

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص١٨٧- ١٨٩.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٩٠.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٩٢.

نَذيرًا للعالَمينَ، وأمينًا على التَّنزيلِ، وشَهيدًا على هذه الأمّة، وأنتُم مَعاشِرَ العربِ يَومئذٍ على شرِّ دينٍ، وفى شرِّ دارٍ، مُنيخونَ على حجارةٍ خُشُنٍ وحَيّاتٍ صُمٍّ»[1].

ومَعرفةُ دَورِ النبيِّ ﷺ تتطلَّبُ -كما يَرى الكاتبُ- توعيةَ النّاسِ على مُحاولاتِ طَمسِ مَعالمِ الرِّسالة، ومنها إلصاقُهم للكثيرِ من المُمارَساتِ السَّلبيّة بشَخصِ (الرَّسولِ الكريم) ﷺ.. وهذا من الأصولِ الأساسيّة للأمنِ الفكريِّ التي أوردَها الإمامُ عليٌّ عليه السلام.. «حيثُ يجبُ على المؤمنِ مَعرفةُ سننِ الجاهليّة وأخلاقِ العربِ قبلَ الإسلام، كي يَلمسَ حجمَ الجهدِ والجهادِ الذي بذلَه رسولُ الله ﷺ في إنقاذِ البشريّةِ من الضَّلال، فَضلاً عن معرفةِ أنَّ هؤلاءِ المُنافقينَ ما زالوا على تلك الأخلاق، ومِن ثَمَّ يَلزمُ تَحصيلُ وسائلِ المَعرفةِ في فصلِ هذه القبائحِ والرَّذائلِ عن سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ.....»[2].

الأصلُ الخَامس: التّفقّه في الدّين ومعرفة الحلال والحرام

يَعتقدُ الكاتبُ أنَّ التفقُّهَ في الدِّينِ، ومَعرفتَه حقَّ المَعرفة، هو أمرٌ مهمٌّ للوصولِ إلى الأمنِ الفكريِّ، خاصّةً أنَّه يَعني نهلَ تعاليمِ الدِّينِ، وكلِّ ما يتعلَّقُ به من أصولٍ ومبادئَ، من النَّبعِ الصّافي، وهو القرآنُ و(النَّبيُّ الكريمُ) ﷺ و(العِترةُ الطّاهرةُ) عليهم السلام، فمن خلال «التمسُّكِ بهم عليهم السَّلام، يتحقَّقُ الأمنُ الفكريُّ، لجهةِ عدمِ الوقوعِ في البِدَعِ، وتَحريمِ ما أحلَّ اللهُ، وتَحليلِ ما حَرَّمَ»[3].

الأصلُ السّادس: معرفةُ حياة السَّلَفِ وما شَجَرَ بينَهم

يُوردُ الكاتبُ ما ذكرَه (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام في هذا الصدد: «فخَشيتُ إنْ لم أنصُرِ الإسلامَ وأهلَه أنْ أرى فيه ثَلمًا أو هَدمًا تكونُ المُصيبةُ به عليَّ أعظمَ من فوتِ ولايتِكُم التي إنَّما هي متاعُ أيامٍ قلائلَ يَزولُ منها ما كانَ كما يَزولُ السَّرابُ...»[4] وهو ما يُشيرُ – كما يُبيِّنُ الكاتبُ- إلى «أنَّ العلمَ بما شجرَ بينَ الصَّحابةِ ومَعرفةَ حياتهم، هو أمرٌ ضروريٌّ وحيويٌّ، كي يكونَ المسلمُ عالمًا بما يَعملُ في أخذِ دينه، فيُوالي أولياءَ اللهِ، ويَتبرَّأُ من أعداءِ الله.. أي كي يُحرزَ النَّجاةَ في الآخرةِ ومِن عذابٍ مُقيمٍ..»

١ - ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج٦، ص٩٤.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص١٩٩.
٣ - انظر: نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٠٢.
٤ - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٣، ص١١٩.

ولأجلِ ذلكَ تحدَّثَ الإمامُ عليه السلام بما جَرى بينَ المُسلمينَ من تَنازُعٍ في أمرِ الخلافةِ بعدَ وفاة (رسولِ الله) صلى الله عليه وآله، وأنَّ هذا التَّنازُعَ في أمرِ الخلافةِ كان مُفاجِئًا، بحيثُ لَم يَخطرْ في بالِه عليه السلام أنَّ العربَ تَعدلُ هذا الأمرَ بعدَ النَّبيّ صلى الله عليه وآله عن أهلِ بَيتِه[1].

الأصلُ السّابع: حفظُ الإسلامِ لدى النُّخَبِ وتَغليبُ ذلك على المَصالح

وهذا ما يَظهرُ من خلال بيان (الإمامِ عليٍّ) عليه السلام فيما يتعلَّقُ بتَعامُلِه مع حدثِ السَّقيفةِ وإفرازاته في انقلابِ النّاسِ وتَوالي (أبي بكرٍ) و(عمرَ)، وموقفِه معَهما بالنُّصح.. وهذا -كما يُوضِّحُ الكاتبُ- «أصلٌ آخَرُ من أصولِ الأمنِ الفكريِّ، ألا وهو تَغليبُ الإسلامِ على جميعِ المَصالحِ، وهو ما مَيَّزَه عن جميعِ صحابةِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله، وذلك من خلال تَعامُلِه مع هذه الأحاديثِ بتلكَ الحِكمةِ والرَّويّةِ والصَّبرِ والنَّصيحةِ والجِهادِ في إظهارِ الحُكمِ الشَّرعيّ»[2].

الأصل الثّامن: تَقديمُ النَّصيحة للمُسلم

وهذا ما فعلَه (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام، وكان مَظهَرًا مهمًّا وأصيلًا من مظاهرِ تَحقُّقِ الأمنِ الفكريِّ. جاء قولُه عليه السلام: "فصَحِبْتُه مُناصِحًا".. وأيضًا قولُه في حُكمِ (عمرَ بنِ الخَطّاب): «فسَمِعْنا وناصَحْنا وأطَعْنا».. ويَعتبرُ الكاتبُ أنَّ المسلمينَ «لو اتَّخذوا هذا الأصلَ في تعاليمِهم مع بعضِهم لصلحَ حالُهم، ولَشخصَ عدوُّهُم، فضلًا عن أنَّ النَّصيحةَ تَعكسُ عن رُقيِّ النَّفسِ وخُلوِّها من الضَّغائنِ التي تَجرُّ الويلاتِ على العبادِ والبلادِ»[3]. طبعًا تحتَ شرطٍ ومعيارٍ حدَّدَه (الإمامُ) نفسُه، وهو أنَّه لا طاعةَ لحاكمٍ إلا بطاعتِه لله.

الأصل التّاسع: معرفة ما وقعَ من الظُّلم على (الإمام عليّ) عليه السلام

يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ كلماتِ (الإمامِ عليٍّ) عليه السلام، فيما يَخصُّ موضوعَ الحُكم، وما آلتْ إليه شؤونُ السُّلطة، بالطَّريقةِ التي ساروا بها منذُ أيّامِ السَّقيفةِ، «تكشِفُ عن ضرورةِ اطِّلاعِ المسلمِ على مُجرياتِ

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢١٣.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢١٥.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢١٧.

الأحداث التي سَعى فيها كثيرٌ من الرُّموز الإسلاميّة إلى تشتيت فكر المُسلم ودَفْعه عن حقيقة الإسلام ورُموزه، الذينَ مَن تمسَّكَ بهم فقد حقَّقَ الأمنَ الفكريَّ، في حين أنَّ التمسُّكَ بغير مَن أوصى النبيُّ ﷺ بالتمسُّك بهم (القرآن وعترته أهل بيته) يُعدُّ من الإرهابِ الفكريِّ، وهو ما يَشهدُه العالَمُ الإسلاميُّ اليومَ من خلال الحَركاتِ التَّكفيريّة»[1].

الأصل العاشر: اعتماد النِّظام الانتخابيّ في الوصول إلى الحُكم

يَعتبرُ الكاتبُ أنَّ الإشرافَ على شؤون النّاس، وتقرير مَصير المجتمع، يَجب أن لا يكونَ قائمًا على التسلُّط والجَبر والقَسر، وهو ما سارَت عليه الحكوماتُ التي تلَت وفاةَ (الرَّسول الكريم)، في حين أنَّ نهجَ (الإمام عليٍّ) عليه السلام كان مُختلفًا؛ حيثُ كان يُؤمنُ بأنَّ السُّلطةَ تأتي اختيارًا وطَوعًا لا قَسرًا وفَرضًا، وأنَّ الحريّةَ الفكريّةَ والسِّياسيّةَ هي التي تُحقِّقُ الأمنَ الفكريَّ في المجتمع، "وهو ما أسَّسَه عليه السَّلام حينَما بايَعَه المسلمونَ، فقال: ودعوتُ النّاسَ إلى بَيعتي، فمنْ بايَعَ طائعًا قَبلتُه منهُ، ومَن أبى لم أُكرِهْه»[2].

الأصلُ الحادي عشر: الطَّمعُ في السُّلطةِ سنامُ الحركاتِ التَّكفيريّة

يُبيِّنُ الكاتبُ أنَّ المرحلةَ السِّياسيّةَ التي مرَّت بها الأمّةُ مع بدايةِ عصرِ الخلافة، وما جَرى لاحقًا من أحداث، أسَّسَت لنهجٍ سياسيٍّ يقومُ على العصبيّة والإقصاء واحتكار السُّلطة، وهذا ما أسهَمَ في هدم بنيان الأمن الفكريِّ في الأمّة، الذي امتدَّ ليَطالَ لاحقًا كافّةَ مفاصلها، ولهذا لا بدَّ من مواجهة الفكرِ «الإقصائيِّ التَّكفيريِّ الذي أحلَّ قتلَ المسلم، ونهبَ ماله بكلِّ الوسائلِ المُمكنة؛ لما لهذا الفكرِ من ضررٍ كبيرٍ على الأمّة وأمنها، وذلكَ أنَّهم لن يَدَعوا بَشرًا أو حَجرًا حتى يَصلوا إلى السُّلطة، فهذه الأطماعُ السُّلطويّةُ أساسُ انعدامِ الأمنِ في كلِّ أمّةٍ من الأمم، وعلى مرِّ الزَّمانِ والمكان»[3].

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٢٠.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٢٣.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٢٦.

الأصل الثّاني عشر: توعيةُ المسلمينَ على حقيقة أهلِ البِدَعِ والمُنتحِلينَ للدِّينِ وكيفيّةُ مُواجهتِهم

يُسلِّطُ الكاتبُ الضَّوءَ هنا على قضيّةٍ مُهمّة، وهي أنَّ فشلَ المسلمينَ في تحقيقِ أمنِهم الفكريِّ يَعودُ إلى هَيمنةِ نَزعاتِ الجشعِ والطَّمعِ على نفوسِ حُكّامِهم وجَماعاتِهم ونُخَبِهم، خاصّةً أولئكَ الذينَ استلموا الحُكمَ بالغَصبِ والقوّةِ والإكراه، مُعتبرًا أنَّه لا سبيلَ لاستعادةِ الأمنِ الفكريِّ – والتَّوازنِ النَّفسيِّ الفكريِّ- من دونِ مواجهةِ أهلِ الانحرافِ والبِدَعِ، والكشفِ عن مواقعِ الزَّيفِ والضَّلالِ والبُهتانِ، وإعادةِ التَّركيزِ على قِيَمِ الإسلامِ الأصيلةِ في بناءِ الشَّخصيّةِ الإسلاميّةِ المُتوازنةِ، القائمةِ على فضائلِ الخيرِ والحقِّ والعَدل.

الأصل الثّالث عشر: إحياءُ ما أحياهُ القرآنُ وإماتةُ ما أماتَه القرآنُ

يُبيِّنُ الكاتبُ "أنَّ الإمامَ عليًّا عندَما قال: فقبلتُ منهم، وكففتُ عنهم، إذ وَنيتُم وأبيتُم، فكانَ الصُّلحُ بينكُم وبينَهم على رَجُلَينِ، يُحييانِ ما أحيا القرآنُ، ويُميتانِ ما أماتَ القرآنُ. فهو يُريدُ أن يُؤكِّدَ على أهميّةِ إحياءِ العملِ بكتابِ اللهِ تعالى، لأنَّه قاعدةُ ورَكيزةُ أيِّ أمنٍ فكريٍّ للمُسلمِ"[1].

الأصل الرّابع عشر: تعريفُ النّاسِ أنَّ العدوَّ الحقيقيَّ للمسلمينَ هم الطُّلقاءُ وأبناؤُهم وأشياعُهم، فهم أهلُ البِدَع

يَعتقدُ الكاتبُ أنَّ "وظيفةَ كلِّ عالمٍ ومُتعلِّمٍ وذي شأنٍ -قد وُكِلَ إليه أمرُ النّاسِ سواءٌ في الأسرةِ أو العملِ أو المجتمعِ بمُنظَّماته وهَيئاته وجَمعيّاته- التَّعريفُ بأنَّ العدوَّ الحقيقيَّ الذي تَلزمُ محاربتُه هم الطُّلقاءُ وأبناؤُهم، أي بَنو أميّةَ وأشياعُهم، ومُنتحِلُو سُنَّتِهم ومِنهاجِهم وأفكارِهم، فهؤلاءِ قادةُ الانحرافِ الفكريِّ في الأمّة"[2].

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٣٥.
٢ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص. ص٢٣٧- ٢٤٠.

الأصل الخامس عشر: محاربةُ العدوِّ تَقتضي البناءَ الفِكريَّ

لا يمُكِنُ بناءُ أيِّ فكرٍ سليمٍ، وتَحقيقُ الأمانِ الفكريِّ للفردِ والمجتمعِ، من دون النَّظرِ والتَّدقيقِ فيما يُواجهُه من مَخاطرَ وعداواتٍ، خاصّةً التّاريخيّةَ منها، والتي اكتسبَت شرعيّتَها بالقوّةِ والتَّسلُّطِ. هُنا يُبيِّنُ الكاتبُ «أنَّه من الضَّرورةِ اعتمادُ برنامجِ عملٍ فكريٍّ ونَفسيٍّ لخَوضِ تلكَ المُواجَهةِ، كي يَحصل الإنسانُ على الثِّمارِ الإيجابيّةِ النّاجمةِ عن مُحارَبةِ العدوِّ، لا سيَّما أهلُ البِدَعِ والشُّبهاتِ والانحرافِ الفكريِّ»[1].

الأصل السّادس عشر: الدّافع في تحقيق الأمنِ الفِكريِّ، حفظُ الأمّةِ من أن يَلِيَ أمرَها سفهاؤُها وفُجّارُها

في هذا الأصلِ يَضع (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام المعيارَ الأهمَّ لتَحقُّقِ الأمنِ الفكريِّ، وهو مُحارَبةُ كلِّ ما من شأنِه أن يُؤدِّيَ إلى استلامِ سُفهاءِ الأمّةِ وفُجّارِها أمرَ النّاسِ.. يقول (الإمامُ عليٌّ): «ولكنَّ أسفًا يَعتريني، وحُزنًا يُخامِرُني، من أن يَليَ أمرَ هذه الأمّةَ سُفهاؤُها وفُجّارُها، فيَتَّخذوا مالَ الله دُولًا، وعبادَ الله خَولًا، والصّالحينَ حَربًا»[2]. ويَعتبرُ الكاتبُ أنَّ أحوالَ المسلمينَ، والتَّغيراتِ التي طرأتْ عليهم لجهةِ انهيارِهم الحَضاريِّ وتكرارِ أزماتِهم، كانَت نتيجةً للمُقدِّماتِ التّاريخيّةِ التي حدثَت سابقًا، والتي تتجلّى في «انحرافِ الأمّةِ الفكريّ عن القرآنِ والسُّنّةِ المُحمَّديّةِ النَّقيّةِ، وأنَّ هذا الانحرافَ الفكريَّ قد قادَها إلى الخضوعِ لِما هو مَوروثٌ عَقديٌّ دونَ أيِّ تَنقيحٍ وتمَحيصٍ، وكأنَّ حالَ الأمّةِ لا يمُتُّ لأحدٍ من أبنائِها بشَيءٍ ولا يَعنيه أمرُها»[3].

الأصل السّابع عشر: التمسُّكُ بـ(عليِّ بن أبي طالبٍ) عليه السلام وطاعتُه يُحقِّقانِ الأمنَ في الدُّنيا والآخرة

يَعتقد الكاتبُ أنَّ زبدةَ القصّةِ كلِّها، «يمُكنُ إجمالُها في هذه الحقيقةِ، التي تخلَّفَ عنها السَّلَفُ، فدَفعوا من دمائِهم وأموالِهم وأبنائِهم ثمَنًا لها، وإنَّ الخَلَفَ لو اتَّعظوا من السَّلفِ وتَحقَّقوا في تلكَ

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٤٤.
٢ - ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، ج٦، ص١٠٠.
٣ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٥٥.

النَّتائج لأنقَذوا أنفسَهم وأبناءَهُم.. وأنَّهم لو تمسَّكوا بنَهجِ الرَّسولِ وأهلِ بَيته، عترته الطّاهرة، لأفلَحوا وتمَكَّنوا.. والحالُ أيضًا لا يَحتاجُ -يُتابعُ الكاتبُ- إلى بيانٍ لما وصلَت إليه الأمّةُ من فقدانٍ للأمنِ والأمانِ في جميعِ مجالاتِ الحياة، ولو أُعيدَ للأمّة رُشدُها في اتِّباعها جادّةَ الحقِّ، ورُجوعها إلى القرآنِ والسُّنة المُحمَّديّة، اللَّذَين أمَرا بالتمسُّك بعَليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السَّلام لَعَمَّ الأمنُ فيها، ولَعاشَتْ حياةً كريمةً في الدُّنيا ونَعميًا مُقيمًا أبدًا في الآخرة»[1].

في نهايةِ هذه المُراجعة لهذا الكتابِ المُهمِّ، نُنوِّهُ بالجهدِ المَبذولِ، والمُتابعةِ الفكريّة للكاتبِ في ملاحقته لمَسيرةِ حركةِ الدَّعوةِ الإسلاميّة منذُ بداياتِ نزولِ الرِّسالة، لإنجازِ كتابه، ووقوفه التَّحليليِّ على أهَمِّ ما رافقَ تلكَ المرحلةَ من أحداث وتغيُّراتٍ مِفصليّةٍ، كان لها بالغُ الأثرِ على مستقبلِ الإسلامِ والمسلمينَ.

١ - نبيل الحسني، الأمن الفكري في نهج البلاغة، ص٢٦١.

Intellectual Security in "Nahj al-Balagha"

◆ **Reviewed by: Nabil Ali Saleh**
Syrian writer and researcher

Abstract

The book's content is about intellectual security at the Islamic level, as stated in "Nahj al-Balagha". It means that a Muslim possesses the foundations and principles of Islamic belief, which prevent him from resorting to areas of weakness and committing errors. Thus, the Muslim's religion and knowledge of it are preserved both in thought and behavior. Although this term is of recent origin and usage, a closer examination of its background reveals that it has many prior historical impacts, implications, and extensions.

This book sheds light on a vital and ever-present topic: intellectual security. It covers this topic in its entirety, based on historical standards, texts, and events, highlighting in a standardized manner the sermons and words of Imam Ali (peace be upon him) contained in "Nahj al-Balagha" on this matter. It also shows that the nation's salvation and advancement depend on the necessity of ridding its historical arenas of all intellectual impurities, and the negative effects of deviant and misguided historical visions, which have continued to dominate and control minds and behaviors in many aspects of this nation and its historical and present contexts.

Keywords:

Intellectual Security - Nahj al-Balagha - Commander of the Faithful Imam Ali (PBUH).

Central Nature of Injustice In Laws of Individuals, Communities, Nations' Destruction in Holy Qur'an

◆ Eyad Mohammad Ali al-Arnaouti

Specialist in the language of the Holy Quran, Professor at the University of Baghdad.

Abstract

This study attempts to reveal the centrality of injustice, and its centrality to the laws of destruction and punishment in the Holy Quran.

This study aims at highlighting the major role of injustice, as a key reason for destruction and punishment in the Qur'an. It finds that the downfall of nations and communities is linked to their involvement in injustice. This destruction happens only after warnings, guidance, and enough time for change have been given. It does not occur randomly, but follows precise divine laws, ensuring that no one is wronged. Moreover, this destruction serves as a lesson for future generations, possibly guiding them to righteousness, and away from injustice.

Keywords:

Quran, Injustice, Communities, Nations, Humanity, Laws.

Ahl Al-Bayt's Approach in Protecting Islamic Society from Intellectual, Doctrinal Deviations

◆ **Sheikh Dr. Jadallah Tawfiq Ahmad**

PhD in Islamic Jurisprudence and Principles [Fiqh and Usul]. Researcher in Contemporary Thought, Syria.

■ Abstract

It is clear that the impregnable safeguard of the Islamic community is Islam itself. Indeed, Islam, with its noble teachings, is the salvation for all humanity. Undoubtedly, the approach of Ahl al-Bayt, (peace be upon them), is not a special approach distinct from Mohammadan Islam, but also the same as it, and derived from it. Therefore, studying the approach of the Ahl al-Bayt, (peace be upon them), is a study of the Islamic approach. As human life continues to evolve across various dimensions, it constantly brings about new realities and challenges. In light of this, Islam, meant to serve, as a lasting and timeless way of life, must be rooted in principles that can protect society from the deviations that may arise over time. This matter is of such significance that identifying these foundational principles becomes imperative, especially in our present era. Since true Islam, in its authentic form, is derived from Ahl al-Bayt (peace be upon them), presenting the foundations for protecting Islamic society through their approach represents the most reliable path to confronting the deviations that threaten the course of genuine Mohammadan Islam.

Keywords:

Approach, Fortification, Ahl al-Bayt (peace be upon them), Islamic Society, Deviation.

Media, Its Role in Promoting Intellectual Security From a Qur'anic Perspective

◆ **Dr. Mohammad Mahmoud Murtada**

Director of the Baratha Center for Studies and Research, Editor-in-Chief of Tabyin Magazine for sQur'anic Studies - Lebanon.

Abstract

This research examines the role of media in promoting intellectual security from a Quranic perspective, in a world where discourse and multiple influences abound. The research is based on a main question: How can media inspired by the Qur'an contribute to building a solid awareness that protects minds from confusion and protects hearts from being drawn into suspicion? it seeks to explore the Qur'anic approach to addressing discourse, reporting, and confronting intellectual deviations, analyzing how these characteristics can be activated in a contemporary media reality. The research also pays special attention to youth, the group most affected by media influence. It highlights the necessity of shifting from spontaneous media action to a conscious Quranic media project, which embodies the values of the message in its language, tools, and objectives, based on a delicate Quranic balance that combines warning and evangelism, addressing the mind and impacting the conscience.

The conclusion is some practical proposals that pave the way for setting both faithful and modern media.

Keywords:

Holy Quran, Media, Intellectual Security, Insight, Intellectual Deviations, Youth.

Role of Mind in Identifying Specific Types of Tribulations, Means of Addressing in Light of Holy Qur'an

◆ **Prof. Fadhel Madab Al-Masoudi**

Professor of Postgraduate Studies at the College of Jurisprudence, Specializing in Quranic Sciences and Interpretation, University of Kufa, Iraq.

Abstract

Mind is the first line of defense for both believers and non-believers. However, its noble attributes are most fully realized in a person who believes in his Lord. Through Mind, one can distinguish between truth and falsehood, and consequently between good and evil. It enables one to adopt sound positions, drawing upon the divine gifts and innate faculties bestowed by Allah, Almighty, capabilities that qualify the human being to engage in thoughtful moral judgment. The efficacy of mind, however, is contingent upon the intellectual and ethical nourishment it receives. The more a mind is cultivated upon sound foundations and noble moral principles, the more luminous, accurate, and pure its outcomes, clear very much.

This study endeavors to underscore the pivotal role of reason in identifying nuanced and qualitative tribulations (Fitan Naw'iyya), formulating prudent responses that shield one from falling into their snares, and proposing constructive pathways for resolution. Such an approach contributes to guiding the individual toward righteousness and secures their success and salvation in both this life and the hereafter.

Keywords:

Mind, Tribulations, Consciousness and Subconsciousness, Independent Minds, Religious Tribulations, Worldly Tribulations, Treatments.

Prophets' Approach to Achieve Pillars of Intellectual Security

Prophet Abraham (peace be upon him) as Model

◆ **Sheikh Dr. Abdul Qader Tarnani**

Professor at the Lebanese University, Department of Arabic Language and Literature.
Founder of the Al-Athar Al-Tayeb Cultural and Social Association, Lebanon.

■ Abstract

Achieving security is one of the most important aspirations of human societies, as it is the path to stability, progress, and prosperity in all areas of life. In this study, we explain the Islamic approach, who was led by the father of the prophets, Abraham (peace be upon him), to achieve true, prophetic security. He built " Holy Kaaba" with complete certainty based on this approach, hoping that Allah, Almighty, would grant apparent and hidden security to all corners of the world. This security is achieved through correct belief and the reorientation of human thought toward monotheism and complete servitude to Allah, Almighty. This creates human intellectual and ideological security, enabling all the goals of the divine messages on earth to be realized.

Keywords:

Intellectual Security, Prophet Abraham, Preaching, Holy Kaaba, Prophets' Approach.

Intellectual Security in Qur'an, Sunnah
Its Concept, Foundations, Obstacles

◆ **Dr. Mohammad Tohami Dakir**
Editor-in-Chief.

Abstract

The concept of security in the contemporary state has expanded to include new perspectives, linked to modern changes and contemporary challenges. Among these dimensions, "intellectual security" emerged, its importance and significance evident due to its connection to other political, social, military perspectives. This study attempts to explore the concept of "intellectual security" through the Holy Qur'an and the Sunnah, in light of the challenges Islam faces in its doctrinal, legislative, and moral systems, and the challenges of Western cultural and media globalization. The first part discussed the concept of intellectual security from an Islamic perspective and its fundamental foundations: the Qur'an, the Sunnah, and mind. The second part reviewed the most important obstacles to this security, and how to confront them, based on the teachings of the Holy Qur'an, and the guidance of the Prophet's Sunnah. These include: disabling the mind, blindly imitating forefathers, extremism, and following conjecture, etc. The study concluded that 'adhering to the guidance of Allah' is the key to achieving intellectual security on both the individual and societal levels.

Keywords:

Quran, Intellectual Security, Security Obstacles, Disabling Mind, Extremism, Blind Imitation.

Whoever seeks justice must first purify their mind, and whoever awaits the light must dispel the darkness of ignorance within. For justice can only be upheld by a witnessing nation, and Imam Mahdi will only emerge in a society intellectually prepared to carry the message.

Allah Almighty says: {And We wanted to confer favor upon those who were oppressed in the land and make them leaders and make them inheritors} [Al-Qasas, verse: 5].

Given the importance of this topic, we, at Tabyin Magazine, have chosen to address it in this issue's focus. This will be achieved through discussing: "Intellectual Security in Qur'an and Sunnah, its Concept, foundations, Obstacles"; Prophets and Ahl al-Bayt (peace be upon them) Approach to Achieve Intellectual Security, and protecting society from intellectual deviations; the role of faith-based education in protecting the family from deviations, and the role of reason in identifying specific temptations and ways to address them. There is also "research and studies", and "reading a book", which is "Intellectual Security in Nahj al-Balagha,"

We hope that these studies and research will contribute to enriching the discussion on this important topic, especially in light of the intellectual and ideological challenges facing the nation in our present time.

Allah is the Grantor of success.

Mahdi (may Allah hasten his appearance). Hence, intellectual security becomes a prerequisite for the validity of waiting [alentedhar], because a nation living in intellectual chaos, conflicting visions, and dominated by suspicions cannot be a nation that prepares for the coming of Imam Mahdi (may Allah hasten his appearance). Waiting [Alentedhar] is not merely a belief in a future event, but also a conscious state of mind that recognizes the nature of the conflict between truth and falsehood, and distinguishes between intellectual projects that contribute to paving the way for Imam Mahdi and those that obstruct the Mahdist path. Allah Almighty says: {Then is one who walks fallen on his face better guided or one who walks erect on a straight path?} [Al-Mulk: 22].

A person, who lacks intellectual security, lives in a state of mental confusion and loses the ability to take a firm stance, which makes them unprepared for true waiting [alentedhar]. They may fall into doubts, be swayed by misguided ideologies, or even drift into extremism and radicalism. On the other hand, conscious waiting [alentedhar] is based on a comprehensive vision, enabling an individual to move steadily towards the realization of divine justice.

2- Preparation begins with a clear vision

The Qur'an offers a comprehensive approach to achieving intellectual security, enabling the human mind to distinguish between truth and falsehood, resist misguided movements, and stand firmly against intellectual misguidance. The most prominent means to achieve this intellectual security include:

A. Enhancing awareness through deep contemplation and reflection.
B. Resisting intellectual distortion and falsification.
C. Rebuilding an independent and sound intellectual identity.

3- Intellectual security and building a society of waiting [alentedhar]

The Mahdist society is not a society that suddenly emerges upon the appearance of Imam Mahdi (may Allah hasten his appearance). Rather, it is the result of a long preparatory process, in which intellectual security is the cornerstone. A nation that lacks intellectual clarity, firm conviction, and the ability to analyze reality cannot be at the forefront of the divine project.

Therefore, every intellectual effort to protect awareness, every stand against cultural distortion, and every endeavor to spread Qur'anic consciousness is part of preparing the ground for the reappearance of Imam Mahdi (may Allah hasten his appearance). For the Imam will not lead a fragile society, but a nation that has reached a level of intellectual maturity enabling it to bear the responsibility of divine justice. Striving to achieve intellectual security is not merely a cultural or academic duty, it is a fundamental prerequisite for becoming a nation ready to receive Imam Mahdi, and capable of building the promised divine civilization.

- Developing the minds of young people based on the methodology of verification and validation, so that they learn not to believe any information without evidence.
- Rehabilitating intellectual dialogue and scientific debate as a means of enhancing intellectual security.
- Integrating Quranic studies with modern humanities, so that Islamic thought is capable of presenting a comprehensive civilizational vision.

4- Intellectual security as a condition for the nation's survival

The survival of the Islamic nation and its continued fulfillment of its divine mission largely depends on its ability to maintain intellectual security. Civilizations do not collapse from external forces before they collapse from within. Therefore, rebuilding the Islamic mindset - according to a balanced Qur'anic approach, achieving harmony between faith and reason, certainty and reflection, openness and caution, as well as between constants and progress - is the only way to ensure a secure intellectual future and a prosperous civilizational one.

Fifth: Intellectual Security between Quran, Concept of Alentedhar, Foundational Step toward Mahdist Awareness

Talking about intellectual security is not just about protecting minds from deviant ideas; it is also deeply connected to the divine plan aimed at establishing justice on earth. From the Quranic perspective, intellectual security is a key part of preparing society for the reappearance of Imam Mahdi (may Allah hasten his appearance). A society plagued by confusion, conflicting ideologies, and an inability to distinguish truth from falsehood cannot be truly ready to embrace the Mahdist mission.

The Holy Qur'an emphasized the importance of intellectual security as a key foundation for building a society that can stand for martyrdom and preparing. Without clear thinking, firm beliefs, and a vision grounded in certainty, not doubt or confusion, people cannot truly play their role in this mission. Therefore, the Qur'an presents intellectual security as part of a constant struggle between truth and falsehood, between divine guidance built on certainty, and human thinking that can easily go astray under the influence of desires or misinformation. This can only be achieved through a coherent intellectual system that protects minds from manipulation and prepares them for the role of martyrdom and preparing.

1- Intellectual security as a condition for conscious and responsible awaiting [alentedhar].

The concept of awaiting [alentedhar] in the Mahdist doctrine is not a passive state of anticipation, but also an intellectual project, a state of mental and psychological readiness, and tireless work to prepare the ground for the appearance of Imam

1– The balance between openness and core principles: key to civilizational intellectual security.

No civilizational project can advance without maintaining a balance between openness to the world and adherence to foundational principles. A society that isolates itself from intellectual developments loses its ability to engage with contemporary realities, while a society that relinquishes its principles ultimately dissolves into the other. The Holy Qur'an establishes a precise balance between these two trajectories. It calls for openness to knowledge and interaction with other nations, while simultaneously warning against assimilation into deviant ideologies or abandoning faith-based values. Allah, Almighty, says: {And thus we have made you a just community} [Al-Baqarah, verse: 143].

This Qur'anic guidance delineates the features of civilizational intellectual security as follows:

- Embracing new ideas, but in accordance with the standards of truth and justice.
- Engaging with other cultures, without compromising Islamic identity.
- Differentiating between legitimate intellectual progress and ideological deviations that threaten core values and beliefs.

2- The role of intellectual security in building a just and free society.

Intellectual security is not merely a tool for protecting faith; rather it is the foundation upon which justice and freedom are built in society. When Islamic thought is immune from extremism or chaos, it produces a balanced society that respects the rights of others, establishes justice, and promotes the values of mercy and tolerance, without being subject to external ideological pressures. The Qur'an emphasizes that the absence of sound thinking leads to injustice and tyranny. God Almighty says: {And whoever does not judge by what Allah has revealed - then it is those who are the wrongdoers.} [Al-Ma'idah, verse: 45]. This indicates that the absence of intellectual security is not merely a philosophical issue, but also a factor that directly affects justice in society. When intellectual forces manipulate concepts and distort principles, people become unable to recognize the truth, leading to the spread of injustice, and the absence of tyranny.

3- Qur'anic strategy to promote intellectual security in future generations.

In light of the enormous intellectual challenges facing the Islamic nation today, it becomes imperative to develop a Quranic strategy to enhance intellectual security. This strategy should be based on:

- Teaching the Qur'an as a comprehensive intellectual curriculum, not merely a book of Islamic rulings.

nation toward true awareness and intellectual integrity.

Third: Means of Achieving Intellectual Security according to Qur'anic Approach

Building intellectual security in light of the Holy Quran is not merely a fortification against deviation. rather, an integrated process includes education, critical thinking, certainty, dialogue, and conscious openness to knowledge. The Holy Quran contains a set of tools and methodologies that enable people to confront doubts, distinguish between truth and falsehood, and develop an independent intellectual vision that is free from media deception or ideological manipulation. Among these methods, the Holy Quran has indicated:

- Education based on reflection and contemplation. Allah Almighty says: {Do they not then reflect upon the Qur'an, or are there locks upon their hearts?} [Mouhammad, verse: 24].
- Systematic dialogue to build sound thinking. Allah Almighty says: {and argue with them in a way that is best} [Al-Nahl, verse: 125].
- Fortifying the faith identity to stand firm against intellectual penetration. Allah Almighty says: {There has come to you from Allah a light and a clear Book} [Al-Ma'idah, verse: 15].
- Achieving a balance between openness and intellectual caution. Allah Almighty says: {And do not pursue that of which you have no knowledge} [Al-Isra', verse: 36].
- Establishing the concept of "verification" in receiving information. Allah Almighty says: {O you who have believed, if there comes to you a disobedient one with information, investigate, lest you harm a people out of ignorance and become, over what you have done, regretful.} [Al-Hujurat, verse: 6].

Based on these methods, it can be said that the Holy Quran presents a comprehensive approach to achieving intellectual security. It is not limited to fortification against deviant ideas, but also extends to build a conscious mind, capable of approaching knowledge with awareness, criticism, and discernment.

Fourth: Intellectual Security, Building of Islamic Civilization

Deviant ideas have been the primary factor in the disintegration of civilizations and the downfall of nations throughout history. The spread of illusions, doubts, extremism, and blind imitation leads to the collapse of intellectual stability, paving the way for the collapse of society as a whole. The Qur'an emphasizes this meaning, warning that any nation that loses its intellectual compass is vulnerable to collapse. Allah Almighty says: {And when it is said to them, "Do not cause corruption on the earth," they say, "We are only reformers." Unquestionably, it is they who are the corrupters, but they perceive not. [Al-Baqarah, verses: 11-12].

fluctuating intellectual currents.

*Second: Intellectual Threats in Holy Qur'an, Warnings against Them

The Holy Qur'an's approach to building intellectual security is not limited to establishing sound principles and guiding people toward sound thinking. Rather, it also extends to warning against intellectual threats that can mislead people, divert them from the truth, leading them to doubt and falsification. The Qur'an presents a comprehensive vision of the dangers that threaten sound thinking, and establishes rules for protecting and dealing with them. This is so that a person can maintain his sanity, adhere to the truth, and remain immune to intellectual penetration or doctrinal deviation.

Among these threats mentioned in the Holy Quran are:

1. Intellectual falsification and intentional distortion of facts. Allah Almighty says: {those who distort words from their [proper] usages.} [An-Nisa, verse: 46].
2. Desire as a source of intellectual deviation. Allah Almighty says: {Have you seen he who has taken as his god his desire, and Allah has sent him astray due to knowledge} [Al-Jathiyah, verse: 23].
3. The impact of doubts and temptations on the mind. Allah Almighty says: {And when they meet those who believe, they say, "We believe"; but when they are alone with their evil ones, they say, "Indeed, we are with you; we were only mockers.} [Al-Baqarah, verse: 14].
4. Blind imitation and the absence of critical thinking. Allah Almighty says: {And when it is said to them, "Follow what Allah has revealed," they say, "Rather, we will follow that which we found our fathers doing." Even though their fathers understood nothing, nor were they guided?} [Al-Baqarah, verse: 170].
5. Media propaganda and cultural misinformation. Allah Almighty says: {So he deceived his people, and they obeyed him. Indeed, they were a people of evildoers.} [Al-Zukhruf, verse: 54].

The Holy Quran has established enduring principles for protecting thought from deviation, through:

- Encouraging a mindset of inquiry, where ideas are examined carefully before being embraced.
- Developing the ability to discern truth from manipulation, and resisting the urge to follow trends without critical thought.
- Adopting reflection and deep contemplation as paths to discovering truth, rather than relying on inherited beliefs or unexamined traditions.
- Establishing a deep-rooted sense of faith-based certainty, so that the mind is not constantly vulnerable to doubt.

With these principles, intellectual security becomes not just a means of protection from loss, but also a tool for creating an independent mind, capable of leading the

repeated in a manner that encourages contemplation and reflection. Allah Almighty says: {do they not reflect upon

the Qur'an, or are there locks upon hearts?} [Mohammad, verse: 24].

The verse indicates that intellectual stagnation, a closed mind, and a lack of contemplation are all factors that threaten human intellectual security, leading to the misguidance and ignorance.

In contrast, the Qur'an emphasizes that true intellectual security can only be achieved through combining reason and faith, sound thinking and firm certainty.

Allah Almighty says: {Indeed, in the creation of the heavens and the earth and the alternation of the night and the day are signs for those of understanding.} [Al Imran, verse: 190]. This emphasizes that contemplating Allah's verses is a fundamental means of reinforcing intellectual stability, anchoring the mind in profound truths rather than allowing it to drift among illusions and unfounded assumptions.

3- The Importance of Certainty in Building Sound Thinking

One of the main problems of modern thought is the constant state of doubt and uncertainty. People today face a flood of conflicting information, which has led many to lose confidence in certainties, and to live in a state of constant intellectual anxiety.

However, the Qur'an emphasizes certainty as a key condition for protecting the mind from confusion and deviation. It affirms that truth is not relative, as materialistic thinking claims, but that there are firm, absolute truths that cannot be denied. Allah, Almighty, says: {And indeed, it is the truth of certainty} [Al-Haqqah: 51].

A person, who lives with intellectual certainty, is not easily misled by doubts or extreme and misleading ideologies. His faith is strong, his path is steady, and his convictions are built upon divine truths that remain unchanged regardless of time or circumstances.

4- The Role of Reflection and Contemplation in Protecting the Mind

The Noble Qur'an places deep reflection and contemplation on Allah's verses as one of the greatest means of protecting the mind from intrusions and deviations: {Then do they not look at the camels, how they are created?} [Al-Ghashiyah, verse: 17].

This call to reflect on creation is not merely a call for knowledge, but also a foundation for shaping a balanced intellect, capable of analyzing phenomena, distinguishing between truth and falsehood, and safeguarding thought from media and cultural manipulation aimed at shaking a person›s certainty. Based on the above, it becomes clear that intellectual security in the Qur›an is not just a shield against deviation, but also a comprehensive project to rebuild the mind on sound logical and faith-based foundations. Through certainty, reflection, verification, and contemplation, a person is able to protect their mind from deviation and construct a clear and steady vision regarding major truths, so that they are not subject to

When thought deviates, it can lead a person down a misguided path, even if they believe they are moving in the right direction. For this reason, the Qur'an consistently urges individuals to verify, reflect upon, and contemplate information before accepting it. Intellectual deviation is not merely a lapse in knowledge; but also a slip that leads a person into loss and failure. As Allah Almighty says: {Say, Shall we inform you of the greatest losers as to deeds? Those whose effort is lost in worldly life, while they think that they are doing well in work. } [Al-Kahf, verses: 103-104].

In this context, the discussion of intellectual security in the Holy Qur'an is not merely a cultural issue, but rather a necessity of faith, a civilizational principle, and a Quranic approach to protecting humanity from falling into the chaos of ideas and doubts. Intellectual security is a comprehensive framework designed to cultivate a conscious mind-discerning, resilient against misinformation, open to dialogue, and steadfast in the pursuit of truth. Hence, the research into this issue is not only limited to being a cognitive study, but also a necessary step. This step is towards understanding how the Qur›an can serve as a guardian of the Muslim mind, a guarantor of its integrity, and a guide for its thinking, at a time when intellectual trends are intertwined, and humanity needs a Qur›anic guiding to the straight path.

First: Intellectual Security in Holy Qur'an Concept, Foundations

The discussion of intellectual security in the Holy Qur'an cannot be reduced to merely preventing destructive ideas or confronting deviant intellectual trends. Rather, it is a broader and deeper concept, based on establishing a comprehensive approach to formulating human thought,s according to the balance of truth and certainty, such that humans are able to distinguish between right and wrong, truth and falsehood, and righteousness and deviation.

1- The Concept of Intellectual Security in Light of Holy Qur'an

Intellectual security is a state of mental stability that enables a person to confront doubts and whims without deviating or going astray. The Holy Qur'an presents a clear vision of intellectual security, embodied in doctrinal clarity, cognitive verification, and a balance between reason and revelation. Allah Almighty says: {Know, therefore, that there is no god but Allah, and ask forgiveness for thy fault} [Muhammad, verse: 19]. The Qur'an affirms that knowledge and certainty are the foundations of intellectual security, and that the greatest safeguard against loss is faith based on verification and confirmation, not on conjecture and blind following.

2- The Relationship between Reason and Intellectual Security in the Qur'anic Perspective

The Holy Qur'an recognizes that the mind is not merely a tool for thinking, but rather a responsibility before God. Therefore, we find that verses that address the mind are

Intellectual Security Stronghold of "Alentedhar" Society

Editor-in-Chief:
◆ **Dr. Mohammad Mahmoud Mortada**

In an era marked by rapid intellectual transformations, increasing cultural interconnectivity, the proliferation of knowledge sources, and the widespread circulation of divergent ideas, intellectual security has become an indispensable necessity. It serves to safeguard minds against confusion, deviation, and systematic doubt. The threats facing humanity are no longer limited to military wars or economic crises, minds themselves have become arenas of conflict, where misleading ideas are planted, and the ability to distinguish between truth and falsehood is taken away.

The Holy Qur'an has pointed to this fact for centuries, emphasizing that the real struggle is not merely between political or economic powers, but between a sound vision of existence and deviant perceptions that mislead people from their true purpose.

Allah, Almighty, says: {And do not pursue that of which you have no knowledge. Indeed, the hearing, the sight and the heart, about all those will be questioned.} [Al-Isra, verse: 36].

This divine warning not only addresses the issue of misinformation, but also goes beyond that to establish a profound foundation for intellectual security, that the mind is responsible for the knowledge it acquires, and that it may not base its judgments on conjectures and suspicions. Hence, we find that the Qur'an does not present thought as a mere mental process, but rather links it to insight, responsibility, and a deep awareness of the realities of existence.

Islam has made protecting thought from deviation as a part of the comprehensive human security system. Protecting oneself from harm, one's wealth from loss, and one's honor from violation are essentials for a dignified life. Protecting one's mind from misguidance and intellectual confusion is also a major term for one's own safety, because the mind is the primary gateway that determines one's path in this world and the hereafter. The Holy Qur'an emphasizes that true security begins with the integrity of thought, clarity of vision, and purity of understanding about Allah Almighty, existence, and humanity. Allah Almighty says: {Then is one who walks fallen on his face better guided or one who walks erect on a straight path?} [Al-Mulk, verse: 22].

index

Editorial

6 **Intellectual Security Stronghold of "Alentedhar" Society**
Editor-in-Chief

Focus

15 **Intellectual Security in Qur'an, Sunnah**
Dr. Mohammad Tohami Dakir

16 **Prophets' Approach to Achieve Pillars of Intellectual Security**
Sheikh Dr. Abdul Qader Tarnani

17 **Role of Mind in Identifying Specific Types of Tribulations, Means of Addressing in Light of Holy Qur'an**
Prof. Fadhel Madab Al-Masoudi

18 **Media, Its Role in Promoting Intellectual Security From a Qur'anic Perspective**
Dr. Mohammad Mahmoud Murtada

19 **Ahl Al-Bayt's Approach in Protecting Islamic Society from Intellectual, Doctrinal Deviations**
Sheikh Dr. Jadallah Tawfiq Ahmad

Studies and Researches

20 **Central Nature of Injustice In Laws of Individuals, Communities, Nations' Destruction in Holy Qur'an**
Eyad Mohammad Ali al-Arnaouti

Reading in Book

21 **Intellectual Security in "Nahj al-Balagha"**
Reviewed by: Nabil Ali Saleh

At Upcoming issue

Rationalizing Consumption according to Holy Qur'an

Magazine Message:

1 - Returning to Holy Qur'an and confirming the authority of its verses in addressing the issues of the contemporary nation.

2 - Spreading Qur'anic culture on a large scale and linking the nation to its Holy Book (Qur'an) to overcome leaving the Qur'an cognitively.

3 - Emphasizing the ability of Holy Qur'an to revive the spirit and renew effectiveness in the mind and conscience of the nation to achieve the desired renaissance.

4 - Consolidating the authority of Ahl al-Bayt (Prophet Family) (peace be upon him) in understanding and interpreting the Qur'an based on the Hadith of al-Thaqalayn (statement attributed to the Islamic prophet Mohammad, that introduces the Qur'an), due to the importance of this in paving the way for the promised Mahdist society.

Scientific Body

- Dr. Abbas Al-Fahham: Qur'an Rhetoric – Iraq.
- Dr. Hassan Reda: Education – Lebanon.
- Dr. Mabrouk Zad Al-Khair: Islamic Studies – Algeria.
- Dr. Talal Faiq Al Kamali: Interpretation and Qur'an Sciences – Iraq.
- Dr. Mohammad Reda Haji Esmaili: Qur'an Studies – Iran.
- Dr. Iqbal Najm Wafi: Qur'an Sciences – Iraq.
- Dr. Mounir Ben Jamour: Jurisprudence and its Sciences – Tunisia.
- Dr. Fadel Madab Al-Masoudi: Interpretation and Qur'an Sciences – Iraq.
- Dr. Mohammad Kazem Rahman Staish: Qur'anic Sciences – Iran.

Editorial board (alphabetical order)

- Eng. Dr. Asaad Abdul Razzaq Al-Asadi: Sharia and Islamic Sciences – Iraq.
- Sheikh. Dr. Jawad Riad: Jurisprudence and its Sciences – Egypt.
- Dr. Hassan Kadhim Asad: Interpretation and Qur'an Sciences – Iraq.
- Mr. Hussein Ibrahim: Qur'an Sciences - Lebanon.
- Eng. Dr. Hakim Salman Al-Sultani: Qur'an Sciences – Iraq.
- Dr. Abdullah Janouf: Islamic Studies – Tunisia.
- Eng. Ali Banayan Asfahani: Sciences of Qur'an and Hadith – Iran.
- Dr. Qaid Abd al-muttalib al-Fahham (Interpretation and Qur'an Sciences - Iraq)
- Eng. Dr. Leka Jawad Al-Kaabi: Sciences of Qur'an and Hadith – Iraq.
- Eng. Mohammad Reda Sotoudehnia: Sciences of Qur'an and Hadith - Iran.

General Supervisor:
Sheikh Jalal al-Din Al-Sagheer

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Managing Editor:
Dr. Mohammad Dakir

Managing Director:
Dr. Ali mohammad jawad fadlollah

Creative Director:
Mr. Khaled Mimari

Proofreading:
Dr. Mahmoud al-hasan

Translators:
Mrs. Lina al-Saqer (English)
Dr. Mohamad Firas Alhelbawi (Persian)

Tabyin For Quranic Studies

«Tabyin for Quranic Studies» is a quarterly scientific periodical magazine, issued by «Baratha Center for Studies and Research» in Beirut and Baghdad. It is concerned with approaching contemporary intellectual issues and challenges from a Qur'anic approach, and aims to root contemporary issues from a Qur'anic perspective, and to spread Qur'anic culture.

Intellectual Security in Holy Qur'an

2nd year - Issue (6): Winter 2025 AD - 1446 AH

ISSN:
: 3005-6691
: 3005-6705

For Quranic Studies
TABYIN

issued by:

A quarterly journal concerned with approaching contemporary intellectual issues and challenges from a Qur'anic approach

www.barathacenter.com
www.Tabyin.barathacenter.com
Tabyin.magazine@gmail.com

Baratha Center for Studies and Research
Beirut- Baghdad

ISSN: 3005-6691 : 3005-6705

For Qur'anic Studies
TABYIN
issued by Baratha Center
for Studies and Research

2nd year - Issue (6): winter 2025 AD - 1446 AH

Intellectual Security in Holy Qur'an

Editorial:
- Intellectual Security Stronghold of "Alentedhar" Society

Focus:
- Intellectual Security in Qur'an, Sunnah
- Prophets' Approach to Achieve Pillars of Intellectual Security
- Role of Mind in Identifying Specific Types of Tribulations, Means of Addressing in Light of Holy Qur'an
- Media, Its Role in Promoting Intellectual Security in Qur'an
- Ahl Al-Bayt's Approach in Protecting Islamic Society from Intellectual, Doctrinal Deviations

Studies and Researches
- Centrality of Injustice, Fall of Nations in Qur'an

Reading in Book
- Intellectual Security in "Nahj al-Balagha"

Baratha Center for
Studies and Research